التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة ص

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (فرع أسيوط)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثامن والعشرون

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة ص)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن والعشرون - سورة ص / القسم
العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٢ هـ
٣٥٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٢ ١٤٤٢/٩١٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩١٥٠
ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net
المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة ص)

إعْدَادُ

القِسمِ العِلميِّ بِمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

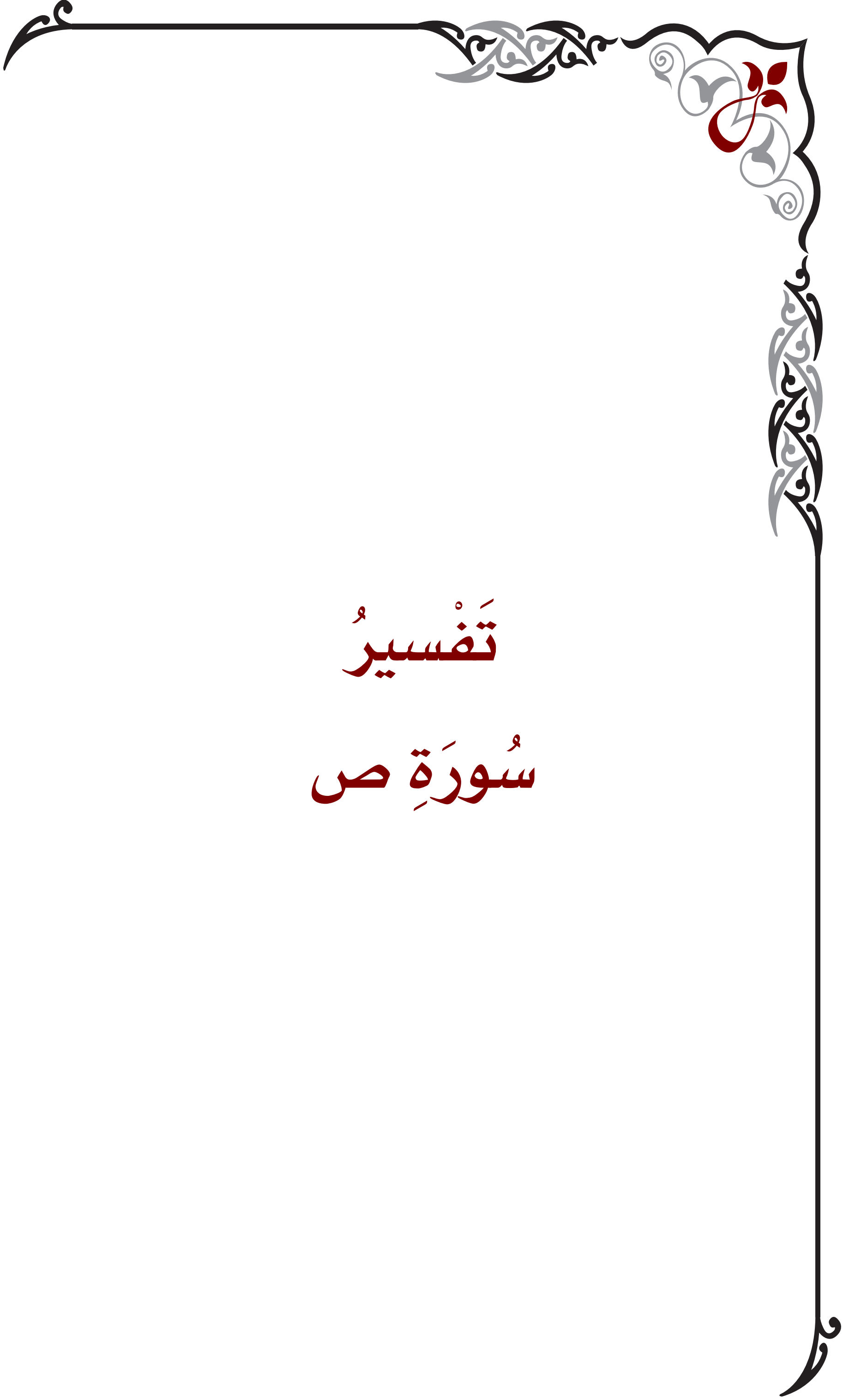
الإشْرَافُ العَامُّ

الشَّيخ عَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثامن والعشرون

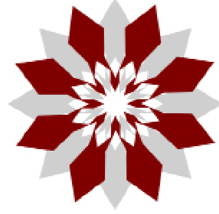
الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

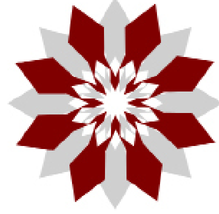
بسم الله الرحمن الرحيم

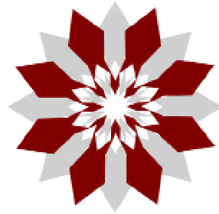


تَفْسِيرُ

سُورَةِ ص







سورةُ ص

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (ص)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (ص) مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ[٣].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:

١- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِهم لِنُبُوَّتِه وما جاء به مِن التَّوحيدِ.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن قَومِه، بذِكرِ عَدَدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سورةَ (ص)؛ لافتِتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ في المصاحفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والآثارِ عن السَّلَفِ سورة «صاد»، كما يُنطَقُ باسمِ حرفِ الصَّادِ؛ تَسميةً لها بأوَّلِ كَلِمةٍ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠١).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ١٢٧).

الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَت رُسُلَها، مع أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ.

٣- حِكايةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، وابتِلاءِ اللهِ له، وصَبرِه على ذلك.

٥- ثناءُ اللهِ على أنبيائِه: إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، وذي الكِفْلِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمُتَّقينَ مِن نَعيمٍ، وما أعَدَّه للطَّاغينَ مِن عَذابٍ ونَكالٍ.

٧- ذِكرُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ آدَمَ وإبليسَ.



الآيات (١-٣)

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِزَّةٖ﴾: العِزَّةُ: المُغالَبةُ والمُمانَعةُ، مِن قَولِهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

﴿وَشِقَاقٖ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى انصِداعِ الجماعَةِ وتفرُّقِها، وقيل: الشِّقاقُ: المخالفةُ، وكونُك في شِقٍّ غيرِ شِقِّ صاحِبِك، أو مِن: شَقِّ العصا بينَك وبينَه[2].

﴿قَرۡنٖ﴾: القرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثَمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقتِرانِ، وهو اجتِماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ[3].

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾: أي: ليس الحِينُ حينَ فِرارٍ ولا مَهرَبٍ، وأصلُ (نوص):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

يدُلُّ على ترَدُّدٍ ومَجيءٍ وذَهابٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ * كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ﴾

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ (الواو) واوُ القَسَمِ حَرفُ جَرٍّ. (القُرآن) مجرورٌ بـ(الواو)، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقانِ بفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: أُقسِمُ. (ذي) نعتٌ للقُرآنِ مجرورٌ. ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ مضافٌ إليه مجرورٌ.

وجوابُ القَسَمِ فيه أقوالٌ كثيرةٌ؛ أحدُها: أنَّه قَولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾، والأصلُ: لَكَمْ أهلَكْنا، فحَذَفَ اللَّامَ. الثَّاني: أنَّه قولُه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ص: ١٤]. الثَّالثُ: أنَّه مَحذوفٌ، واختَلَفوا في تقديرِه[(٢)].

قَولُه: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ الواوُ: واوُ الحالِ. (لاتَ) حرفُ نفيٍ يَعمَلُ عمَلَ (ليس)، واسمُه محذوفٌ تقديرُه: الحينُ. ﴿حِينَ﴾ خبَرُ (لاتَ) مَنصوبٌ، والجُملةُ حاليَّةٌ من فاعِلِ (نادَوْا) في مَحلِّ نَصبٍ، أي: استغاثوا والحالُ أنَّه لا مَهرَبَ ولا مَنجَى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

و(لات) حرفُ نفيٍ، أصلُه (لا)، وزِيدتْ عليها التاءُ، كما زِيدت في (ثُمَّتَ). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣٣٤)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان (٤/ ٢٨٧).

(٢) ويُنظر ما سيأتي (ص: ١٢).

وقد استبعَد ابنُ القيِّم القولَ الأوَّلَ والثانيَ في جوابِ القسمِ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٣٤٤-٣٤٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠١).

المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ الكَريمةُ بحرفِ (ص)، وهو مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ والتَّذكيرِ على أنَّه ما كان الأمرُ كما يَقولُ هؤلاءِ الكُفَّارُ، وأنَّهم إنَّما لم يَنتَفِعوا بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأنَفةٍ مِن قَبولِه والإيمانِ به.

ثمَّ يُحذِّرُهم الله تعالى مِن أنْ يُصيبَهم ما أصاب الأُمَمَ مِن قَبْلِهم بسببِ مُخالَفتِهم للرُّسلِ وتكذيبِهم الكتبَ المُنزلةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ ما أهلَكَ اللهُ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم! فنادَى أولئك الكُفَّارُ مُستَغيثينَ برَبِّهم حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خَلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾.

﴿صٓ﴾.

هذا الحرفُ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريم، يأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ، العَظيمِ القَدْرِ، المُذَكِّرِ للعبادِ بما هم عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

غافِلونَ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

قيل: المرادُ بالذِّكرِ: الشَّرفُ. وممَّن اختاره: السمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو حَصينٍ، وأبو صالحٍ، وإسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ عُيَيْنةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وقيل: ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: ذي التَّذكيرِ لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّه كتابٌ شريفٌ مُشتَمِلٌ على التَّذكيرِ والإعذارِ والإنذارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: أي أنَّ الذكرَ معناه الشَّرَفُ والتَّذكيرُ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالذِّكرِ ذِكرُ اللِّسانِ، وهو على معنى: الَّذي يُذكَرُ، بالبناءِ للنَّائبِ، أي: والقُرآنِ المذكورِ، أي: المَمدوحِ المُستَحِقِّ الثَّناءَ، على أحدِ التَّفسيرَينِ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: شَرَفُكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

واختلف المُفسِّرونَ في جوابِ هذا القَسَمِ على عِدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّه مَحذوفٌ دَلَّ عليه قَولُه =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: إنَّما لم يَنتَفِعِ الكافِرونَ بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأَنَفةٍ وامتِناعٍ مِن

= تعالى بعدَها: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ٢]، وتقديرُه: «ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاء الكافِرونَ، بل هم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ». وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وذكر الشِّنقيطيُّ أنَّ المُقْسَمَ على نَفْيه يَشملُ ثلاثةَ أشياءَ مُتلازِمة:

الأوَّلُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُرسَلٌ مِن الله حَقًّا، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُ الكُفَّارُ.

والثَّاني: أنَّ الإلهَ المعبودَ جَلَّ وعلا واحِدٌ، لا كما يَقولُه الكُفَّارُ.

والثَّالثُ: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يَبعَثُ مَن يموتُ، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُه الكُفَّارُ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وقيل: لم يُذكَرْ جوابُ القَسَمِ؛ لأنَّ في المُقسَمِ به ما يدُلُّ عليه؛ فما في المُقسَمِ به مِن تعظيمِ القُرآنِ ووَصفِه بأنَّه ذو الذِّكرِ المُتضَمِّن لتذكيرِ العبادِ ما يحتاجونَ إليه؛ وللشَّرَفِ والقَدْرِ، وكَونه حَقًّا من عندِ اللهِ غيرَ مُفترًى كما يقولُه الكافِرونَ: ما يدُلُّ على جوابِ القَسَمِ المحذوفِ، فيكونُ تقديرُه: إنَّ القُرآنَ لَحَقٌّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقدير: ابنُ القيِّم. وذكر أنَّه معنَى قَولِ كثيرٍ من المفَسِّرينَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قَبولِه والإيمانِ به، ومُشاقَّةٍ ومُعانَدةٍ وخِلافٍ ومُخاصَمةٍ في رَدِّه وإبطالِه، أو في القَدحِ بمَنْ جاء به[١].

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ بالعِزَّةِ والشِّقاقِ؛ خَوَّفَهم، فقال[٢]:

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾.

أي: ما أكثَرَ ما أهلَكْنا مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم برَسولِهم، ومُخالَفتِهم كِتابَ رَبِّهم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾.

أي: فنادَى كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رَبَّهم، واستغاثوا بالتَّوبةِ إليه حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ، والتَّضرُّعِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، والإنابةِ إليه؛ فلا يَنفَعُهم ذلك حينَئذٍ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فيه أنَّ التَّوبة لا تَنفَعُ إلَّا عندَ التَّمَكُّنِ والاختيارِ، لا عندَ الغَلَبةِ والاضْطِرارِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تأمَّلِ السُّورَ الَّتي اشتَمَلتْ على الحروفِ المُفرَدةِ، كيف تَجِدُ السُّورةَ مَبنيَّةً على كَلِمةِ ذلك الحرفِ؛ فتأمَّلْ ما اشتمَلَتْ عليه سُورةُ «ص» من الخُصوماتِ المُتعدِّدةِ؛ فأوَّلُها خُصومةُ الكُفَّارِ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخِرِ كلامِهم، ثمَّ اختِصامُ الخَصْمَينِ عندَ داودَ عليه السَّلامُ، ثمَّ تَخاصُمُ أهلِ النَّارِ، ثمَّ اختِصامُ المَلأِ الأعلى في العِلْمِ -وهو الدَّرَجاتُ والكَفَّاراتُ-، ثمَّ مُخاصَمةُ إبليسَ واعتِراضُه على ربِّه في أمرِه بالسُّجودِ لآدمَ، ثمَّ خِصامُه ثانيًا في شأنِ بَنيه، وحَلِفُه لَيُغْوِيَنَّهم أجمعينَ إلَّا أهلَ الإخلاصِ منهم؛ فلْيتأمَّلِ اللَّبيبُ الفَطِنُ: هل يَليقُ بهذه السُّورةِ غيرُ «ص»[٢]؟!

= (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣١، ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحَرفٍ، تكلَّمَ به بالحُروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتكلَّمُ النَّاسُ بها ويَتركَّبُ منها كَلامُهم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَسكُتونَ على كُفرِهم، ويَستَمِرُّونَ في طُغيانِهم وأَنَفتِهم، بل يُحاوِلونَ أنْ يَصُدُّوا عِبادَ اللهِ عن دينِ الله؛ لأنَّهم في شِقاقٍ دائمٍ؛ يُشاقُّون اللهَ ورَسولَه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ في عِزَّةٍ وشِقاقٍ مع الحَقِّ دائمًا؛ سواءٌ مع الله، أو مع الرَّسولِ، أو مع وَرَثةِ الرَّسولِ -وهم العُلَماءُ-، أو مع أتْباعِ الرَّسولِ عُمومًا -وهم المؤمِنونَ-؛ فهم في شِقاقٍ دائمٍ مع الحَقِّ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ الزَّجرُ عن الأنَفةِ مِن اتِّباعِ الحقِّ، وبيانُ أنَّ ذلك مِن خِصالِ الَّذين كفروا، والأنَفةُ مِن مُتابَعةِ الحقِّ وسيلةٌ إلى تركِه، والأنَفةُ من الحقِّ قبيحةٌ، كما أنَّ الأنَفةَ مِنَ الباطلِ حسَنةٌ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ تحذيرُ هؤلاء المُكذِّبين، وأنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ في شَيءٍ كما لم يُعجِزْه مَن سَبَقَهم ممَّن كان قَبْلَهم مِن الأُمَمِ الَّتي أُهلِكَت(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أنَّ التَّكذيبَ للرُّسُلِ كان كثيرًا؛ لأنَّ إهلاكَ القرونِ إنَّما كان بسببِ تكذيبِهم؛ فإذا كَثُرَت القُرونُ المُهْلَكةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

فلازِمُ ذلك أنْ يَكْثُرَ التَّكذيبُ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أنَّ الأُمَمَ المُهْلَكةَ إذا نَزَل بهمُ العذابُ فليس هناك فِرارٌ مِن هذا العَذابِ الَّذي نَزَل بهم، ولا تَنفَعُهم استِغاثةٌ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ جاءتْ فاتحةُ السُّورةِ مُناسِبةً لجَميعِ أغراضِها؛ إذِ ابتُدِئتْ بالقَسَمِ بالقُرآنِ الَّذي كذَّبَ به المُشرِكونَ، وجاء المُقسَمُ عليه أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكلُّ ما ذُكِر فيها مِن أحوالِ المُكذِّبينَ سبَبُه اعتِزازُهم وشِقاقُهم، ومِن أحوالِ المؤمِنينَ سبَبُه ضِدُّ ذلك، مع ما في الافتِتاحِ بالقَسَمِ مِنَ التَّشويقِ إلى ما بعْدَه؛ فكانتْ فاتِحتُها مُستكمِلةً خصائصَ حُسنِ الابتِداءِ[٣].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقَسَم، وأقسَمَ اللهُ سُبحانَه بالقُرآنِ قَسَمَ تَنويهٍ به. ووصَفَ القُرآنَ بـ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ لأنَّ (ذي) تُضافُ إلى الأشياءِ الرَّفيعةِ، فتَجري على مُتَّصِفٍ مَقصودٍ التَّنويهُ به[٤].

- وجوابُ القسَمِ في قَولِه: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إمَّا مَحذوفٌ، وهو ما يُنْبِئُ عنه التَّحدِّي والأمرُ والإقسامُ به؛ مِن كَونِ المُتحدَّى به مُعجِزًا، وكَونِ المأمورِ به واجبًا، وكَونِ المُقسَمِ به حقيقًا بالإعظامِ، أي: أُقسِمُ بالقرآنِ إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

لَمُعجِزٌ، أو لَواجِبُ العمَلُ به، أو لَحقيقٌ بالإعظام. والغرَضُ مِن حذفِ جوابِ القسَمِ هنا، قيل: هو الإعراضُ عنه إلى ما هو أجْدَرُ بالذِّكرِ، وهو صِفةُ الَّذينَ كفَروا وكذَّبوا القُرآنَ؛ عِنادًا أو شِقاقًا منهم، ومعنَى ذلك أنَّ الكَلامَ أخَذَ في الثَّناءِ على القرآنِ ثمَّ انقطَعَ عن ذلك إلى ما هو أهَمُّ، وهو بيانُ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لاعتِزازِهم بأنفُسِهم وشِقاقِهم؛ فوقَعَ العُدولُ عن جوابِ القسَمِ استِغناءً بما يُفيدُ مُفادَ ذلك الجوابِ. وإمَّا هو الكلامُ المَرموزُ إليه ونفْسُ الجُملةِ المذكورةِ قبْلَ القَسَمِ؛ فإنَّ التَّسميةَ تَنويهٌ بشأنِ المُسمَّى، وتَنبيهٌ على عِظَمِ خَطَرِه، أي: إنَّه لَصادقٌ. وقيل: الجوابُ ما دَلَّ عليه الجُملةُ الإضرابيَّةُ، أي: ما كفَرَ به مَن كفَرَ لِخلَلٍ وجَدَه فيه، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ...﴾ إلخ[1].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حرفُ (بَلْ) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لإبطالِ توهُّمٍ يَنشأُ عن الكَلامِ الَّذي قبْلَه؛ إذْ دَلَّ وصْفُ القرآنِ بـ ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مُذَكِّرٌ سامعيه تذكيرًا ناجعًا، فعقَّبَ بإزالةِ توهُّمِ مَن يَتوهَّمُ أنَّ عدَمَ تذَكُّرِ الكفَّارِ ليس لِضَعفٍ في تَذكيرِ القرآنِ، ولكنْ لأنَّهم مُتعَزِّزونَ مُشاقُّونَ؛ فحرفُ (بَلْ) في مِثلِ هذا بمَنزلةِ حرفِ الاستِدراكِ، والمقصودُ منه تحقيقُ أنَّه ذو ذِكرٍ، وإزالةُ الشُّبهةِ الَّتي قد تَعرِضُ في ذلك؛ فليس امتِناعُهم مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ لنَقصٍ في عُلُوِّه ومَجدِه، ولكنْ لأنَّهم عَجِبوا أنْ جاءَهم به رجُلٌ منهم.

ويُمكِنُ أنْ نَجعَلَ (بَلْ) إضرابَ انتِقالٍ مِنَ الشُّروعِ في التَّنويهِ بالقرآنِ إلى بيانِ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لأنَّ في بيانِ ذلك السببِ تحقيقًا للتَّنويهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣- ٢٠٥).

بالقرآنِ[(١)]. أو للانتِقالِ مِن هذا القَسَمِ والمُقسَمِ عليه إلى حالةِ تَعزُّزِ الكفَّارِ ومُشاقَّتِهم في قَبولِ رسالتِك وامتِثالِ ما جِئتَ به والاعترافِ بالحقِّ[(٢)].

- وقيل: إنَّ فائدةَ ﴿بَلِ﴾ هاهنا في قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تصحيحُ ما قبْلَه، وإبطالُ ما بعْدَه؛ فإنَّه دَلَّ بقَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مَقَرٌّ للتَّذكيرِ، وأنَّ امتِناعَ الكفَّارِ مِنَ الإصغاءِ إليه أنْ ليس مَوضعًا للذِّكرِ، بلْ لتَعزُّزِهم ومُشاقَّتِهم[(٣)].

- وأيضًا لَمَّا كانت الأجوبةُ مُنبِئةً عنِ انتِفاءِ الرَّيبِ عن مَضمونِ القرآنِ بالكُلِّيَّةِ إنباءً بيِّنًا؛ كان قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنَّه قيل: لا رَيْبَ فيه قَطعًا، وليس عدَمُ إذعانِ الكَفَرةِ له لشائبةِ رَيبٍ ما فيه، بلْ هُم في استِكبارٍ وحَمِيَّةٍ شديدةٍ، وشِقاقٍ بعيدٍ للهِ تعالى ولرسولِه؛ ولذلك لا يُذْعِنونَ له[(٤)].

- قَولُه: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ انتِظامُه وبلاغتُه تَظهَرُ مِن وجهَينِ:

أحدُهما: أنْ يَكونَ قد ذكَرَ اسمَ هذا الحَرْفِ مِن حروفِ المُعجَمِ على سبيلِ التَّحدِّي والتَّنبيهِ على الإعجازِ، ثمَّ أتْبَعَه القَسَمَ مَحذوفَ الجَوابِ؛ لدَلالةِ التَّحدِّي عليه، كأنَّه قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَكلامٌ مُعجِزٌ.

والثَّاني: أنْ يَكونَ ﴿صٓ﴾ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ على أنَّها اسمٌ للسُّورةِ، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤).

قال: هذه (ص)، يعني: هذه السُّورةُ الَّتي أعجزَتِ العرَبَ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: هذا حاتمٌ واللهِ، تُريدُ: هذا هو المشهورُ بالسَّخاءِ واللهِ، وكذلك إذا أقسَمَ بها، كأنَّه قال: أقسَمْتُ بـ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَمُعجزٌ، ثمَّ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ﴾ واستِكبارٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ بالحقِّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ للهِ ورسولِه. وإذا جعلْتَها مُقْسَمًا بها وعطَفْتَ عليها ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ جاز لك أنْ تُريدَ بالقُرآنِ التَّنزيلَ كلَّه، وأنْ تُريدَ السُّورةَ بعَيْنِها، ومعناهُ: أُقسِمُ بالسُّورةِ الشَّريفةِ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: مرَرْتُ بالرَّجُلِ الكريمِ وبالنَّسَمةِ المُباركةِ، ولا تُريدُ بالنَّسَمةِ غيرَ الرَّجُلِ. والذِّكرُ: الشَّرفُ والشُّهرةُ، مِن قَولِكَ: فُلانٌ مَذكورٌ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أو: الذِّكرى والمَوعظةُ. أو: ذِكرُ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ مِنَ الشَّرائعِ وغَيرِها؛ كأَقاصيصِ الأنبياءِ، والوعدِ والوعيدِ[(١)].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دُونَ (الكافِرونَ)؛ لِما في صِلَةِ المَوصولِ مِنَ الإيماءِ إلى الإخبارِ عنهم بأنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ، والعِزَّةُ تَحومُ إطلاقاتُها في الكَلامِ حَوْلَ معاني المَنَعةِ والغَلَبةِ والتَّكبُّرِ، فإنْ كان ذلك جاريًا على أسبابٍ واقعةٍ فهي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، وإنْ كان عن غُرورٍ وإعجابٍ بالنَّفْسِ فهي عِزَّةٌ مُزَوَّرةٌ، وهي هنا عِزَّةٌ باطلةٌ أيضًا؛ لأنَّها إباءٌ مِنَ الحقِّ، وإعجابٌ بالنَّفسِ[(٢)].

- وفي قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ جاء التَّعبيرُ بـ(في) المُعبِّرةِ عن معنَى الظَّرفيَّةِ المُعبِّرةِ عن قُوَّةِ التَّلبُّسِ بالعِزَّةِ، واستِغراقِهم فيها، والمعنَى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٥).

مُتلبِّسونَ بعِزَّةٍ على الحقِّ[(١)].

- والتَّنكيرُ في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّتِهما وتَفاقُمِهما[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ العِزَّةَ عنِ الحقِّ والشِّقاقَ للهِ ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يُثيرُ في خاطرِ السَّامعِ أنْ يَسألَ عن جزاءِ ذلك؛ فوقَعَ هذا بيانًا له، وكان هذا البيانُ إخبارًا مُرفَقًا بحُجَّةٍ -من قَبيلِ قِياسِ التَّمثيلِ[(٣)]؛ لأنَّ قولَه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يُؤْذِنُ بأنَّهم مِثلُهم في العِزَّةِ والشِّقاقِ-، ومُتضَمِّنًا تحذيرًا مِنَ التَّريُّثِ عن إجابةِ دَعوةِ الحقِّ، أي: يَنزِلُ بهِمُ العَذابُ فلا يَنفَعُهم ندَمٌ ولا مَتابٌ، كما لم يَنفَعِ القُرونَ مِن قَبْلِهم[(٤)].

- قَولُه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كثيرٍ، و﴿قَرْنٍ﴾ تَمييزٌ لإبهامِ العَددِ، أي: عددًا كثيرًا مِنَ القرونِ[(٥)].

- وقَولُه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[(٦)]، جُعِل صِفةً لـ﴿قَرْنٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣).

(٣) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكم؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ من عامِله المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذين الأمْرَينِ استحقَّ عامِلُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ =

مُقدَّمةً عليه؛ فوقعَتْ حالًا، وإنَّما قُدِّمَ للاهتِمام بمَضمونه؛ ليُفيدَ الاهتمامُ إيماءً إلى أنَّهم أُسْوةٌ لهم في العِزَّةِ والشِّقاق، وأنَّ ذلك سببُ إهلاكِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُتعلِّقًا بـ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ على أنَّه ظَرفٌ لَغْوٌ، وقُدِّم على مَفعولِ فِعلِه مع أنَّ المَفعولَ أَوْلى بالسَّبقِ مِن بَقيَّةِ مَعمولاتِ الفِعلِ؛ لِيَكونَ تَقديمُه اهتِمامًا به إيماءً إلى الإهلاكِ كما في الوَجهِ الأوَّلِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فَرَّع على الإهلاكِ أنَّهم نادَوْا فلمْ يَنفَعْهم نِداؤُهم؛ تحذيرًا مِن أنْ يقَعَ هؤلاء في مِثلِ ما وقعَتْ فيه القُرونُ مِن قَبْلِهم؛ إذْ أضاعوا الفُرصةَ فنادَوْا بعْدَ فَواتِها، فلمْ يُفِدْهم نِداؤُهم ولا دُعاؤُهم. والمرادُ بالنِّداءِ في ﴿فَنَادَواْ﴾: نِداؤهمُ اللهَ تعالى تَضرُّعًا(٢).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وعيدٌ لِذَوي العِزَّةِ والشِّقاقِ، على كُفرِهم واستِكبارِهم، ببَيانِ ما أصاب مَن قَبْلَهم مِنَ المُستكبِرينَ(٣).



= لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتَمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

الآيات (٤-١١)

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عُجَابٌ﴾: أي: عجيبٌ، أو بليغٌ في العجبِ، يُقالُ: هذا أمرٌ عَجيبٌ، وذلك إذا اسْتُكْبِر واستُعْظِم، وقيل: العُجابُ: هو الَّذي جاوَز حدَّ العَجَبِ، وأصلُ (عجب) هنا: يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكبارٍ للشَّيءِ[١].

﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، أو: الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ القلوبَ هَيْبةً، والعيونَ جلالةً، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤون، أي: يَتظاهَرونَ ويَتساندونَ، أو: مِن قولِهم: فلانٌ مليءٌ بكذا، إذا كان مطيقًا له؛ لأنَّهم مُلِئوا بترتيبِ المُهِمَّاتِ، وأحْسَنوا في تَدبيرِها، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ[٢].

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ٢٣٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٦).

﴿ٱلْمِلَّةِ﴾: أي: الدِّين والطَّريقة، ثمَّ نُقِلَت إلى أصولِ الشَّرائعِ، وهي هنا النَّصرانيَّةُ، والمِلَّةُ مُشتَقَّةٌ مِن أملَلْتُ (أي: أملَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتلُوٍّ، فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتِبارِ الدُّعاءِ إليه قيل: مِلَّةٌ، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: دِينٌ[(١)].

﴿ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي: كَذِبٌ وتخَرُّصٌ، وأصلُ (خلق): يدُلُّ على تَقديرِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿فَلْيَرْتَقُواْ﴾: أي: فلْيَصعَدوا، وأصلُ (رقي): يدُلُّ على صُعودٍ وارتِقاءٍ[(٣)].

﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: أي: طُرُقِ السَّماءِ وأبوابِها، وكلُّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ يُسمَّى سَبَبًا، وأصلُه: الحَبلُ[(٤)].

﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي: الفِرَقِ والجَماعاتِ المُجتَمِعةِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((غريب =

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿جُندٌ﴾ مُبتدَأٌ مَرفوعٌ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هم جُندٌ. ﴿مَّا﴾ زائدةٌ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: نَعتٌ لـ﴿جُندٌ﴾ أو نَعتٌ ثانٍ؛ حَسَبَ إعرابِ (ما)، أو خبَرُ ﴿جُندٌ﴾، أو ظَرفٌ لِـ﴿مَهۡزُومٌ﴾.

و﴿مَهۡزُومٌ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ، أو خبَرٌ ثانٍ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ نعتٌ لـ﴿جُندٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بـ﴿مَهۡزُومٌ﴾، أو نعتٌ لـ﴿مَهۡزُومٌ﴾[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَحكي اللهُ تعالى جانبًا ممَّا كان عليه المشركونَ مِن عِنادٍ وتكذيبٍ، فيقولُ: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم مُنذِرٌ منهم؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ، وقالوا: هذا ساحِرٌ كذَّابٌ! أيَأْمُرُنا أن نَعبُدَ إلهًا واحِدًا، ونَترُكَ عبادةَ آلهتِنا؟! إنَّ هذا لَشَيءٌ شَديدُ العَجَبِ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه حِرصَهم على صرْفِ النَّاسِ عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: وانطلَقَ الأشرافُ من كفَّارِ قريشٍ قائِلينَ: امضُوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، إنَّ هذا الَّذي يَدعوكم إليه محمَّدٌ لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠٧).

علينا، ما سَمِعْنا بهذا في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ما هذا الَّذي يقولُه محمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن عندِ نَفْسِه!

ثُمَّ يُصَرِّحون بالسَّببِ الَّذي حال بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ وهو الحسدُ، فيقولون: أأَنزَلَ اللهُ عليه القُرآنَ مِن دُونِنا؟!

ويردُّ الله عليهم، فيقولُ: بل هؤلاء المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ هذا القُرآنِ حَقًّا من عندِ اللهِ، بل لَمَّا يَذوقوا عذابي بَعْدُ!

ثُمَّ يُنكِرُ الله سبحانَه عليهم اعتراضَهم على اختيارِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم للرِّسالةِ، ويُبيِّنُ أنَّه المُتصرِّفُ في مُلْكِه الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ، فيقولُ: أمْ عِندَهم مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- العزيزِ الوهَّابِ؟ أمْ لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك فلْيَصعَدوا في الطُّرُقِ الَّتي تُوصِلُهم إلى ما نَملِكُه حتَّى يَستولوا عليه، ويُدَبِّروا أمْرَه، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه!

ثُمَّ يُبشِّرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ عليهم، فيقولُ: فلا تُبالِ بما يَقولونَ -يا مُحمَّدُ-؛ فهم جُندٌ مَهزومونَ ومَغلوبونَ عمَّا قَريبٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ أنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ؛ أردَفَ بما صدَرَ عنهم من كَلِماتِهم الفاسِدةِ، مِن نِسبتِهم السِّحرَ والكَذِبَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨).

أي: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم رسولٌ منهم(١) -وهو مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢].

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بـ﴿مِنْهُمْ﴾: من جنسِهم البَشَريِّ، فلم يُرسَلْ إليهم مَلَكٌ مِن الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِهم وأقاربِهم، فهم يَعرِفونَه حَقَّ المعرفةِ، ويَعلَمونَ صِدقَه وأمانتَه ورجاحةَ عَقلِه. ذكَرَ هذا الوجهَ: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السّابقَينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣، ٢٤).

وقال السمرقندي: (﴿مِنْهُمْ﴾ يعني: مِن العرَبِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن البَشَرِ، ثمَّ مِن العرَبِ، ثمَّ مِن قُرَيشٍ، ولم يكُنْ مِن الملائكةِ مثلًا، وكان يَنبغي لهم ألَّا يَعجَبوا مِن ذلك؛ فإنَّ كَوْنَ النَّذيرِ بما يَحُلُّ مِن المصائبِ مِن القومِ المُنذَرينَ -مع كَونِه أشرَفَ لهم- أقعَدُ في النِّذارةِ؛ لأنَّهم أعرَفُ به وبما هو مُنطَوٍ عليه؛ مِن صِدقٍ وشفَقةٍ وغيرِ ذلك، وهو الَّذي جرَتْ به العَوائدُ في القديمِ والحديثِ؛ لِكَونِهم إليه أمْيَلَ، فهم لِكلامِه أقْبَلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه استقرَّ في نُفوسِهم استِحالةُ بَعثةِ رَسولٍ منهم، فذلك سبَبٌ آخَرُ لانصِرافِهم عن التَّذَكُّرِ بالقُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا ساحِرٌ، وليس بنَبيٍّ كما يَزعُمُ[(١)]!

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ قَولَهم النَّاشِئَ عن عَجَبِهم؛ ذكَرَ سَبَبَه؛ لِيُعلَمَ أنَّ حالَهم هو الَّذي يُعجَبُ منه، لا حالَ مَن أنذَرَهم[(٢)].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى حكَى جميعَ ما عَوَّلوا عليه في إثباتِ كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاذِبًا، وهي ثلاثةُ أشياءَ؛ أحَدُها: ما يَتعَلَّقُ بالإلهيَّاتِ. وثانيها: ما يَتعَلَّقُ بالنُّبُوَّاتِ. وثالِثُها: ما يَتعَلَّقُ بالمَعادِ؛ أمَّا الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالإلهيَّاتِ فهي قَولُهم هنا[(٣)]:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

قيل: مرادُهم بقَولِهم: ﴿سَاحِرٌ﴾: أنَّه يجيءُ بالكَلامِ المُمَوَّهِ الَّذي يَخدَعُ به النَّاسَ. وقيل: المرادُ: يُفَرِّقُ بسِحرِه بيْنَ الوالِدِ وولَدِه، والرَّجُلِ وزَوجتِه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩).

وقيل: أرادوا هو ساحِرٌ بما يُظهِرُه مِن مُعجِزاتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، وابن عجيبة، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

وممَّن قال: إنَّ مرادَهم بقولِهم: ساحِرٌ: أنَّه يُفَرِّقُ بيْنَ الاثنَينِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٥).

وممَّن جمَع بيْن هذه المعاني: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

أي: أيَأمُرُنا بتَركِ عِبادةِ آلهتِنا كُلِّها، والاقتِصارِ على عبادةِ اللهِ وَحْدَه[١]؟!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

أي: إنَّ هذا الأمرَ لَشَيءٌ في غايةِ العَجَبِ[٢]!

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾.

أي: وانطلَقَ الأشرافُ والكُبَراءُ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قائلينَ[٣]: امضُوا فاستَمِرُّوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، ولا تَستَجيبوا لِما يَدْعوكم إليه محمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٩).

(٣) قيل: يقولُ ذلك بعضُهم لبعضٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

وقيل: يقولونَ ذلك لأتْباعِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ هنا المشيُ بالقَدَم؟ أو المرادُ المَشيُ على الطَّريقةِ، بمعنى: سِيروا على طريقتِكم، واصبِروا على آلهتِكم؟ مَن نظَرَ إلى الانطلاقِ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ قال: إنَّ المرادَ بذلك المَشْيُ بالقَدَم، بمعنى أنَّهم إذا انطلقوا حثَّ بعضُهم بعضًا على المشي والسَّيرِ؛ لئلَّا يَعودوا فيُعَرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنَّهم إنَّما يَنطَلِقونَ فِرارًا... وإذا نظَرْنا إلى المعنى أو إلى عُمومِ أحوالهم قُلْنا: إنَّ المرادَ بذلك المشيُ على الطَّريقةِ، يعني: سِيروا على طريقتِكم =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: إنَّ ما يَدْعونا إليه محمَّدٌ مِن إفرادِ العبادةِ لله، وتَركِ عبادةِ آلهتِنا: لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ علينا، فنكونُ له أتْباعًا يَحكُمُ فينا بما يَشاءُ[1].

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ما سَمِعْنا بهذا الَّذي يَدْعونا إليه مُحمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ[2].

= ولا يُهِمَّنَّكم أحَدٌ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٠، ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ أي: قائلًا كلٌّ منهم لذلك، آمِرًا لِنَفْسِه ولصاحِبِه بالجِدِّ في المُفارَقةِ حالًا ومقالًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأمرِ بالمشيِ: الاستِمرارُ على الدِّينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: إنَّ هذا التَّوحيدَ الَّذي جاء به محمَّدٌ أمرٌ يُريدُه بشِدَّةٍ، أي: هو ساعٍ بجِدٍّ وعَزمٍ لِتَحقيقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١).

وقيل: المرادُ: إنَّ الصبرَ لشيءٌ مطلوبٌ؛ لأنَّه محمودُ العاقبةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير =

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَقولُه مُحمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن قِبَلِ نَفْسِه[1].

= القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمِلَّةِ الآخِرةِ: النَّصرانيَّةُ -فهي آخِرُ ديانةٍ قَبْلَهم، والنَّصارى يقولونَ: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٥، ٣٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٤٦).
وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٠٧).
وقيل: المرادُ: دينُ قُرَيشٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).
قال السعدي: (﴿فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: في الوقتِ الأخيرِ، فلا أدرَكْنا عليه آباءَنا، ولا آباؤُنا أدركوا آباءَهم عليه، فامْضوا على الَّذي مضَى عليه آباؤُكم؛ فإنَّه الحقُّ، وما هذا الَّذي دعا إليه محمَّدٌ إلا اختلاقٌ اختلَقَه، وكذِبٌ افتراه! وهذه أيضًا شُبهةٌ مِن جنسِ شبهتِهم الأُولَى، حيثُ ردُّوا الحقَّ بما ليس بحُجَّةٍ لِرَدِّ أدنَى قولٍ، وهو أنَّه قولٌ مخالفٌ لِما عليه آباؤُهم الضَّالُّونَ، فأينَ في هذا ما يدُلُّ على بطلانِه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).
وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ ودينُ آبائِهم. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الأصلُ الثَّاني مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو أصلُ إنكارِ بَعثةِ رَسولٍ منهم[1]، وهذه هي الشُّبهةُ الثَّانيةُ لأولئك الكُفَّارِ، وهي الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالنُّبُوَّاتِ، وهي قَولُهم: إنَّ محمَّدًا لَمَّا كان مُساوِيًا لِغَيرِه في الذَّاتِ، والصِّفاتِ، والخِلقةِ الظَّاهِرةِ، والأخلاقِ الباطِنةِ؛ فكيف يُعقَلُ أن يختَصَّ هو بهذه الدَّرَجةِ العاليةِ، والمَنزِلةِ الشَّريفةِ[2]؟!

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾.

أي: قالوا استِبعادًا واستِنكارًا: أأَنزَل اللهُ القُرآنَ على مُحمَّدٍ، فخُصَّ بالوَحيِ مِن دُونِنا[3]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾.

= عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٧).

قال الزمخشري: (قَولُهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ كلامٌ مُخالِفٌ لاعتِقادِهم فيه، يقولونَه على سَبيلِ الحسَدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٧).

أي: بل[1] المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ القُرآنِ حَقًّا أُوحيَ إلى محمَّدٍ مِن عندِ اللهِ[2].

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

أي: بلْ لم يَنزِلْ بَعْدُ بالمُشرِكينَ عَذابي؛ لِتَكذيبِهم رَسولي، وشَكِّهم في كتابي الَّذي أنزَلْتُه عليه، فلو أصابَهم العَذابُ لَأيْقَنوا بصِدقِ ما كانوا يَشُكُّونَ فيه، ويُكَذِّبونَ به[3].

(١) قيل: المرادُ: إبطالُ ونَفيُ ألَّا يكونوا عالِمينَ بأنَّ مُحمَّدًا لم يَزَلْ صَدوقًا فيما بيْنَهم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: ليس تخصيصُ اللهِ وإنعامُه جاريًا على شهواتِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤).

وقيل: المعنى: أنَّهم ليست لهم حُجَّةٌ ولا بُرهانٌ، ولا عندَهم عِلمٌ ولا بَيِّنةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وقيل: المعنى: إنَّهم ليسوا جازِمينَ بما قالوا، وإن أكَّدوه غايةَ التَّأكيدِ. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: إبطالُ ما ادَّعَوه مِن إرادتِهم نُزولَ القُرآنِ على غيرِ مُحمَّدٍ، أي: هم في شَكٍّ مِن ذِكري، فكيف يَقولونَ: لو نُزِّل على غيرِ محمَّدٍ، والشَّاكُّ في الأصلِ لا يَطلُبُ الفَرعَ أصلًا؟! وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال القرطبي: (إنَّما اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، ولو ذاقوا عذابي على الشِّركِ لَزال عنهم الشَّكُّ، ولَما قالوا ذلك، ولكِنْ لا يَنفَعُ الإيمانُ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

أي: أمْ عِندَ المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا محمَّدُ- العزيزِ الغالِبِ على أمْرِه، الوهَّابِ ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ مِن نُبُوَّةٍ، ومُلْكٍ، ونِعمةٍ، فيَهَبوها لِمَن شاؤُوا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا استَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ في قَولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، وكان ذلك دليلًا على انتفاءِ تَصرُّفِهم في خزائِنِ رَحمةِ رَبِّك؛ أتَى بالإنكارِ والتَّوبيخِ بانتِفاءِ ما هو أعَمُّ[2].

وأيضًا لَمَّا سَلَب عنهم التَّصرُّفَ في الخزائِنِ؛ أتْبَعَه نَفْيَ المُلْكِ عمَّا شاهَدوا منها، وهو جزءٌ يَسيرٌ جدًّا[3].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

أي: أمْ للمُشرِكينَ مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨).

فلْيَصعَدوا إذَنْ في الطُّرُقِ المُوصِلةِ لهم إلى السَّماءِ إن استَطاعوا، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه(١)!

﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنْ كانوا يَملِكون السَّمَواتِ والأرضَ فلْيَرتَقوا في الأسبابِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أنَّهم جُندٌ مِن الأحزابِ مُنهَزِمونَ ضَعيفونَ، فكيف يَكونونَ مالِكي السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما(٢)؟!

﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

قيل: المرادُ: فلْيَصعَدوا إلى السَّمَواتِ، ولْيَمنَعوا الملائِكةَ مِن إنزالِ الوَحي على محمَّدٍ، ولْيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥١).

قال البقاعي: (لِيَستوُوا على العَرشِ الَّذي هو أمارةُ المُلكِ، فيُدَبِّروا العالَمَ، فيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ لهم ذلك، وأنَّه لا يَسوغُ لأحدٍ أن يختَصَّ دُونَهم بشَيءٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٨).

وقيل: المعنى: إنْ كان لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما فكان لهم شَيءٌ مِن ذلك، فلْيَصعَدوا إن استطاعوا في أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَخبُروا حقائقَ الأشياءِ، فيَتكَلَّموا عن عِلمٍ في كُنهِ الإلهِ وصِفاتِه، وفي إمكانِ البَعثِ وعَدَمِه، وفي صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أو ضِدِّه، ولْيَفتَحوا خزائِنَ الرَّحمةِ فيُفيضوا منها على مَن يُعجِبُهم، ويَحرِموا مَن لا يَرمُقونَه بعينِ استِحسانٍ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).

أي: كُفَّارُ قُرَيشٍ جُندٌ مَهزومٌ ذَليلٌ مِنَ المُتحَزِّبينَ على إبطالِ الحَقِّ[١].

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/٢٨، ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

قال القرطبي: (الكلامُ مرتبطٌ بما قبلُ، أَيْ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ مِن الأحزابِ مَهْزومونَ، فلا تَغُمَّكَ عِزَّتُهم وشقاقُهم، فإنِّي أهزمُ جَمْعَهم، وأسْلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وقد فَعَل بهم هذا في يومِ بدرٍ. قالَ قتادَةُ: وَعَد اللَّهُ أنَّه سيهزمُهم وهم بمكَّةَ فجاءَ تأويلُها يومَ بدرٍ. وَ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارَةٌ لبدرٍ وهو موضعُ تحزُّبِهم لقتالِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم. وقيلَ: المرادُ بالأحزابِ الَّذينَ أتوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ... وقيلَ: أرادَ بالأحزابِ القرونَ الماضيةَ مِن الكفَّارِ. أي: هؤلاءِ جُنْدٌ على طريقةِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ﴾ أي: قريشٌ الذين هُزِموا وقُتلوا يوم بدر: ابن جرير، وابن أبي زمنين، ومكي، والبغوي، والخازن. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢)، وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم جندٌ مغلوبٌ، أي: ممنوعٌ عن أنْ يصعَدَ إلى السَّماءِ، وممن اختاره: الفرَّاء، والثعلبي، وقواه ابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥).

قال الشنقيطي بعد أن ذكر أنَّ صيغةَ الأمرِ في قولِه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ للتعجيز: (قولُه -جلَّ وعلا- بعدَ ذلك التعجيز: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لو تنطَّع جندٌ مِن الأحزابِ للارتقاءِ في أسبابِ السَّماءِ، أنَّه يرجِعُ مهزومًا صاغرًا داخرًا ذليلًا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٨).

وممن اختار أن المراد: أنَّهم حتى إن استطاعوا الوصولَ إلى السَّماءِ فإنَّهم مهزومون هنالكَ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٨-٥٩).

وقال ابن قتيبة: (و﴿جُندٌ﴾ بمعنى: حزب لهذه الآلهةِ، يقولُ: هم حزبٌ عندَ ذلك مقموعٌ ذليلٌ مِن الأحزابِ، أي: عندَ هذه المحنِ، وعندَ هذا القولِ، لأنَّهم لا يقدِرونَ أن يدَّعوا لآلهتِهم شيئًا مِن هذا، ولا لأنفسِهم). ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩) بتصرف.

كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

الفَوائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ وُجوبُ تقديمِ الأهَمِّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّلَ ما دعا هؤلاءِ إلى التَّوحيدِ لم يَقُلْ: صَلُّوا ولا زَكُّوا ولا صُوموا ولا حُجُّوا، بل دعاهم إلى التَّوحيدِ، وهذا هو شأنُ القُرآنِ، وهذا هو شأنُ سُنَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ العَمليَّةِ؛ فإنَّه لَمَّا بَعَث مُعاذًا إلى اليَمَنِ أمَرَه أنْ يَدْعوَهم أوَّلَ ما يَدْعوهم إليه: إلى شَهادةِ «أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ»(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ إذا تواصى الكُفَّارُ فيما بيْنَهم بالصَّبرِ على آلهتِهم، فالمؤمنونَ أَولَى بالصَّبرِ على عبادةِ مَعبودِهم، والاستِقامةِ في دينِهم(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ أنَّ الخَلْقَ لا يَملِكونَ خزائنَ رحمةِ اللهِ، ولا يَملِكونَ السمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما؛ ولهذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((اللَّهُمَّ لا مانعَ لِمَا أعْطَيْتَ، ولا مُعطِيَ لِمَا مَنَعْتَ))(٣)، وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعوا على أنْ يَنفعوك بشَيءٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٢).
والحديث أخرجه البخاري (١٣٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٩) من حديث عبدالله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) مطولًا من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

لم يَنفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشَيءٍ؛ لم يَضُرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبَه اللهُ عليك))[١].

ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ رجاءَه إلَّا باللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ فعَل ذلك سَخَّرَ اللهُ له المخلوقاتِ، حتَّى البَشَرُ يُسَخِّرُهم له، لكنْ إذا تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ وُكِلَ إلى مَن تَعَلَّقَ به[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ أنَّه لا ينبغي التَّحَدِّي إلَّا بما لا يَستطيعُه المُتَحَدَّى، وهذا يُفيدُ في بابِ المُناظرةِ، وفي بابِ النَّظَرِ؛ لأنَّ النَّاسَ ناظِرٌ ومُناظِرٌ؛ فالنَّاظِرُ هو الَّذي يَتأمَّلُ الأدِلَّةَ مِن ذاتِ نَفْسِه ويَحكُمُ عليها، والمُناظِرُ هو الَّذي يُناقِشُها مع غَيرِه، فمِن فوائِدِ النَّظَرِ والمُناظَرةِ أنَّ الإنسانَ لا يَفرِضُ شَيئًا على وَجهِ التَّحَدِّي إلَّا إذا عَلِمَ أنَّه غيرُ مُمكِنٍ للمُتَحَدَّى؛ لأنَّه لو فَرَضَ شَيئًا يَتَحَدَّى به، ثمَّ أتَى به المُتَحَدَّى؛ بَطَلَتْ حُجَّتُه وانهارتْ، وانهارتْ قُوَّةُ المدافَعةِ والمهاجَمةِ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ في هذه الآيةِ والَّتي بعدَها دَلالةٌ على إفراطِ القومِ في الجَهالةِ، وتَوَغُّلِهم في الضَّلالةِ؛ حيث نَسَبوا السِّحرَ

(١) أخرجه مطولًا الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) واللفظ له
صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٣)، وحسَّنَ ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩) روايةَ الترمذيِّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وقال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٦٦٩): (إسنادُه قويٌّ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥، ٥٦).

والكذِبَ إلى مَن ظهَرَتْ آياتُ رسالتِه، ومُعجزاتُ نُبُوَّتِه، وتَعجَّبوا مِن إثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى الَّذي خلَقَ ورزَقَ مع إنارةِ براهينِها، ولم يَتعجَّبوا مِن الشِّركِ وعبادةِ الأحجارِ مع وُضوحِ بُطلانِه[١]! وأيضًا لأنَّه لم يأتِهم أحدٌ غَريبٌ عليهم؛ لا في جِنسِه ولا في نَسَبِه؛ فالَّذي جاءهم جِنْسُه بَشَرٌ مِثلُهم، ونَسَبُه منهم؛ مِن قُرَيشٍ، ومع ذلك يَعجَبونَ استِنكارًا ممَّا جاءَهم[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أنَّ التَّعجُّبَ مِن الحقِّ إنكارًا له مِن خِصالِ الَّذين كفروا، وقال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ * بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢]. ولا تعجُّبَ إلَّا مِن مُستغرَبٍ، فالوَيْلُ كلُّ الوَيلِ لِمَن كان الحقُّ عندَه غريبًا، وطُوبى لِمَن تعجَّبَ مِن الباطلِ لِغَرابتِه عندَه[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٤، ٥] أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ لا يُعادونهم عداءً شخصيًّا؛ ولكنَّهم يُعادونهم عداءً معنويًّا لِمَا جاؤوا به مِن الرسالةِ، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسولَ سَيَجِدُ له أعداءً من الكافرينَ والمنافقينَ، ويَتَفرَّعُ على ذلك تسليةُ مَن وَجَد عداءً مِن أعداءِ اللهِ لِتَمَسُّكِه بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، فإنَّه يُقالُ: هذا العِداءُ الَّذي حَصَل لك قد حَصَل لِمَن هو خيرٌ منك؛ فلا تَعْجَبْ[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ -بل

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥).
(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٦).

أعداءَ الرِّسالةِ- يُطْلِقُون ألقابَ السُّوءِ على مَن تَمَسَّكَ بالشَّرعِ، وقد حَصَل هذا[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ هؤلاء المُكَذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُقيموا عليه حُجَّةً، وليس عندَهم إلَّا السَّبُّ والعَيبُ! وكذا شأنُ كلِّ ضعيفِ الحُجَّةِ: أن يَسُبَّ ويَشتُمَ، ويَتَّخِذَ مِن هذا السِّلاحِ مَهْرَبًا ممَّا هو فيه مِن عجزٍ عن مُقارَعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، بخِلافِ المُحِقِّ؛ فإنَّه يُدْلِي بحُجَّتِه بهدوءٍ، دونَ سبٍّ أو قذفٍ[2].

٦- بيانُ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في نُفوسِ القَومِ؛ لِقَولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾، والسَّاحِرُ يُؤَثِّرُ في المَسحورِ[3].

٧- أنَّ أهلَ الباطلِ يَحْنُون على باطِلِهم، ويُحافِظونَ عليه، ويَخافونَ مِن تَزَعْزُعِه؛ لِقَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وهكذا أهلُ الباطلِ تَجِدُهم دائمًا يَحوطُون باطِلَهم بالسِّياجِ الَّذي يَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه على وَجهٍ يُمَزِّقُ هذا الباطِلَ[4].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُقصَدُ، أي: له قَصدٌ ونيَّةٌ غيرُ صالحةٍ في ذلك، وهذه شُبهةٌ لا تَرُوجُ إلَّا على السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مَن دعا إلى قَولٍ حَقٍّ أو غيرِ حَقٍّ: لا يُرَدُّ قَولُه بالقَدحِ في نيَّتِه؛ فنِيَّتُه وعَمَلُه له، وإنَّما يُرَدُّ بمُقابَلتِه بما يُبطِلُه ويُفسِدُه من الحُجَجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣).

والبَراهين[١]!

٩- قَولُه تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ اللهَ سُبحانَه بنَفْسِه في الأرضِ[٢]! وإثباتُ العُلوِّ لله سُبحانه؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا من عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ منزلٌ لَزِم أن يكونَ المُتكلِّمُ به عاليًا[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَبدأَ تكذيبِهم لم يكُنْ إلَّا الحَسَدَ، وقُصورَ النَّظَرِ على الحُطامِ الدُّنيويِّ[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ﴾ عدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الإفرادِ؛ لأنَّ هذا السِّياقَ للتَّوحيدِ؛ فالإفرادُ أَولى به، ولِيَكونَ نَصًّا على المرادِ بعدَ ذِكرِ آلهتِهم؛ قَطعًا لِشُبَهِ مُتعنِّتِيهم[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴾ أنَّ الكلماتِ تُفَسَّرُ بحسَبِ السِّياقِ، فالذَّوقُ في الأصلِ إنَّما هو للطَّعامِ والشَّرابِ؛ ولكنْ قد يُرادُ به ما أصابَ الإنسانَ إصابةً مباشرةً؛ فإنه يُسمَّى مَذُوقًا[٦].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ المرادُ من هذا الكَلامِ مُغايِرٌ للمُرادِ مِن قَولِه: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾، والفَرقُ أنَّ خزائِنَ اللهِ تعالى غيرُ مُتناهِيةٍ، كما قال: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١]، ومِن جُملةِ تلك الخزائِنِ: هذه السَّمَواتُ والأرضُ، فلمَّا ذكَرَ الخزائِنَ أوَّلًا على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٦).

عُمومِها أردَفَها بذِكرِ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، يعني: أنَّ هذه الأشياءَ أحدُ أنواعِ خزائِنِ اللهِ؛ فإذا كنتُم عاجِزينَ عن هذا القِسمِ، فبأنْ تكونوا عاجِزينَ عن كُلِّ خزائِنِ اللهِ كان أَوْلى(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عِظَمُ ما بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ما بيْنَهما قَسيمًا لهما، والقَسيمُ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُعادِلًا أو مُقارِبًا لقَسيمِه، لا يُمكِنُ أنْ تأتيَ بشَيءٍ عظيمٍ تُقارِنُ بيْنَه وبيْنَ شَيءٍ بعيدٍ منه في العِظَمِ(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ بعْدَ أنْ كُشِف ما انطَوَتْ عليه نُفوسُهم مِنَ العِزَّةِ والشِّقاقِ، وإحالةِ بَعثةِ رسولٍ للبشَرِ مِن جِنسِهم، حُوسِبوا بما صَرَّحوا به مِنَ القَولِ؛ إشارةً بهذا التَّرتيبِ إلى أنَّ مَقالتَهم هذه نتيجةٌ لعقيدتِهم تلك(٣).

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ حِكايةٌ لأباطيلِهمُ المُتفرِّعةِ على ما حُكيَ مِن استِكبارِهم وشِقاقِهم، أي: عَجِبُوا مِن أنْ جاءَهم رسولٌ مِن جِنسِهم، بلْ أَدْوَنُ مِنهم في الرِّياسةِ الدُّنيويَّةِ والمالِ، على معنَى أنَّهم عَدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارِجًا عنِ احتِمالِ الوُقوعِ، وأَنكَرُوه أشَدَّ الإنكارِ، لا أنَّهمُ اعتَقَدُوا وُقوعَه وتَعَجَّبوا منه(٤).

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ عَبَّر عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

وسلَّمَ بوَصفِ المُنذِرِ، ووُصِفَ بأنَّه منهم؛ للإشارةِ إلى سُوءِ نظَرِهم مِن عَجَبِهم؛ لأنَّ شأنَ النَّذيرِ أنْ يَكونَ مِنَ القَومِ ممَّن يَنصَحُ لهم، فكَوْنُه منهم أَوْلى مِن أنْ يَكونَ مِن غَيرِهم، ثمَّ إنْ كان التَّبعيضُ المُستفادُ مِن حرفِ (مِن) مُرادًا به أنَّه بعضُ العربِ أو بعضُ قُرَيشٍ؛ فأَمْرُ تَجهيلِهم في عَجَبِهم مِن هذا النَّذيرِ بَيِّنٌ، وإنْ كان مُرادًا به أنَّه بعضُ البشَرِ، فتَجهيلُهم لِأنَّ مَن كان مِن جِنسِهم أَجدَرُ بأنْ يَنصَحَ لهم مِن رسولٍ مِن جِنسٍ آخَرَ كالمَلائكةِ، وهذه جَدارةٌ عُرْفيَّةٌ[1].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لَمَّا كان تَعجُّبُهم مِن مُطلَقِ نِذارتِه لا مُبالَغتِه فيها، أتَى باسمِ الفاعِلِ دونَ فَعيلٍ، فقال: ﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[2].

- وعُبِّرَ بجُملةِ ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وقالوا)؛ فوُضِعَ فيه الظَّاهِرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ إظهارًا للغضبِ عليهم، وتَنبيهًا على الصِّفةِ الَّتي أوجبَتْ لهمُ العجَبَ، حتَّى نَسَبوا مَن جاء بالهُدى والتَّوحيدِ إلى السِّحرِ والكَذِبِ، ودَلالةً على أنَّ هذا القَولَ لا يَجسُرُ عليه إلَّا الكافِرونَ المُتَوَغِّلونَ في الكفرِ، المُنهمِكونَ في الغَيِّ، ولقَصدِ وَصْفِهم بأنَّهم كافِرونَ برَبِّهم مُقابَلةً لِمَا وَصَموا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فوُصِفوا بما هو شَتمٌ لهم يَجمَعُ ضُروبًا مِنَ الشَّتمِ تأصيلًا وتفريعًا، وهو الكفرُ الَّذي هو جِماعُ فَسادِ التَّفكيرِ، وفاسِدِ الأعمالِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بالواوِ، وقال في سورةِ (ق): ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]؛ فقاله بالفاءِ. ووجْهُ ذلك: أنَّ ما في سُورةِ (ق) أشَدُّ اتِّصالًا منه في سورة (ص)؛ لأنَّ ما في (ص) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا مَعنويًّا فقطْ، وهو أنَّهم عَجِبوا مِن مَجيءِ المُنذِرِ، وقالوا: هذا ساحرٌ كذَّابٌ! وما في سورةِ (ق) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا لَفظيًّا ومَعنويًّا، وهو أنَّهم عَجِبوا عَقِبَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم عَجِبوا، فقالوا: هذا شَيءٌ عجيبٌ؛ فناسَبَ فيه ذِكرُ الفاءِ دُونَ ما هنا(١).

- وأشارُوا بلفظِ ﴿هَٰذَا﴾ في قَولِه: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ استَعمَلوا اسمَ الإشارةِ لتَحقيرِ مِثلِه في قَولِهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾(٢) [الأنبياء: ٣٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾

- قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ ولذلك أتْبَعوهُ بما هو كالعِلَّةِ لقَولِهم: ﴿سَٰحِرٞ﴾، وهو: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ أي: يُتعجَّبُ منه، كما يُتعجَّبُ مِن شَعوذةِ السَّاحرِ، أو تعَجَّبوا مِن هذا الحَصرِ؛ لأنَّهم قاسُوا الغائبَ على الشَّاهِدِ؛ جهلًا منهم، وارتِطامًا بسُوءِ الغَفلةِ(٣).

- وأيضًا قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ مِثلُ قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

ﭐلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]؛ في أنَّ معنَى الجَعلِ التَّصييرُ في القَولِ على سبيلِ الدَّعْوَى والزَّعمِ، كأنَّه قال: أجَعَلَ الجَماعةَ واحِدًا في قَولِه؟! لأنَّ ذلك في الفِعلِ مُحالٌ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ أنْ يَجعَلَ الجَماعةَ إنسانًا واحدًا(١).

- و ﴿عُجَابٌ﴾: أي: بَليغٌ في العجَبِ، وهو وصْفٌ للشَّيءِ الَّذي يُتعجَّبُ منه كثيرًا؛ لأنَّ وزنَ (فُعالٍ) يدُلُّ على تَمكُّنِ الوَصفِ، مِثلَ: (طُوالٍ) بمعنَى المُفرِطِ في الطُّولِ، و(كُرامٍ) بمعنَى الكثيرِ الكَرَمِ، فهو أبْلَغُ من كريم. وقد ابتَدَؤوا الإنكارَ بأوَّلِ أصلٍ مِن أُصولِ كُفرِهم؛ فإنَّ أُصولَ كُفرِهم ثلاثةٌ: الإشراكُ، وتَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ البَعثِ والجَزاءِ في الآخِرةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾

- (أنْ) في قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ تَفسيريَّةٌ؛ ولَمَّا أُسنِدَ الانطِلاقُ إلى المَلأِ منهم على أنَّهم ما كانوا لِيَنطَلِقوا إلَّا لتَدبيرٍ في ماذا يَصنَعونَ، فكان ذلك مُقتَضيًا تَحاوُرًا وتَقاوُلًا احتِيجَ إلى تَفسيرِه بجُملةِ ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ ...﴾ إلخ(٣)، وكان انطِلاقُهم مُضَمَّنًا معنَى القَولِ(٤).

- والتَّعبيرُ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قَولِه: ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ يدُلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣).

على تَضمينِ (اصْبِرُوا) معنَى: اعكُفوا واثبُتوا[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصَّبرِ على آلهتِهم؛ لقَصدِ تَقويةِ شَكِّهم في صحَّةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّها شَيءٌ أرادَه لغَرَضٍ، أي: ليس صادِقًا، ولكنَّه مَصنوعٌ مُرادٌ منه مَقصَدٌ، كما يُقالُ: هذا أمْرٌ دُبِّرَ بلَيلٍ؛ فالإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما كانوا يَسمَعونَه مِن دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم أنْ يَقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ[٢].

- وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ كَلِمةٌ تُذكَرُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، والمعنى -على قولٍ-: إنَّه ليس غَرَضُه مِن هذا القَولِ تَقريرًا للدِّينِ، وإنَّما غَرَضُه أنْ يَستَوليَ علينا، فيَحكُمَ في أموالِنا وأولادِنا بما يُريدُ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾؛ لأنَّ عدَمَ سَماعِ مِثلِه يُبيِّنُ أنَّه شَيءٌ مُصطَنَعٌ مُبتَدَعٌ. وإعادةُ اسمِ الإشارةِ مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لقَصدِ زيادةِ تَمييزِه. ونَفيُ السَّماعِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن الاستِبعادِ، والاتِّهامِ بالكَذِبِ[٤].

- والمَجرورُ ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[٥] في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ؛ بيانًا للمَقصودِ مِنَ الإشارةِ، مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿سَمِعْنَا﴾، والمعنَى: ما سَمِعْنا بهذا قبْلَ اليَومِ؛ فلا نَعتَدُّ به. ويَجوزُ على هذا التَّقديرِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢١).

يَكونَ المُرادُ بـ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دِينَ النَّصارى، وعليه فالمُشرِكونَ استَشهَدوا على بُطلانِ تَوحيدِ الإلهِ بأنَّ دِينَ النَّصارى الَّذي ظهَرَ قبْلَ الإسلامِ أثبَتَ تعدُّدَ الآلهةِ، ويَكونَ نَفْيُ السَّماعِ كِنايةً عن سَماعِ ضِدِّه، وهو تَعدُّدُ الآلهةِ. ويَجوزُ أنْ يُريدوا بـ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الَّتي هُم عليها؛ فقَولُهم: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كِنايةٌ عن استِمرارِ انتِفاءِ هذا إلى الزَّمنِ الأخيرِ، فيُعلَمُ أنَّ انتِفاءَه في مِلَّتِهمُ الأُولى بالأَحْرَى(١).

- وجملةُ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، وهذا هو المُتحصِّلُ مِن كَلامِهمُ المَبدوءِ بـ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾؛ فهذه الجُملةُ كالفَذْلَكةِ(٢) لكَلامِهم(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، ومَناطُ الإنكارِ هو الظَّرفُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، وهو في مَوضِعِ حالٍ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أنكَروا أنْ يُختَصَّ بالشَّرفِ مِن بيْنِ أشرافِهم ورُؤسائِهم، ويُنزَلَ عليه الكِتابُ مِن بيْنِهم، كما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكة) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذلِكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

٣١]، فهُم قالوا ذلك قديمًا ورَدَّدُوه مِرارًا؛ تَنفيسًا عن الغَيظِ الَّذي تَجيشُ به نُفوسُهم، والمَوْجِدةِ الَّتي تَعتلِجُ في ضَمائرِهم، فهذا الإنكارُ ترجمةٌ عمَّا كانت تَغْلي به صُدورُهم مِنَ الحسَدِ على ما أُوتيَ مِن شرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ولم يُريدوا بهذا الإنكارِ تَجويزَ أصلِ الرِّسالةِ عنِ اللهِ، وإنَّما مُرادُهم استِقصاءُ الاستبعادِ؛ فإنَّهم أنكَروا أصْلَ الرِّسالةِ كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [ص: ٤] وغَيرُه مِنَ الآياتِ[١].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ مِن كلامِ عُمومِ الكافِرينَ المَحْكيِّ بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فيكونَ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ويَكونَ قولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ تَقديرَه: هذا كذَّابٌ؛ إذْ هو خبَرٌ ثانٍ لـ (كان)، ولِكَونِه بيانًا لِلَّذي قبْلَه لم يُعطَفْ عليه، ويَكونَ ما بيْنَهما مِن قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ [ص: ٦] إلى قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] اعتِراضًا بيْن جُملتَيِ البَيانِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تمامِ كَلامِ المَلأِ، واستُغنيَ به عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ نُطقَ المَلأِ به كافٍ في قَولِ الآخَرينَ بمُوجَبِه؛ فاستَغنَوا عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾[٢] [ص: ٤].

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا...﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلفظِ: ﴿أَءُنزِلَ﴾، وفي سُورةِ (القمر) قالَه بلفظِ: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]؛ ومُناسَبةُ ذلك -فيما قيل-: أنَّ ما هنا حِكايةٌ عن كفَّارِ قُريشٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

فناسَبَ التَّعبيرُ به لِوُقوعِه إنكارًا لِما قَرأهُ عليهِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وما في سُورةِ (القَمر) حِكايةٌ عن قَومِ صالحٍ، وكانت الأنبياءُ تُلْقَى إليهم صُحُفٌ مَكتوبةٌ؛ فناسَبَ التَّعبيرُ بـ (أُلْقِيَ).

وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على الذِّكرِ هنا؛ مُوافَقةً لِما قَرأهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المُنكِرينَ، وعكَسَ في (القَمر)؛ جَريًا على الأصلِ مِن تَقديمِ المَفعولِ بلا واسِطةٍ على المَفعولِ بواسِطةٍ[(١)]، واللهُ أعلَمُ.

- قَولُه: ﴿بَل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ جوابًا عن قَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: ليس قَصدُهمُ الطَّعنَ في اختِصاصِكَ بالرِّسالةِ، ولكنَّهم شاكُّونَ في أصلِ إنزالِه، فتكون ﴿بَل﴾ إضرابًا إبطاليًّا؛ تكذيبًا لِما يَظهَرُ مِن إنكارِهم إنزالَ الذِّكرِ عليه مِن بيْنِهم على ما تَقدَّمَ، أي: إنَّما قَصدُهمُ الشَّكُّ في أنَّ اللهَ يُوحي إلى أحَدٍ بالرِّسالةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ انتِقالًا من خبرٍ عنهم إلى خبرٍ آخَرَ، فيَكونَ استِئنافًا، وتَكونَ ﴿بَل﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والمعنَى: وهُم في شَكٍّ مِن ذِكري، أي: في شَكٍّ مِن كُنْهِ القرآنِ؛ فمرَّةً يَقولونَ: افتَراهُ، ومرَّةً يَقولونَ: شِعرٌ، ومرَّةً: سِحرٌ، ومرَّةً: أساطيرُ الأوَّلينَ، ومرَّةً: قَولُ كاهِنٍ! فالمُرادُ بالشَّكِّ حقيقتُه، أي: التَّردُّدُ في العِلمِ[(٢)].

- وقَولُه تعالى: ﴿بَل هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾ قيل: الظَّاهرُ أنَّه مُتَّصِلٌ بفاتحةِ السُّورةِ، أي: بـ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ لأنَّهما حَديثانِ في الذِّكرِ، ومِن قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ص: ٤] إلى هاهنا حديثٌ في النُّبوَّةِ؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

فيَكونُ ﴿بَلْ﴾ إضرابًا عمَّا أُثبِتَ في الإضرابِ السَّابِقِ، كأنَّه لَمَّا قيل: أقسَمْتُ بـ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١] أنَّ صِدقَه ظاهِرٌ، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ [ص: ٢]: في عِنادٍ واستِكبارٍ عنِ الإذعانِ لذلك، وفي (شِقَاقٍ) [ص: ٢] للهِ ولرَسولِه، ثمَّ عقَّبَ بقولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ص: ٤] مُستطرِدًا، وبيَّن تَعجُّبَهم بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] بِناءً على التَّقليدِ، ثمَّ بقَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ بناءً على الحسدِ- فُهِمَ مِن ذلك أنَّهم مُتَرَدِّدونَ في أنفُسِهم في أنَّ القرآنَ إمَّا حقٌّ وإمَّا باطلٌ، يَقولونَ في أنفُسِهم: إمَّا وإمَّا؛ فحينَ نَظَروا إلى نَظمِه وإعجازِه قالوا: حقٌّ، وحينَ نَظَروا إلى التَّقليدِ إلى أنَّهم أحَقُّ به منه قالوا: هو باطلٌ، فأضرَبَ اللهُ تعالى عن إثباتِ العِزَّةِ والشِّقاقِ بقَولِه: ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾، وحينَ كان بِناءُ الشَّكِّ على شُبهةٍ رَكيكةٍ ومُقدِّمةٍ واهيةٍ لا تُقاوِمُ ذلك اليقينَ، أضرَب عنه بقَولِه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، ثمَّ جيءَ بإضرابٍ آخَرَ على أسلوبٍ غيْرِ الأوَّلِ، وهو قَولُه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾[1] [ص: ٩].

- قَولُه: ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ الإخبارُ بأنَّهم في شَكٍّ يَقتَضي كَذِبَهم في قَولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[2].

- إضافةُ الذِّكرِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ -وهو اللهُ تعالى- في قَولِه: ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ إضافةُ تَشريفٍ، ولتَحقيقِ كَونِه من عِندِ اللهِ. والذِّكرُ على هذا الوجهِ هو عَيْنُ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وإنَّما وقَعَ التَّعبيرُ عنه بالظَّاهِرِ دُونَ الضَّميرِ؛ تَوصُّلًا إلى التَّنويهِ به بأنَّه من عِندِ اللهِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

تعالى[١].

- في قَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ جُعِلَتْ مُلابَسةُ الشَّكِّ إيَّاهم بمنزلةِ الظَّرفِ المُحيطِ بالمظروفِ في أنَّه لا يَخْلو منه جانبٌ مِن جَوانِبه[٢].

- و﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذِكْرِى﴾ ابتِدائيَّةٌ؛ لكَونِ الشَّكِّ صِفةً لهم، أي: نَشأَ لهمُ الشَّكُّ مِن شأنِ ذِكري، أي: مِن جانِبِ نَفْيِ وُقوعِه، أو في جانبِ ما يَصِفونَه به[٣].

- قولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ﴿بَل﴾ للإضرابِ، أي: إنَّهم لم يَذُوقوا عَذابي بعْدُ، فإذا ذاقُوه زالَ عنهم ما بهم مِنَ الشَّكِّ والحسَدِ حينَئذٍ، يعني: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به إلَّا أنْ يَمَسَّهُمُ العَذابُ مُضْطَرِّينَ إلى تَصديقِه. وفي ﴿لَّمَّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ذَوْقَهمُ العَذابَ على شرَفِ الوُقوعِ، والمعنَى: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به حتَّى يَمَسَّهمُ العَذابُ. وقيل: لم يَذُوقوا عذابي الموعودَ في القرآنِ؛ ولذلك شَكُّوا فيه، وهذا يُبيِّنُ أنَّ الَّذي جَرَّأهم على هذا الشِّقاقِ أنَّهم لَمَّا تأخَّرَ حُلولُ العَذابِ بهم ظَنُّوا وَعيدَه كاذِبًا، فأخَذوا في البَذاءةِ والاستِهزاءِ، ولو ذاقوا العَذابَ لأُلقِمَتْ أفواهُهمُ الحَجَرَ.

والإضرابُ هنا مُتعلِّقٌ بالكَلامَينِ السَّابِقَينِ، بمعنَى: أنَّه لَمَّا وَبَّخَهم أوَّلًا على ما بهم مِنَ الحسَدِ وما تَغْلي به صُدورُهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اختُصَّ بشرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ثمَّ على الشَّكِّ فيما لا شَكَّ فيه، ولا يَحومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١٤، ٢١٥).

حَوْلَه؛ جاءَ بتَوبيخٍ أغلَظَ مِنهما[(١)].

- وأيضًا قَولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: (عذابي)، وإضافةُ ﴿عَذَابِ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّم؛ لاختِصاصِه باللهِ؛ لأنَّه مُقَدِّرُه، وقاضٍ به عليهم، ولِوُقوعِه على حالةٍ غَيرِ جاريةٍ على المعتادِ؛ إذِ الشَّأنُ أنْ يَستأصِلَ الجَيشُ القَويُّ الجَيشَ القليلَ. وحُذِفَتْ ياءُ المُتكلِّمِ؛ تَخفيفًا للفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ دليلًا عليها[(٢)].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهي مُشعِرةٌ باستِفهامٍ بعْدَها هو للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ إنكارًا لقَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨]، أي: ليست خَزائنُ فَضلِ اللهِ تعالى عِندَهم فيَتصَدَّوا لحِرمانِ مَن يَشاؤُونَ حِرمانَه مِن مَواهِبِ الخَيرِ؛ فإنَّ المَواهِبَ مِنَ اللهِ يُصيبُ بها مَن يَشاءُ، فهو يَختارُ للنُّبوَّةِ مَن يَصطَفيهِ، وليس الاختِيارُ لهم فيَجعَلوا مَن لم يُقَدِّموهُ عليهم في دِينِهم غيْرَ أهلٍ لِأنْ يَختارَهُ اللهُ[(٣)].

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿عِندَهُمۡ﴾؛ للاهتِمامِ؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾[(٤)] [الزخرف: ٣٢].

- والخَزائنُ: جمْعُ خِزانةٍ -بكسرِ الخاءِ- وهي البَيتُ الَّذي يُخزَنُ فيه المالُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

أو الطَّعامُ، والخَزْنُ: الحِفظُ والحِرْزُ. والرَّحمةُ: ما به رِفْقٌ بالغَيرِ وإحسانٌ إليه، وفي قولِه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ شُبِّهَتْ رحمةُ اللهِ بالشَّيءِ النَّفيسِ المَخزونِ الَّذي تَطمَحُ إليه النُّفوسِ في أنَّه لا يُعطى إلَّا بمَشيئةِ خازِنِه[١].

- الإضافةُ في ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ. والعُدولُ عنِ اسمِ الجَلالةِ (الله) إلى وصْفِ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ له مَزيدَ مُناسَبةٍ للغرَضِ الَّذي الكَلامُ فيه؛ إيماءً إلى أنَّ تَشريفَه إيَّاهُ بالنُّبوَّةِ، واللُّطفَ به مِن آثارِ صِفةِ رُبوبيَّتِه له؛ لأنَّ وَصْفَ الرَّبِّ مُؤْذِنٌ بالعِنايةِ والتَّربيةِ، والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ أُجري على الرَّبِّ صِفةُ (العَزيز)؛ لإبطالِ تَدخُّلِهم في تَصرُّفاتِه، وصِفةُ (الوَهَّاب)؛ لإبطالِ جَعلِهمُ الحِرمانَ مِنَ الخَيرِ تابِعًا لرَغَباتِهم دُونَ موادَّةِ اللهِ تعالى[٣].

وأيضًا فالعزيزُ: لمُقابَلةِ هؤلاء الَّذين كانوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ عِزَّةَ اللهِ فوقَ عِزَّتِهم وأَنَفَتِهم وحَمِيَّتِهم؛ وأنَّه غالبٌ لهم وقاهرٌ لهم، والوَهَّابُ بالنِّسبةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يعني أنَّه وَهَبَه النُّبُوَّةَ[٤].

- ومعنَى المُبالَغةِ في ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ راجِعٌ إلى خطَرِ المَوهِبةِ وعِظَمِها، وهي: النُّبوَّةُ[٥].

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ إلى رَدٍّ يأتي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٩).

على جميع مَزاعِمِهم، ويَشملُ بإجمالِه جميعَ النُّقوضِ التَّفصيليَّةِ لمَزاعِمِهم بكَلِمةٍ جامِعةٍ كالحَوصَلةِ؛ فيُشْبِهُ التَّذييلَ لِما يَتضمَّنُه مِن عُمومِ المُلكِ، وعُمومِ الأماكِنِ المُقتَضي عُمومَ العِلمِ، وعُمومَ التَّصرُّفِ، يَنعَى عليهم قَولَهم في المُغَيَّباتِ بلا عِلمٍ، وتَحكُّمَهم في مَراتِبِ المَوجوداتِ بدُونِ قُدرةٍ ولا غِنًى[١].

- وفي قَولِه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنَّه لَمَّا أنكَر عليهمُ التَّصرُّفَ في نُبوَّتِه بأنْ ليس عِندَهم خَزائنُ رحمتِه الَّتي لا نِهايةَ لها؛ أردَفَ ذلك بأنَّه ليس لهم مَدخَلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجُسمانيِّ الَّذي هو جُزءٌ يَسيرٌ مِن خَزائنِه، فمِن أين لهم أنْ يَتصرَّفوا فيه، وحتَّى يَتكلَّموا في الأمورِ الرَّبانيَّةِ، ويَتحكَّموا في التَّدابيرِ الإلهيَّةِ الَّتي يَستأثِرُ بها ربُّ العِزَّةِ والكِبرياءِ؟! والخُلاصةُ: أنَّه تَرقَّى مِنَ الإضرابِ الأوَّلِ، وتَمَّم ما أفادَه مِنَ المُبالَغةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أفادَ تَقريرًا بأنَّ اللهَ العزيزَ الوهَّابَ وضَعَ عِندَهم خَزائنَه وأمَرَهم أنْ يَقسِموها على مَن أرادوا؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ دلَّ على اتِّصافِهم بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ واستِقلالِهم بالمالِكيَّةِ تَهكُّمًا، انظُرْ إلى هذا التَّغليظِ في شأنِ الحاسِدِ وحسَدِه[٢]؟!

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تَهكُّميٌّ تَوبيخيٌّ، وليس إنكاريًّا؛ لأنَّ تَفريعَ أمْرِ التَّعجيزِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣١).

عليه يُعَيِّنُ أنَّه تَهكُّميٌّ[(١)]!

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الفاءُ هنا هي الفَصيحةُ، أي: هي جَوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ زعَموا ذلك، فلْيَصْعَدوا في المَعارِجِ الموصِّلةِ إلى العَرشِ حتَّى يَستَووا عليه[(٢)]!

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ تهكُّمٌ مِنَ اللهِ بهم غايةَ التَّهكُّم، كأنَّه قيل: وإنْ كانوا يَصلُحونَ لتَدبيرِ الخَلائقِ والتَّصرُّفِ في قِسمةِ الرَّحمةِ، وكانت عِندَهمُ الحِكمةُ الَّتي يُمَيِّزونَ بها بيْن مَن هو حَقيقٌ بإيتاءِ النُّبوَّةِ دُونَ مَن لا تَحِقُّ له؛ ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾: فلْيَصعَدوا في المَعارِجِ والطُّرقِ الَّتي يُتوصَّلُ بها إلى العَرشِ، حتَّى يَستَووا عليه ويُدَبِّروا أمْرَ العالَمِ ومَلكوتَ اللهِ، ويُنزِلوا الوَحيَ إلى مَن يَختارُونَ ويَستَصوِبونَ، ثمَّ خَسَأهُم خَسْأةً عن ذلك بقَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، يُريدُ: ما هُم إلَّا جَيشٌ مِنَ الكفَّارِ المُتحزِّبينَ على رُسلِ اللهِ، مَهزومٌ مَكسورٌ عمَّا قريبٍ، فلا تُبالِ بما يَقولونَ، ولا تَكتَرِثْ لِما به يَهْذُونَ[(٣)].

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الأمرُ في ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ لعَهدِ الجِنسِ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ لكلِّ مَحلٍّ مُرتفِعٍ أسبابًا يُصعَدُ بها إليه[(٤)].

- وحرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قَولِه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ يدُلُّ على التَّمكُّنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

مِنَ الأسبابِ حتَّى كأنَّها ظُروفٌ مُحيطةٌ بالمُرتَقِينَ(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

- قَولُه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا يَتَّصِلُ بقَولِه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ ...﴾ [ص: ٣] الآيةَ، أُريدَ به وصْلُ الكَلامِ السَّابِقِ؛ ليُفضيَ به إلى قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [ص: ١٢] إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا مُستقِلًّا خارِجًا مَخرجَ البِشارةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ هؤلاء جُندٌ مِنَ الأحزابِ مَهزومٌ، أي: مُقَدَّرٌ انهِزامُه في القَريبِ، وهذه البِشارةُ مُعجِزةٌ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ خُتِم بها وَصْفُ أحوالِهم، وعادةُ الأخبارِ الجاريةِ مَجرى البِشارةِ أو النِّذارةِ بأمرٍ مُغَيَّبٍ أنْ تكونَ مَرموزةً، والرَّمزُ في هذه البِشارةِ هو اسمُ الإشارةِ مِن قَولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ فإنَّه ليس في الكلامِ ما يَصلُحُ لأنْ يُشارَ إليه بدُونِ تأوُّلٍ، فلْنَجْعَلْه إشارةً إلى مكانٍ أَطْلَعَ اللهُ عليه نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مَكانُ بَدرٍ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ (الأحزابِ) في هذه الآيةِ إشارةً خَفيَّةً إلى انهِزامِ الأحزابِ أيَّامَ الخَندَقِ؛ فإنَّها عُرِفَتْ بغَزوةِ الأحزابِ، وسَمَّاهمُ اللهُ الأحزابَ في السُّورةِ الَّتي نزَلَتْ فيهم، فتكونَ تلك التَّسميةُ إلهامًا، وهذا في عِدادِ المُعجِزاتِ الخَفيَّةِ.

وعلى كلِّ الأوجُهِ فالآيةُ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ له، وبِشارةٌ بأنَّ دِينَه سيَظهَرُ على الكفَّارِ(٢).

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ قولَه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يُشارُ به للمَكانِ الَّذي تَفاوَضوا فيه مع

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧، ٢١٨).

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتلك الكَلِماتِ السَّابِقةِ، وهو مكَّةُ؛ فيَكونُ ذلك إخبارًا بالغَيبِ عن هزيمتِهم بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ؛ فالمعنَى أنَّهم يَصيرون مَهزومين بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ.

وقيل: لعلَّ اختيارَ اسمِ الإشارةِ البعيدِ (هنالك) رمزٌ إلى أنَّ هذا الانهِزامَ سيَكونُ في مكانٍ بَعيدٍ غَيرِ مكَّةَ، فلا تَكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى فَتحِ مكَّةَ؛ لأنَّ ذلك الفَتحَ لم يَقَعْ فيه عَذابٌ للمُكَذِّبينَ، بلْ عَفا اللهُ عنهم وكانوا الطُّلَقاءَ[١].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى الارتِقاءِ في الأسبابِ، أي: هؤلاءِ القَومُ إنْ رامُوا ذلك جُندٌ مَهزومٌ. وقيل: أُشيرَ بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى جُملةِ الأصنامِ وعَضُدِها، أي: هُم جُندٌ مَهزومٌ في هذه السَّبيلِ[٢].

- و قيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى حيثُ وَضَعوا فيه أنفُسَهم مِنَ الانتِدابِ لمِثلِ ذلك القَولِ العَظيمِ -يعني: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]- مِن قَولِهم لِمَن يُنتَدَبُ لأمرٍ ليس مِن أهلِه: (لَسْتَ هُنالِكَ) -أي: ليس هذا ممَّا يَليقُ بأمثالِك؛ لأنَّك أحَطُّ مَنزلةً من أنْ تُباشِرَه؛ فظهَرَ أنَّ ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا كنايةٌ عن تَحقيرِ شأنِهم- فسوف تَراهم مَهزومينَ مَكسورينَ عن قَريبٍ، فمِن أينَ لهمُ التَّدابيرُ الإلهيَّةُ، والتَّصرُّفُ في الأمورِ الربَّانيَّةِ؟! ولا تَكترِثْ بقَولِهم، ولا تُبالِ بهم[٣].

- و(ما) في قَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ حرفٌ زائدٌ يؤكِّدُ معنَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

ما قَبْلَه؛ فهي تَوكيدٌ لِما دَلَّ عليه ﴿جُندٌ﴾ بمَعناه، وفيها معنَى الاستِعظام، إلَّا أنَّه على سبيلِ الهُزْءِ؛ فإنَّ حاصِلَ الكَلام ودَلالةَ المَقام مُؤْذِنانِ بالتَّحقيرِ والتَّقليلِ؛ فإنَّ (ما) إذا كانت صِفةً تُستعمَلُ للتَّعظيم أو التَّحقير، فالثَّاني هو المُرادُ هنا؛ فتحصَّلَ أنَّ تَنكيرَ ﴿جُندٌ﴾ للتَّعظيم، أي: جُندٌ عظيمٌ؛ لأنَّ التَّنوينَ وإنْ دَلَّ على التَّعظيم فليس نَصًّا، فصار بالتَّوكيدِ نَصًّا. فإنْ كانت الآيةُ مُشيرةً إلى يَوم بَدْرٍ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لأنَّ رِجالَه عُظماءُ قُرَيشٍ، مِثلُ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ، وإنْ كانت مُشيرةً إلى يَومِ الأحزابِ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لكَثرةِ رِجالِه مِن قَبائلِ العرَب.

وقيل: إنَّ التَّنوينَ في ﴿جُندٌ﴾ للنَّوعيةِ، أي: ما هُم إلَّا جُندٌ مِنَ الجُنودِ الَّذين كَذَّبوا فأُهلِكوا[١].

- ووَصْفُ ﴿جُندٌ﴾ بأنَّه ﴿مَهْزُومٌ﴾ على معنَى الاستِقبالِ، أي: سيُهزَمُ؛ تنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، فكأنَّه مِنَ القُربِ بحيثُ هو كالواقِعِ في الحالِ[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: إنَّ هؤلاء الجُندَ مِن جُملةِ الأُمَمِ والأحزابِ الَّذينَ تَعصَّبوا في الباطِلِ، وكَذَّبوا الرُّسلَ، وهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

الآيات (١٢-١٦)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ
أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبُ البناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عِزٍّ ثابِتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابِتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلكَه، كما يقوِّي الوَتِدُ[1] الشَّيءَ، فأصلُ هذا أنَّ بيوتَ العربِ كانت تُثبَّتُ بالأوتادِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾: هم قَومُ شُعَيبٍ، والأيْكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[3].

﴿فَوَاقٍ﴾: أي: رُجوعٍ وارتدادٍ، وقيل: راحةٍ لا يُفيقونَ فيها، كما يُفيقُ المريضُ والمَغْشيُّ عليه. وفُواق -بضمِّ الفاءِ- أي: انتِظار. وقيل: الفواقُ بضمِّ الفاءِ وفتحِها

(١) الوَتِدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائِطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٦)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٣٢٤)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ١٠٠٩)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ٢٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٢٥).

بمعنًى واحدٍ، وهو ما بيْنَ الحَلْبتَينِ، وأصلُ (فوق) هنا: يدُلُّ على أَوْبةٍ ورُجوعٍ[١].

﴿قِطَّنَا﴾: أي: عذابَنا ونَصيبَنا وحِسابَنا، ويُقالُ لكِتابِ الحِسابِ: قِطٌّ، واشتِقاقُه مِن القَطِّ: وهو القَطعُ، وكذلك النَّصيبُ هو القِطعةُ مِن الشَّيءِ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا ممَّا أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن العذابِ والنَّكالِ حينَ كذَّبت رُسلَها؛ حتَّى يَعتبِرَ المشركونَ، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ، وثمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ؛ أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا على الكُفرِ والتَّكذيبِ، كُلُّ هؤلاء الأحزابِ كَذَّب رُسُلَ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ.

وما يَنتَظِرُ مُشرِكو قُرَيشٍ إلَّا نَفخةً واحدةً يَنفُخُها إسرافيلُ في الصُّورِ ليس لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ.

ثُمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاء المشركونَ مِن جهالةٍ وسَفَهٍ، حيثُ تعجَّلوا العِقابَ قبْلَ وُقوعِه بهم، فيقولُ: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ تكذيبًا واستِهزاءً: يا رَبَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٥٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٦).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر في الجوابِ عن شُبهةِ القَومِ أنَّهم إنَّما تَوانَوا وتكاسَلوا في النَّظَرِ والاستِدلالِ لأجْلِ أنَّهم لم يَنزِلْ بهم العَذابُ؛ بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ أقوامَ سائِرِ الأنبياءِ هكذا كانوا، ثمَّ بالآخرةِ نَزَل ذلك العِقابُ، والمقصودُ منه تخويفُ أولئك الكُفَّارِ الَّذين كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ في إخبارِه عن نُزولِ العِقابِ عليهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ قبْلَ قُرَيشٍ قُرونًا كثيرةً لَمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم؛ سَرَد منهم هنا مَن لهم تعلُّقٌ بِعِرفانِه(٢).

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

أي: كذَّبَتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

واختلَف المفسِّرون في معنى الأوتادِ على أقوالٍ؛ منها:

أنَّها الأوتادُ المعروفةُ؛ فكان فِرعَونُ يَتَّخِذُها إمَّا لتعذيبِ النَّاسِ، وإمَّا لأنَّه كان يُلعَبُ له بها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير. ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١).

وممَّن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّها كانت تُستخدَمُ للتَّعذيبِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٍ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشركي قُرَيش ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ[1] الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ، أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا

= قال الواحدي: (قال المُفسِّرونَ: كانت له أوتادٌ يُعَذِّبُ النَّاسَ عليها). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: السُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّها ملاعبُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وقيل: الأوتادُ: هي البناياتُ العظيمةُ العاليةُ. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: ابنُ عطية، والغزنوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ البُنيانُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾: أي: ذو الملكِ الثَّابتِ الشَّديدِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والواحدي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وقيل: المرادُ بالأوتادِ: ما لديه مِن الأسبابِ الموجِبةِ لِثَباتِ المُلكِ وتَقويتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال الشنقيطي: (العلماءُ مختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدْيَنُ أنفُسُهم، فيكون شُعيبٌ =

على الكُفرِ باللهِ، وتكذيبِ رُسُلِه، ورَدِّ الحَقِّ(١).

= أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدْيَنُ أُمَّةٌ وأصحابُ الأيْكةِ أمَّةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيْكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأنَّ اللهَ سمَّاهم مرَّةً بنسَبِهم «مدين»، ومرَّةً أضافهم إلى الأيْكةِ الَّتي يَعبُدونَها. وجزَمَ بصحَّةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، ومِمَّنِ اشتهر عنه أنَّهم أُمَّتانِ: قَتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ. والَّذين قالوا: إنَّهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم، حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أمَّا أصحابُ الأيْكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ. وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدْيَنَ ذَكَر الجَدَّ الَّذي يَشملُ القبيلةَ ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكَر أنَّه أخوهم مِن النَّسَبِ. أمَّا قولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعبُدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك وهم أُمَّةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللهُ أعلَمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وممَّن ذهب إليه مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).

وذهب قَتادةُ -كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيْكةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير سورة ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٧، ٦٨).

قال السمرقندي: (سُمُّوا أحزابًا؛ لأنَّهم تحزَّبوا على أنبيائِهم، أي: تجمَّعوا). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠).

وقال الشربيني: (وقيل: المعنى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مُبالَغةً في وَصفِهم بالقُوَّةِ، كما يُقالُ: فُلانٌ هو الرَّجُلُ، أي: أولئك الأحزابُ مع كمالِ قُوَّتِهم لَمَّا كان عاقِبَتُهم هي الهلاكَ والبَوارَ، فكيف حالُ هؤلاء الضُّعَفاءِ المَساكينِ إذا نزَل عليهم العذابُ، وفي الآيةِ زَجرٌ وتَخويفٌ للسَّامِعينَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: كُلُّ تلك الأحزابِ قد وقَعت في تكذيبِ رُسُلِ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ؛ فلْيَحذَرِ المكَذِّبونَ بمُحمَّدٍ أن يُعاقَبوا كما عُوقِبَ مَن قَبْلَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه: ﴿فَوَاقٍ﴾ قراءاتانِ:

١- قراءةُ ﴿فُوَاقٍ﴾ بضمِّ الفاءِ، أي: تأخيرٍ، وتوقُّفٍ مِقدارَ فُواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتَي اللَّبنِ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٨-٧٠).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). =

٢- قراءةُ ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتحِ الفاءِ، أي: راحةٍ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ، وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ، فالفتحُ والضمُّ لُغتانِ[(١)].

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بيَّن عِقابَ كفَّارِ قريشٍ إثرَ بيانِ عِقابِ أضرابِهم، فقال[(٢)]:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

أي: وما يَنتَظِرُ المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ إلَّا سَماعَ النَّفخةِ الأُولى في الصُّورِ، وهي نَفخةٌ ما لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ[(٣)].

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).
قال ابنُ عاشور: (جمهورُ أهلِ اللُّغةِ على أنَّ الفَتحَ والضَّمَّ فيه سواءٌ، وذهب أبو عُبَيدةَ والفَرَّاءُ إلى أنَّ بيْنَ المفتوحِ والمضمومِ فَرقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).
قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنَّهما لُغتانِ؛ وذلك أنَّا لم نَجِدْ أحدًا مِن المُتقَدِّمينَ على اختلافِهم في قراءتِه يُفَرِّقون بيْن معنى الضَّمِّ فيه والفتحِ، ولو كان مُختَلِفَ المعنى باختِلافِ الفَتحِ فيه والضَّمِّ لقد كانوا فرَّقوا بيْن ذلك في المعنى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥- ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣-٧٥).
قال ابنُ عاشور: (تَتبَّعتُ اصطِلاحَ القُرآنِ فوَجَدْتُه إذا استعمل «هَؤُلَاءِ» ولم يكُنْ معه مُشارٌ =

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾.

= إليه مذكورٌ: أنَّه يريدُ به المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصَّيحةِ: النَّفخةُ الأُولى في الصُّورِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والرسعني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).
قال الشوكاني: (﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً، وهي النَّفخةُ الكائنةُ عندَ قيامِ السَّاعةِ. وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ. وعلى الأوَّلِ: المرادُ مَن عاصَرَ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الكُفَّارِ، وعلى الثَّاني: المرادُ كُفَّارُ الأُمَمِ المذكورةِ، أي: ليس بيْنَهم وبيْن حُلولِ ما أعَدَّ الله لهم مِن عذابٍ إلَّا أن يُنفَخَ في الصُّورِ النَّفخةُ الثَّانيةُ. وقيل: المرادُ بالصَّيحةِ: عذابٌ يَفجَؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).
واختُلِف في معنى قولِه: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾؛ فقيل: المعنى: ما لتلك الصَّيحةِ مِن فُتورٍ ولا انقِطاعٍ ولا تَردادٍ، فهي مُمتدَّةٌ لا تقطيعَ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦، ١٥٧).
وقيل: المعنى: ما لَها مِن توقُّفٍ مِقدارَ فَواقٍ، فإذا جاء وقتُها لم يُمهلْ هذا القَدر. وممَّن اختار هذا المعنى: النيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).
وقيل: المعنى: ليس بعدَها رجوعٌ إلى الدُّنيا ولا مَرَدٌّ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).
قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ: أنَّ تلك الصَّيحةَ هي ميعادُ عَذابِهم، فإذا جاءت لم تَرجِعْ، ولا تُرَدُّ عنهم، ولا تُصرَفُ منهم، ولا تتوقَّفُ مِقدارَ فَواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتَيِ الحالِبِ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦). =

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا الأصلُ الثَّالثُ مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو إنكارُ البَعثِ والجَزاءِ؛ فهو عَطفٌ على ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، فذكَرَ قَولَهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ثمَّ ذكَرَ قَولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وما عَقَبَه من عواقِبِ مِثلِ ذلك القَولِ؛ فأفضَى القَولُ إلى أصلِهم الثَّالِثِ(١).

وأيضًا لَمَّا عَجَّب منهم بما مضَى، وأبطَلَ شُبَهَهم، وعَرَّفهم أنَّهم قد عَرَّضوا أنفُسَهم للهلاكِ تَعريضًا قَريبًا؛ أتْبَع ذلك تَعجيبًا أشَدَّ مِن الأوَّلِ، فقال(٢):

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ استِهزاءً وتَكذيبًا: يا رَبَّنا عجِّلْ لنا نَصيبَنا الَّذي تُوَعِّدْنا به مِن العذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فيه الاعتبارُ بالأغلَبِ، وأنَّ

= وقال ابنُ عثيمين: (ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّ القِراءتَين تَجمَعانِ المَعنيَينِ؛ فيَكونُ معنى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: ما لها مِن رُجوعٍ ولا إمهالٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٥).
وذكَرَ البِقاعي احتِمالاتٍ أخرى في معنى الآيةِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٤، ٧٥).

الكُلَّ قد يُطلَقُ على الأغلَبِ؛ لأنَّ قَومَ نوحٍ عليه السَّلامُ لم يُكَذِّبوا كلُّهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وكذلك عادٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وكذلك لُوطٌ عليه السَّلامُ؛ آمَنَ معه مَن آمَنَ مِن أهلِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]، كذلك فِرعَونُ لم يُؤْمِنْ إلَّا حينَما أدرَكَه الغَرَقُ إيمانًا لا يَنفَعُه، وكذلك صالحٌ عليه السَّلامُ آمَنَ معه مَن آمَنَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أنَّ تكذيبَ الرُّسُلِ سَبَبٌ للعُقوبةِ، و(الفاءُ) هنا سَبَبيَّةٌ، وهي عاطِفةٌ تدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ففيها سَبَبيَّةٌ وتَعقيبٌ، وأنَّ العِقابَ حلَّ بهم وهم ما زالوا على تكذيبِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤخَذُ منه فائِدةٌ، وهي شِدَّةُ هذه العُقوبةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفْسِه، وقد قال سُبحانَه وتعالى عن نَفْسِه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٣] [المائدة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ اعترافُ المُشرِكينَ بالرُّبوبيَّةِ، فهم مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، ومُقِرُّونَ بانفِرادِ اللهِ تعالى بها؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤] [لقمان: ٢٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يُخرِجُ الإنسانَ من الكُفرِ إذا كان لم يُقِرَّ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ؛ لأنَّ هؤلاء مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ اللهَ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

الخالقُ الرَّازقُ، والمُنفَرِدُ بالخَلقِ والرزقِ، لكِنَّهم يُشرِكونَ به في العِبادةِ؛ يَعبُدونَ معه غيرَه، فلم يُدْخِلْهم ذلك في الإسلامِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه كثيرٌ مِن المتكلِّمين في تفسيرِ التَّوحيدِ؛ حيث قالوا في تفسيرِ التَّوحيدِ: «أنْ تؤمِنَ بأنَّ اللهَ واحدٌ في ذاتِه لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعالِه لا شَريكَ له، واحِدٌ في صفاتِه لا شَبيهَ له»؛ هذا هو التَّوحيدُ عندَ عامَّةِ المُتكَلِّمينَ، ولم يَتعَرَّضوا فيه لِذِكرِ الألوهيَّةِ إطلاقًا! فما ذكروه لم يَدخُلْ فيه توحيدُ الألوهيَّةِ الَّذي جاءتِ الرُّسُلِ بتَحقيقِه وإثباتِه والقِتالِ عليه، لم يَقولوا: واحِدٌ في ألوهيَّتِه لا يُعبَدُ غيرُه(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه ببيانِ أحوالِ العُتاةِ الطُّغاةِ الَّذينَ هؤلاءِ جُندٌ ما مِن جُنودِهم، ممَّا فَعَلوا مِنَ التَّكذيبِ، وفُعِل بهم مِنَ العِقابِ(٣).

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ [ص: ١١] تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووعْدًا له بالنَّصرِ، وتَعريضًا بوَعيدِ مُكذِّبيهِ؛ جيءَ بما هو كالبَيانِ لهذا التَّعريضِ، والدَّليلِ على المَصيرِ المَقصودِ على طريقةِ قياسِ المُساواةِ(٤)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٧).

(٤) القياسُ: تقدَّمَ تعريفُه عندَ الأصوليِّينَ (ص: ٢١)، وهو عندَ أهلِ المنطقِ: قولٌ مؤلَّفٌ مِن قضايا إذا سَلِمَتْ لزم عنها لِذَاتِها قولٌ آخَرُ؛ كقولنا: «العالَمُ متغيِّرٌ، وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ»؛ فإنَّه قولٌ مركَّبٌ مِن قضيَّتَينِ، إذا سَلِمتَا لَزِم عنهما لِذاتِهما: العالَمُ حادثٌ. =

وهو قولُه هنا: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾[(١)].

- قَولُه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ حُذِف مَفعولُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ لأنَّه سيَرِدُ ما يُبَيِّنُه في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾[(٢)].

- قَولُه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ خُصَّ فِرعونُ بإسنادِ التَّكذيبِ إليه دُونَ قَومِه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ لِيُطْلِقَ بَني إسرائيلَ، فكَذَّبَ موسى، فأمَرَ اللهُ موسى بمُجادَلةِ فِرعونَ لإبطالِ كُفرِه، فتَسَلْسَلَ الجِدالُ في العقيدةِ، ووجَبَ إشهارُ أنَّ فِرعونَ وقَومَه في ضَلالٍ؛ لِئلَّا يَغتَرَّ بَنو إسرائيلَ بشُبُهاتِ فِرعونَ، ثمَّ كان فِرعونُ عَقِبَ ذلك مُضمِرًا أذَى موسى عليه السَّلامُ ومُعلِنًا بتَكذيبِه[(٣)].

- ووُصِف فِرعونُ بأنَّه ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾؛ لعَظَمةِ مُلكِه وقوَّتِه، فلمْ يكُنْ ذلك لِيَحولَ بيْنَه وبيْن عَذابِ اللهِ. وعُبِّر بالأوتادِ هنا عن ثَباتِ المُلكِ والعِزِّ، ورُسوخِ السَّلطنةِ واستِقامةِ الأمْرِ، مِن ثَباتِ البَيتِ المُطنَّبِ بأوتادٍ، أو

= وقياسُ المُساواةِ: هو كلُّ قياسٍ مركَّبٍ مِن قضيتَين يكونُ مُتعلقُ محمولِ الصُّغرى موضوعًا في الكبرى؛ فإنَّ استلزامَه لا بالذَّاتِ، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، حيثُ تَصدُقُ يَتحقَّقُ الاستلزامُ؛ كقولنا: (أ) مساوٍ لـ (ب)، و (ب) مساوٍ لـ (ج)؛ فإنَّه يلزمه (أ) مساوٍ لـ (ج)، ولكن لا لنفْسِه، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، أي: مقدمةٍ غيرِ لازمةٍ لإحدى مقدمتَي القياس. وحيث لا تصدُقُ لا يَتحقَّقُ، كقولِنا: (أ) نصفٌ لـ (ب)، و (ب) نصفٌ لـ (ج)؛ فلا يصدقُ (أ) نصفٌ لـ (ج)؛ إذ نصْفُ النِّصفِ ليس بنصفٍ، بل هو ربعٌ.

يُنظر: ((بيان المختصر)) للأصفهاني (١/ ٣٦)، ((أصول الفقه)) لابن مفلح (١/ ٢١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨١، ١٨٢)، ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى: ذُو الجُموعِ الكثيرةِ؛ سُمُّوا بذلك لأنَّ بعضَهم يَشُدُّ بعضًا، كالوتدِ يَشُدُّ البناءَ(١). وقيل غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مُناسَبَةٌ حسَنَةٌ، حيثُ ختمَ أواخِرَ آياتِه هنا بما قبْلَ آخِرِه ألْفٌ، وختَمَ آياتِ قَولِه في سورةِ (ق): ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بما قبْلَ آخِرِه ياءٌ أو واوٌ؛ موافَقةً لبقيَّةِ فَواصِلِ السُّورتَينِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ وجُملةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، واسمُ الإشارةِ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ، أي: تَعظيمِ القوَّةِ(٣).

- وقُصِد بهذه الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الإعلامُ والتَّأكيدُ، والتَّنبيهُ بأنَّ الأحزابَ الَّذينَ جُعِل الجُندُ المَهزومُ منهم هُمْ هُمْ، وأنَّهم هُمُ الَّذينَ وُجِد منهمُ التَّكذيبُ. ويَجوزُ أنْ يكونَ إشارةً إلى جميعِ الأحزابِ؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ(٤).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ استِغراقٌ ادِّعائيٌّ، وهو المُسمَّى بالدَّلالةِ على معنَى الكَمالِ، مِثلُ: هُمُ القومُ، وأنت الرَّجُلُ. والحَصرُ المُستفادُ من

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

تعريفِ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[(١)]، قُصِرَتْ صِفةُ الأحزابِ على المُشارِ إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بادِّعاءِ الأُمَمِ، وأنَّ غَيْرَهم لَمَّا يَبلُغوا مَبلَغَ أنْ يُعَدُّوا مِنَ الأحزابِ؛ فظاهِرُ القَصرِ ولامُ الكَمالِ لتأكيدِ معنَى الكَمالِ، والمعنَى: أولئك المَذْكورونَ هُمُ الأُمَمُ، لا تُضاهِيهم أُمَمٌ في القُوَّةِ والشِّدَّة، وهذا تعريضٌ بتَخويفِ مُشرِكي العرَبِ مِن أنْ يَنزِلَ بهم ما نزَلَ بأولئكَ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾

- قَولُه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ استِئنافٌ جيءَ به تَقريرًا لتَكذيبِهم، وبيانًا لكَيْفيَّتِه، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه[(٣)].

- وجُملةُ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ إلى قَولِه ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾؛ أَخبَرَ أوَّلًا عنهم بأنَّهم كَذَّبوا، وأكَّدَ ذلك بالإخبارِ عنهم بأنَّهم ليسوا إلَّا مُكذِّبينَ على

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضَربَتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا من قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.
يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وَجهِ الحَصرِ، كأنَّهم لا صِفةَ لهم إلَّا تَكذيبُ الرُّسلِ؛ لِتَوَغُّلِهم فيها، وكَونِها هِجِّيراهُم[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ذكَرَ تكذيبَ الأحزابِ أوَّلًا في الجُملةِ الخَبريَّةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ على وَجهِ الإبهامِ، ثمَّ جاء بالجُملةِ الاستِثنائيَّةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فأوْضَحَه فيها بأنَّ كلَّ واحِدٍ مِنَ الأحزابِ كَذَّبَ جميعَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم إذا كَذَّبوا واحدًا منهم فقد كَذَّبوهم جميعًا.

وقيل: ما كلُّ حِزبٍ إلَّا كَذَّب رسولَه على نَهجِ مُقابَلةِ الجَمعِ بالجَمعِ. وفي تَكريرِ التَّكذيبِ، وإيضاحِه بعْدَ إبهامِه، والتَّنويعِ في تَكريرِه بالجُملةِ الخَبريَّةِ أوَّلًا وبالاستِثنائيَّةِ ثانيًا، وما في الاستِثنائيَّةِ مِنَ الوَضعِ على وَجهِ التَّوكيدِ والتَّخصيصِ: أنواعٌ مِنَ المُبالَغةِ المُسَجِّلةِ عليهم باستِحقاقِ أشَدِّ العِقابِ وأبْلَغِه، ثمَّ قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجَبَ لذلك أنْ أُعاقِبَهم حَقَّ عِقابِهم[(٢)].

وجيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ لِيُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليه عليه تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، فحصَلَ بهذا النَّظمِ تأكيدُ الحَصرِ[(٣)].

- وقد حصَلَ تَسجيلُ التَّكذيبِ عليهم بفُنونٍ من تَقويةِ ذلك التَّسجيلِ؛ وهي إبهامُ مَفعولِ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، ثم تَفصيلُه بقَولِه: ﴿إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وما في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مِنَ الحَصرِ، وما في تأكيدِه بالمُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿إِلَّا كَذَّبَ﴾، وما في جَعلِ المُكَذَّبِ به جميعَ الرُّسلِ، فأنتَجَ ذلك التَّسجيلُ استِحقاقَهم عَذابَ اللهِ في قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: عِقابي، فحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ في حالةِ الوَصلِ[١].

- وتَعديةُ ﴿كَذَّبَ﴾ إلى ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ -مع أنَّ كلَّ أُمَّةٍ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها- مَقصودٌ منه تَفظيعُ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأُمَّةَ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها مُستَنِدةً لحُجَّةٍ سُفسْطائيَّةٍ[٢] هي استِحالةُ أنْ يَكونَ واحدٌ مِنَ البَشَرِ رَسولًا مِنَ اللهِ، فهذه السَّفْسَطةُ تَقتَضي أنَّهم يُكَذِّبونَ جميعَ الرُّسلِ[٣].

- وقَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: تَحقَّقَ وكان حَقًّا؛ لأنَّه اقتَضاهُ عظيمُ جُرمِهم. والعِقابُ: هو ما حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهم مِنَ العَذابِ، وهو الغَرَقُ والتَّمزيقُ بالرِّيحِ، والغرَقُ أيضًا، والصَّيحةُ، والخَسفُ، وعَذابُ يَومِ الظُّلَّةِ. وفي هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٢) السُفسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيَّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا في وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُمَوَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو من جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

تَعريضٌ بالتَّهديدِ لِمُشركي قُرَيشٍ بعَذابٍ مِثلِ عَذابِ أولئك؛ لاتِّحادِهم في مُوجِبه[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ أيضًا مَسوقٌ لتَقريرِ عِقابِ كُفَّارِ مَكَّةَ بعْدَ بَيانِ عِقابِ مَن سَبَقوهم في الغَوايةِ، وأَضرابِهم مِنَ الأحزابِ الَّذينَ أُخبِرَ فيما سبَقَ بأنَّهم جُندٌ حَقيرٌ منهم مَهزومٌ عن قَريبٍ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُوجِبُ انتِظارَ السَّامعِ وتَرَقُّبَه إلى بَيانِه قَطْعًا. وفي الإشارةِ إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَحقيرٌ لشأنِهم، وتَهوينٌ لأمرِهم[2].

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ لِأنَّ تَجدُّدَ دَعوَتِهم ووَعيدَهم وتكذيبَهم يَومًا فيومًا جَعَلَهم كالحاضِرينَ؛ فكانتِ الإشارةُ مَفهومًا منها أنَّها إليهم، ولِمَا أنَّ أسماءَ الإشارةِ تَقتَضي أنْ يَكونَ المُشارُ إليه مَحسوسًا، أو في حُكمِ المَحسوسِ، أشارَ إليهم باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لِأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن تَحقيرٍ لهم، فـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُشارٌ به إلى الَّذين أدبَروا عنكَ ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢]، وغايةُ جهدِهم أنْ يَكونوا مِنَ الأحزابِ الَّذين تَحزَّبوا على جُندِنا، فأخَذْناهم بما هو مَشهورٌ مِن وَقائِعِنا ومَعروفٌ مِن أيَّامِنا بأصنافِ العَذابِ، ولم تُغنِ عنهم كَثرَتُهم ولا قُوَّتُهم شَيئًا، ولم يَضُرَّ جُندَنا ضَعفُهم ولا قِلَّتُهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، =

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ فيه وَصْفُ الصَّيحةِ بواحِدة؛ إشارةً إلى أنَّ الصَّاعِقةَ عظيمةٌ مُهلِكةٌ، أو أنَّ النَّفخةَ واحِدةٌ، وهي نَفخةُ الصَّعقِ[(١)].

- وأُسنِدَ الانتِظارُ إليهم بقولِه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في حِينِ أنَّهم غافِلونَ عن ذلك ومُكَذِّبونَ بظاهِرِه؛ فإنَّهم يَنتظِرُ بهم ذلك المُسلِمونَ المَوعودونَ بالنَّصرِ، أو يَنتظِرُ بهِمُ المَلائكةُ المُوَكَّلونَ بحَشرِهم عِندَ النَّفخةِ، فلمَّا كانوا مُتعلَّقَ الانتِظارِ أُسنِدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُ﴾ إليهم؛ لِمُلابَسةِ المَفعوليَّةِ، على نَحوِ: ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٢١][(٢)] [القارعة: ٧].

- ولَمَّا أَشعَرَ قَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤] بتَهديدِ مُشرِكي قُرَيشٍ بعَذابٍ يَنتظِرُهم جَرْيًا على سُنَّةِ اللهِ في جزاءِ المُكذِّبينَ رُسُلَه؛ عُطِف على جُملةِ الإخبارِ عن حُلولِ العَذابِ بالأحزابِ السَّابقينَ جُملةُ تَوَعُّدٍ بعذابِ الَّذينَ ماثَلوهم في التَّكذيبِ، وهي قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾[(٣)].

- قَولُه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ الفَواقُ هي المُدَّةُ الَّتي بيْنَ الحَلْبتَينِ، وهي ساعةٌ قَليلةٌ، والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ أنَّه ليس بعدَها إمهالٌ بقَدرِ الفَواقِ، وعَبَّرَ بذلك عن سُرعةِ الأخْذِ وعَدَمِ الإمهالِ، ولو لِمُدَّةٍ يَسيرةٍ، فإذا جاءَ وَقتُها لم تَستأخِرْ هذا القَدْرَ مِنَ الزَّمانِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٣).

سَاعَةً ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقيل غيرُ ذلك[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لسَردِ أَنماطٍ مِن تَمَحُّلِهم واستِهزائِهم بعْدَ أنْ نزَلَ قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وحكايةٌ لحالةِ استِخفافِ الكافرينَ بالبَعثِ والجَزاءِ وتكذيبِهم ذلك، وتكذيبِهم بوَعيدِ القُرآنِ إيَّاهُم، فلمَّا هَدَّدَهمُ القُرآنُ بعَذابِ اللهِ قالوا: ربَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ في الدُّنيا قبْلَ يومِ الحِسابِ؛ إظهارًا لعدَمِ اكتِراثِهم بالوَعيدِ وتَكذيبِه؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُسلِمونَ أنَّ استِخفافَهم بالوَعيدِ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالبَعثِ، فأبانُوا لهم أنَّهم لا يُصَدِّقونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كلِّ وعيدٍ حتَّى الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا الَّذي يَعتَقِدونَ أنَّه في تَصرُّفِ اللهِ. فالقَولُ هذا قالُوه على وَجهِ الاستِهزاءِ، وحُكيَ عنهم هنا؛ إظهارًا لرَقاعَتِهم وتَصلُّبِهم في الكُفرِ. وتَسميتُهم يَومَ الحِسابِ أيضًا مِنَ التَّهكُّمِ؛ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالحِسابِ[٢].

- وتصديرُ دُعائِهم بالنِّداءِ المذكورِ في قَولِه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للإمعانِ في الاستِهزاءِ، كأنَّهم يَدْعُون ذلك بكَمالِ الرَّغبةِ والابتِهالِ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤- ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨).

الآيات (١٧-٢٠)

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلْأَيْدِ﴾: أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[١].

﴿أَوَّابٌ﴾: أي: رَجَّاعٌ توَّابٌ، مِن قَولِهم: آبَ الرَّجُلُ إلى أهلِه: إذا رجَعَ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[٢].

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: أي: آخِرِ النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صَلاةِ العَصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ[٣].

﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: أي: وَقتِ إشراقِ الشَّمسِ، أي: سُطوعِها وصَفاءِ ضَوئِها، وهو وَقتُ صَلاةِ الضُّحى، وهو غيرُ الشُّروقِ؛ لأنَّ الشُّروقَ هو وَقتُ طُلوعِ الشَّمسِ. يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ: إذا طَلَعَت، وأشرَقَت: إذا أضاءَت. وأصلُ (شرق): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

على إضاءةٍ وفَتحٍ[١].

﴿مَحْشُورَةً﴾: أي: مَجموعةً، وأصلُ الحَشرِ: يدُلُّ على السَّوقِ والبَعثِ[٢].

﴿وَشَدَدْنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، والشَّدُّ: العَقدُ القَويُّ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿الْحِكْمَةَ﴾: أي: النُّبُوَّةَ، وإصابةَ الصَّوابِ في القولِ والفعلِ، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ، والحِكمةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنَعُ من الجَهلِ[٤].

﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾: أي: بَيانَ الكَلامِ وبلاغَتَه، وجَمْعَه للمَعنى المقصودِ الفاصِلِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[٥].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ: اصبِرْ -يا مُحمَّدُ-

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٢٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

على ما يَقولُه أولئك المُشرِكونَ، واذكُرْ عَبدَنا داودَ ذا القُوَّةِ؛ إنَّه كثيرُ التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى رَبِّه.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ مظاهِرِ فضلِه على عبدِه داودَ عيه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ معه يُسَبِّحْنَ اللهَ آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه، وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً له، كلٌّ له رَجَّاعٌ، يُسبِّحُ بتَسبيحِه، وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه، وآتَيْناه الحِكمةَ، والفَصْلَ في الكلامِ وفي الحُكمِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا بالَغوا في السَّفاهةِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ قالوا: إنَّه ساحِرٌ كذَّابٌ، وقالوا له على سَبيلِ الاستِهزاءِ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ على سَفاهتِهم(١).

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: اصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك مِن كُلِّ ما يَسوؤُك مِن أقوالِهم(٢).

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بالصَّبرِ على قَومِه، أمَرَه أن يَستعينَ على الصَّبرِ بالعبادةِ لله

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وَحْدَه، ويَتذكَّرَ حالَ العابِدينَ(١).

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا داودَ ذا القُوَّةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

قال الشوكاني: (ومعنى ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾: اذكُرْ قِصَّتَه؛ فإنَّك تجدُ فيها ما تتسلَّى به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧).

والمرادُ بالقُوَّةِ: قيل: هي القُوَّةُ على العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والواحدي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: القُوَّةُ في العِلمِ والعَمَلِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (الأَيْدِ: القوَّة، وهي في داودَ مُتضمنةٌ قوَّةَ البدَنِ، وقوَّتَه على الطَّاعةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥).

وقال ابن جُزَي: (وكان داودُ جمَعَ قوَّةَ البدنِ، والقوَّةَ في الدِّينِ، والمُلكِ، والجنودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ: مُطلَقُ القُوَّةِ، سواءٌ في العبادةِ، أو في المُلكِ، أو فيما سِوى ذلك؛ فهو ذو أَيْدٍ في كُلِّ ما تكونُ القُوَّةُ فيه صِفةَ مَدحٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داودَ عليه السَّلامُ، وأَحَبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داودَ، وكان يَنامُ نِصفَ اللَّيلِ، ويَقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه، ويَصومُ يَومًا، ويُفطِرُ يومًا))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عن النَّبيِّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((كان أعْبَدَ النَّاسِ))[٢].

وعن عبدِ اللَّه بنِ عَمرٍو رَضِي اللَّه عنهما: قال: ((بَلَغ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أسْرُدُ الصَّومَ، ...)) الحديث. وفيه: قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((فصُمْ صيامَ داودَ عليه السَّلامُ. قالَ: وكيفَ؟ قال: كانَ يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى))[٣].

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: إنَّه كَثيرُ التَّوبةِ والتَّضَرُّعِ والوُقوفِ عندَ حُدودِ اللهِ، رجَّاعٌ عمَّا يَكرَهُه اللهُ إلى ما يُحِبُّه ويَرضاه[٤].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾.

أي: إنَّا ذلَّلْنا الجِبالَ يُسَبِّحْنَ اللهَ مع داودَ في آخِرِ النَّهارِ، ويُسَبِّحْنَ معه في وَقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ حينَ تُضيءُ ويَصفو شُعاعُها، وهو وَقتُ الضُّحى[٥].

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠-٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩﴾.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً لداودَ(١).

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: كلٌّ رجَّاعٌ له، يُسَبِّحُ بتَسبيحِه(٢).

= (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٨، ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿لَّهُۥٓ﴾ يعودُ إلى داودَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال الرسعني: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كلُّ واحدٍ مِن الجبالِ والطَّيرِ رجَّاعٌ إلى طاعةِ داودَ وأمرِه، =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

أي: وقوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه(١).

= أو كلٌّ لأجْلِ داودَ، أي: لأجْلِ تسبيحِه مُسَبِّحٌ؛ لأنَّها كانت تُسبِّحُ بتسبيحِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١).

ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٥).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: ابنُ جُزَي، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

وقيل: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيعٌ لداودَ، يسَبِّحُ بتسبيحِه. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: كُلٌّ لداودَ رجَّاعٌ، أي: مُرجِّعٌ معه؛ إذا سَبَّح سَبَّحت الجبالُ، وإذا سَبَّح سبَّحت الطُّيورُ المجموعةُ إليه. وقيل: إنَّ الأوَّابَ: الرَّجَّاعُ... والمعنيان مُتلازِمان؛ لأنَّه إذا كان رجَّاعًا يَرجِعُ إلى داودَ لِيُسَبِّحَ معه فهو مُرجِّعٌ معه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

وقيل: إنَّ الضميرَ في ﴿لَّهُۥٓ﴾ يرجعُ إلى الله. وممَّن اختاره: الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الشوكاني: (كلُّ واحدٍ مِن داودَ والجبالِ والطَّيرِ رَجَّاعٌ إلى طاعةِ اللهِ وأمْرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كُلُّ واحدٍ من الجبالِ والطَّيرِ؛ لأجْلِ تَسبيحِه: رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، والفَرقُ بيْنَه وبيْن ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على الموافقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المداومةِ عليها، أو كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرجِّعٌ لله التَّسبيحَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: وآتَيْناه القُدرةَ على وَضعِ الأشياءِ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها وَفْقَ ما أُوتِيَه مِن النُّبوَّةِ والعِلمِ بحَقائِقِ الأشياءِ وفَهمِها ومَعرفةِ الصَّوابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾.

أي: وآتَيْنا داودَ الفَصْلَ في الكلامِ -فكان ذا بيانٍ وفَصاحةٍ- وفي الحُكمِ،

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

قال البقاعي: (﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النُّبُوَّةَ الَّتي يَنشَأُ عنها العِلمُ بالأشياءِ على ما هي عليه، ووضْعُ الأشياءِ في أحكَمِ مَواضِعِها، فالحِكمةُ: العَمَلُ بالعِلمِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٥).

وممَّن قال بأنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي النُّبُوَّةُ والإصابةُ في الأمورِ: البغويُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي الفَهمُ والعِلمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٥).

قال ابنُ جرير: (الحِكمةُ مأخوذةٌ من الحُكمِ وفَصلِ القَضاءِ، وهي الإصابةُ، والإصابةُ في الأمورِ إنَّما تكونُ عن فَهمٍ بها وعِلمٍ ومَعرفةٍ، والنُّبُوَّةُ مِن أقسامِه؛ لأنَّ الأنبياءَ مُسَدَّدونَ مُفَهَّمونَ، ومُوَفَّقونَ لإصابةِ الصَّوابِ في الأمورِ، فالنُّبُوَّةُ بَعضُ معاني الحِكمةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢) بتصرف.

فكان يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قيل: المرادُ: بلاغةُ الكلامِ وجَمْعُه للمعنى المقصودِ، بحيث لا يحتاجُ سامعُه إلى زيادةِ تِبيانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: الفصلُ في القضاءِ والخصوماتِ بيْن النَّاسِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، واختار العمومَ في المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال شُرَيحٌ القاضي والشَّعبيُّ: فَصْلُ الخِطابِ: الشُّهودُ والأَيْمانُ. وقال قَتادةُ: شاهِدانِ على المُدَّعِي، أو يمينُ المُدَّعَى عليه، هو فَصْلُ الخِطابِ الَّذي فَصَل به الأنبياءُ والرُّسُلُ -أو قال: المؤمِنونَ والصَّالحونَ- وهو قضاءُ هذه الأمَّةِ إلى يوم القيامةِ. وكذا قال أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ. وقال مجاهِدٌ والسُّدِّيُّ: هو إصابةُ القَضاءِ وفَهْمُه. وقال مجاهِدٌ أيضًا: هو الفَصلُ في الكلامِ وفي الحُكمِ. وهذا يَشملُ هذا كُلَّه، وهو المرادُ، واختاره ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩).

وقال ابنُ جرير: (الصَّوابُ أن يُعَمَّ الخبَرُ كما عَمَّه اللهُ، فيُقالَ: أُوتيَ داودُ فَصْلَ الخِطابِ في القَضاءِ والمحاورةِ والخُطَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢).

وقال ابن كثير: (وهذا لا ينافي ما رُويَ عن أبي موسى، أنَّه قولُ: أمَّا بَعْدُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (هل المعنى أنَّه يَفصِلُ الخِطابَ الصَّادِرَ من غَيرِه، بمعنى: أنَّه يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ ما تخاطَبوا فيه... أو فَصْلُ الخِطابِ يعني خِطابَه هو... كان فَصلًا، أي: ذا بيانٍ وفَصاحةٍ؟ نقولُ: المَعْنَيانِ مُحتمَلانِ؛ فالآيةُ تحتمِلُ هذا وتحتمِلُ هذا، وهما لا يَتنافَيانِ؛ فيَجِبُ أن تكونَ الآيةُ محمولةً عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَمدَحُ ويُحِبُّ القُوَّةَ في طاعتِه؛ قُوَّةَ القَلبِ والبَدَنِ؛ فإنَّه يَحصُلُ منها مِن آثارِ الطَّاعةِ وحُسنِها وكَثرتِها ما لا يَحصُلُ مع الوَهَنِ وعَدَمِ القُوَّةِ، وأنَّ العبدَ يَنبغي له تعاطي أسبابِها، وعدَمُ الرُّكونِ إلى الكَسَلِ والبَطالةِ المُخِلَّةِ بالقُوَى، المُضعِفةِ للنَّفْسِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فيه أنَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى في جميعِ الأُمورِ: مِن أوصافِ أنبياءِ اللهِ وخواصِّ خَلْقِه، كما أثنى اللهُ على داودَ وسُلَيمانَ بذلك؛ فلْيَقتَدِ بهما المُقتَدونَ، ولْيَهتَدِ بهُداهم السَّالِكونَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[2] [الأنعام: ٩٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتأثَّرُ بتَكذيبِهم؛ ولهذا أمَرَه اللهُ بالصَّبرِ، وهذا أمرٌ لا شَكَّ فيه[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -على جَلالةِ قَدْرِه- بأن يَقتديَ في الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ بداودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك تَشريفٌ عَظيمٌ، وإكرامٌ لِداودَ عليه السَّلامُ؛ حيث أمَرَ اللهُ أفضَلَ الخَلقِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقتديَ به في مَكارِمِ الأخلاقِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٤).

٣- إنْ قيل: ما المناسبةُ بينَ أمرِ الله لنبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصبرِ على أقوالِ الكفَّارِ وبينَ أمرِه له بذكرِ داودَ؟

فالجوابُ: أنَّ ذكرَ داودَ ومَن بعدَه مِن الأنبياءِ في هذه السورةِ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووعدٌ له بالنَّصرِ وتفريجِ الكربِ، وإعانةٌ له على ما أُمِر به مِن الصبرِ، وذلك أنَّ الله ذكَر ما أنعَم به على داودَ مِن تسخيرِ الطيرِ والجبالِ، وشدةِ مُلكِه، وإعطائِه الحكمةَ وفصلَ الخطابِ، ثمَّ الخاتمةَ له في الآخرةِ بالزلفَى وحسنِ المآبِ، فكأنَّه يقولُ: يا محمدُ كما أنعَمْنا على داودَ بهذه النِّعمِ كذلك نُنعِمُ عليك، فاصبِرْ ولا تحزَنْ على ما يقولونَ، ثمَّ ذكَر ما أعطَى سليمانَ مِن الملكِ العظيمِ، وتسخيرِ الريحِ والجنِّ والخاتمةِ بالزلفَى وحُسنِ المآبِ، ثمَّ ذكَر مَن ذكَر بعدَ ذلك مِن الأنبياءِ.

والمقصدُ: ذِكرُ الإنعامِ عليهم لتقويةِ قلبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأيضًا فإنَّ داودَ وسليمانَ وأيوبَ أصابتهم شدائدُ ثمَّ فرَّجها الله عنهم، وأعقَبها بالخيرِ العظيمِ، فأمَر نبيَّنا محمدا صلَّى الله عليه وسلَّم بذكرِهم، ليُعلِمَه أنَّه يُفرِّجُ عنه ما يلقَى من إذايةِ قومِه، ويعقبُها بالنصرِ والظهورِ عليهم، فالمناسبةُ في ذلك ظاهرةٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ لأنَّ الجُملةَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليليَّةٌ، فداودُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَوصوفٌ بالقُوَّةِ والعُبوديَّةِ؛ وذلك لأنَّه رَجَّاعٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ مَن كان رَجَّاعًا إلى اللهِ فسوف يكونُ قويًّا في عُبوديَّتِه[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ استُدِلَّ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٧).

على مَشروعيَّةِ صَلاةِ الضُّحى[١]، مع الأحاديثِ المشهورةِ الثَّابتةِ في ذلك.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ﴾ أنَّ للجَمادِ إرادةً؛ لأنَّ التَّسبيحَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بإرادةٍ، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢] [الإسراء: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُنطِقُ الجَمادَ بأصواتٍ يَفهَمُها مَن يَفهَمُها مِن الآدَميِّينَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ فيه أنَّ مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه: أن يَرزُقَه العِلمَ النَّافِعَ، ويَعرِفَ الحُكمَ والفَصلَ بيْنَ النَّاسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى الآيةِ-، كما امتَنَّ اللهُ به على عَبدِه داودَ عليه السَّلامُ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أُعقِبتْ حِكايةُ أقوالِ مُشْركي قُرَيشٍ مِنَ التَّكذيبِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] إلى هنا، بأمْرِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على أقوالِهم؛ إذْ كان جميعُها أذًى: إمَّا صريحًا، كما قالوا: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧]، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وإمَّا ضِمنًا، وذلك ما في سائرِ أقوالِهم مِن إنكارِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

عليه وسلَّمَ، والاستِهزاءِ بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] مِن إثباتِ أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ويَشملُ ما يَقولونَه ممَّا لم يُحْكَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ[١].

- قَولُه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بأنْ أُتْبِعَ أمْرُه بالصَّبرِ بالأمرِ بالائتساءِ ببعضِ الأنبياءِ السَّابِقينَ فيما لَقُوهُ مِنَ النَّاسِ، ثمَّ كانتْ لهم عاقِبةُ النَّصرِ، وكَشفِ الكُرَبِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عطفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغَرَضُ هوَ هو[٢].

- وابتُدِئَ بذِكرِ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ اللهَ أَعطاهُ مُلْكًا وسُلطانًا لم يكُنْ لآبائِه؛ ففي ذِكرِه إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَصيرُ إلى العِزَّةِ والسُّلطانِ، ولم يكُنْ له سلَفٌ ولا جُندٌ؛ فقد كان حالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشْبَهَ بحالِ داودَ عليه السَّلامُ[٣].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أُدمِجَ في خِلالِ قصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِنَ الضَّجَرِ في ذاتِ اللهِ تعالى، واتِّقاءِ مُراعاةِ حُظوظِ النَّفْسِ في سِياسةِ الأُمَّةِ؛ إبعادًا لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَهاوي الخطأِ والزَّلَلِ، وتأديبًا له في أوَّلِ أمْرِه وآخِرِه[٤].

- ووصْفُ داودَ عليه السَّلامُ بقَولِه: ﴿عَبْدَنَا﴾ وَصْفُ تَشريفٍ بالإضافةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٦، ٢٢٧).

بقَرينةِ المَقامِ[(١)].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى مَرضاةِ اللهِ تعالى، وهو تَعليلٌ لكَونِه ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾، ودليلٌ على أنَّ المُرادَ به القوَّةُ في الدِّينِ؛ فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يَصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، ويَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وكَونُه تعليلًا لهذا المعنى لأنَّ ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ في الجِسمِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وأنْ يَكونَ في الدِّينِ، فلمَّا جيءَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أعلَمَ أنَّ المُرادَ القوَّةُ في الدِّينِ[(٢)]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليلٌ للأمرِ بذِكرِه؛ إيماءً إلى أنَّ الأمرَ لقَصدِ الاقتِداءِ به، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وجُملةِ بيانِها، وهي: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ قوَّتِه في الدِّينِ وأوَّابيَّتِه إلى مَرضاتِه تعالى. و(مع) مُتعلِّقةٌ بالتَّسخيرِ، وإيثارُها هنا على اللَّامِ؛ لِما أُشيرَ إليه في سُورةِ (الأنبياءِ) مِن أنَّ تسخيرَ الجِبالِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ بطريقِ تَفويضِ التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيها إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كتَسخيرِ الرِّيحِ وغَيرِها لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، بل بطريقِ التَّبَعيَّةِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والاقتِداءِ به في عِبادةِ اللهِ تعالى؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقيل: إنَّ (مع) مُتعلِّقةٌ بما بعْدَها، وهو أقرَبُ بالنِّسبةِ إلى ما في سورةِ (الأنبياءِ)[١]، فهي ظَرفٌ لـ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، وقُدِّم على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمام بمَعِيَّتِه المَذكورةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾، أي: اذكُرْ فَضائلَه وما أنعَمْنا عليه من تَسخيرِ الجِبالِ وكَيْتَ وكَيْتَ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ حالٌ، واختيرَ الفِعلُ المُضارعُ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ دُونَ الوَصفِ (مُسَبِّحاتٍ) الَّذي هو الشَّأنُ في الحالِ؛ لأنَّه أُريدَ الدَّلالةُ على تَجدُّدِ تَسبيحِ الجِبالِ معه كلَّما حضَرَ فيها، ولِما في المُضارِعِ مِن استِحضارِ تلك الحالةِ الخارِقةِ للعادةِ مِن حُدوثِ التَّسبيحِ مِنَ الجِبالِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، وحالًا بعْدَ حالٍ، وكأنَّ السَّامِعَ حاضِرٌ تلك الجِبالَ يَسمَعُها تُسَبِّحُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ المَحشورةُ: المُجتمعةُ حَوْلَه عِندَ قِراءتِه الزَّبورَ، ولم يُؤْتَ في صِفةِ الطَّيرِ بالحَشرِ بالمُضارِعِ كما جيءَ به في ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾؛ إذِ الحَشرُ يَكونَ دَفْعةً، فلا يَقتَضي المَقامُ دَلالةً على تَجدُّدٍ ولا على استِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٢).

الصُّورةِ؛ فجيءَ به اسمًا لا فِعلًا، وذلك أبلَغُ مِن أن يُقالَ: وسَخَّرْنا الطَّيرَ يُحشَرْنَ- على أنَّ الحَشرَ يوجَدُ مِن حاشِرِها شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، والحاشِرُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ حَشْرَها جُملةً واحدةً أدَلُّ على القُدرةِ منه مُدرجًا[١].

- قَولُه: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُصرِّحٌ بما فُهِم منه إجمالًا مِن تَسبيحِ الطَّيرِ، أي: كُلُّ واحدٍ مِنَ الجبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِه رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، وذلك على قولٍ[٢]، وتَنوينُ ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ لامُ التَّقويةِ. وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالضَّميرِ المجرورِ[٤].

- وجَعَل الخَبَرَ ﴿أَوَّابٌ﴾ مُفرَدًا؛ قيل: إشارةً إلى شِدَّةِ زَجَلِها بالتَّأويبِ وعَظَمَتِه، والإفرادُ أيضًا يُفيدُ الحُكمَ على كُلِّ فردٍ، ولو جَمَع لَطَرَقه احتِمالُ أنَّ الحُكمَ على المَجموعِ يُقَيِّدُ الجَمْعَ. و ﴿أَوَّابٌ﴾ هذا غيرُ ﴿أَوَّابٌ﴾ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]؛ فلمْ تَتكرَّرِ الفاصِلةُ، والفَرقُ بَيْنَه وبيْنَ ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على المُوافَقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المُداوَمةِ عليها، أو: كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرَجِّعٌ للهِ التَّسبيحَ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

- وفي قَولِه: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ وُضِعَ الأوَّابُ مَوضِعَ المُسَبِّحِ: إمَّا لأنَّها كانت تُرجِّعُ التَّسبيحَ، والمُرجِّعُ رجَّاعٌ؛ لأنَّه يَرجِعُ إلى فِعلِه رُجوعًا بعْدَ رُجوعٍ، وإمَّا لأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ وطَلَبِ مَرْضاتِه- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه وتَقديسَه، فأصلُ الكَلامِ: كلٌّ مِنَ الجِبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِ داودَ مُسَبِّحٌ، فقيل: ﴿أَوَّابٞ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُرَجِّعٍ للتَّسبيحِ راجِعٌ إليه، كما أنَّ كلَّ مُكذِّبٍ للحقِّ كاذِبٌ، وإنَّما عدَلَ منه إلى الأوَّابِ لنُكتةٍ؛ وهي: إمَّا أنْ يَكونَ كِنايةً عن التَّرجيعِ في التَّسبيحِ مِنَ (الأَوْب): الرُّجوعِ، أو عن كَثرةِ التَّسبيحِ؛ لأنَّ الأوَّابَ -أي: التَّوَّابَ- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ التَّسبيحَ، ولو تُرِكَ على ظاهِرِه لم يُعلَمْ ذلك، ولو قيل: كلٌّ له كالأوَّابِ -أي: التَّوَّابِ، على التَّشبيهِ- لم يُفهَمْ منه المَقصودُ صريحًا[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾

- قَولُه: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾ أي: قَوَّيْناهُ بالهَيبةِ والنُّصرةِ وكَثرةِ الجُنودِ، وهي عِبارةٌ شامِلةٌ لِما وهَبَه اللهُ تعالى مِن قوَّةٍ وجُندٍ ونِعمةٍ. والشَّدُّ: الإمساكُ وتَمكُّنُ اليَدِ ممَّا تُمسكُه؛ فيَكونُ لقَصدِ النَّفعِ كما هنا، ويَكونُ لقَصدِ الضُّرِّ كقَولِه: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [يونس: ٨٨]، فشَدُّ المُلكِ هو تَقويةُ مُلكِه، وسَلامتُه مِن أضرارِ ثَورةٍ لَديه، ومِن غَلَبةِ أعدائِه عليه في حُروبِه[2].

- ووصْفُ القَولِ بـ(الفَصلِ) وَصْفٌ بالمَصدرِ، أي: فاصِلٌ، والفاصِلُ: الفارِقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

بيْن شَيئَين، وهو ضِدُّ الواصلِ، والمعنَى: أنَّ داودَ عليه السَّلامُ أُوتيَ مِن أَصالةِ الرَّأيِ وفَصاحةِ القَولِ ما إذا تَكلَّمَ جاء بكَلامٍ فاصِلٍ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، شأنُ كَلامِ الأنبياءِ والحُكَماءِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

الآيات (٢١-٢٦)

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا
لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ
(٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نَبَأُ﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ عَظيمٌ يَحصُلُ به عِلمٌ، وأصلُ (نبأ): يدُلُّ على الإتيانِ من مكانٍ إلى مكانٍ، والخَبَرُ يأتي مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ[١].

﴿الْخَصْمِ﴾: أي: المُتخاصِمَين والمُتنازِعَين، ويَقَعُ على الواحِدِ والاثنَينِ والجَماعةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[٢].

﴿تَسَوَّرُوا﴾: أي: صَعِدوا وتَسَلَّقوا، يُقالُ: تَسَوَّرتُ الحائِطَ والسُّورَ: إذا عَلَوْتَه، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) =

﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾: المِحرابُ: مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ ومُصَلًّى وأشرَفُه، ويُطلقُ على المَسجِدِ، وموضعِ العبادةِ، والغُرفةِ، والموضعِ العالي الشَّريفِ[١].

﴿بَغَىٰ﴾: أي: طغَى، وتعدَّى، والبَغْيُ: الظُّلْمُ، وأيضًا قَصْدُ الفسادِ، وأصلُ البغيِ: تَجاوُزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ، أي: تَجاوَزَ الحدَّ في فسادِه[٢].

﴿تُشۡطِطۡ﴾: أي: تَجُرْ وتُسرِفْ وتَتجاوَزْ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ المُستقيمِ ووسَطَه، والصِّراطُ: الطَّريقُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئَينِ[٤].

﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: أي: انزِلْ عنها لي، واجعَلْني كافِلَها، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على

= للكفوي (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(١٤/ ٣٣٦) و(٢٠/ ٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٦/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

وقال ابن جني: (﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾، أي: ولا تُبعِدْ، وهو مِن الشَّطِّ، وهو الجانبُ، فمعناه أخذُ جانبِ الشيءِ، وتركُ وسطِه وأقربِه). ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)) (٢/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

تَضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿وَعَزَّنِي﴾: أي: غلَبَني وقهَرَني، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[٢].

﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾: أي: الشُّرَكاءِ، وأصلُ (خلط): يدُلُّ على الجَمعِ[٣].

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: أي: ألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خرر): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ، و﴿رَاكِعًا﴾: أي: ساجدًا، عبَّر بالرُّكوعِ عنه؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ منهما نوعٌ مِنَ الانحناءِ، وأصلُ (ركع): يدُلُّ على انحناءٍ في الإنسانِ وغيرِه[٤].

﴿وَأَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٢٣) و(٣/ ٥٤) و(٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩، ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

﴿زُلْفَى﴾: أي: قُرْبةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿مَـَٔابٍ﴾: أي: مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نَبَأُ المُتخاصِمَين حينَ تسَلَّقا على داودَ مِحْرابَه، حينَ دخَلوا عليه فجأةً ففَزِعَ منهم! قالوا له: لا تخَفْ، نحن خَصْمانِ بَغى بَعضُنا على بَعضٍ؛ فاحكُمْ بَيْنَنا بالحُكمِ الحَقِّ، ولا تَتجاوَزْه إلى غَيرِه، وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ.

قال أحَدُ الخَصْمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً، وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: مَلِّكْني إيَّاها بحيثُ تكونُ تحتَ كَفالَتي، وغَلَبَني في المُحاجَّةِ والمُخاطَبةِ! قال داودُ لِلمُتظَلِّم منهما: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه ضَمَّ نَعجتِك إلى نعاجِه الكثيرةِ، وإنَّ كثيرًا مِن الشُّرَكاءِ لَيَعتدي بعضُهم على بَعضٍ، ويَطمَعُ بَعضُهم في مالِ الآخَرِ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ؛ فإنَّهم لا يَقعونَ في ذلك، وقليلٌ أولئك.

وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْنَ الخَصمَينِ أنَّما اختبَرْناه، فطَلَب مِن رَبِّه مَغفِرةَ ذَنْبِه، وألقَى بنفْسِه إلى الأرض ساجدًا، ورجَعَ إلى رَبِّه، فغفَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وإنَّ له عِندَنا مَنزِلةً عاليةً وحُسنَ مُنقَلَبٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

ثمَّ يقولُ تعالى موجِّهًا نبيَّه داودَ عليه السَّلامُ ووُلاةَ الأمورِ: يا داودُ إنَّا جعَلْناك خَليفةً في الأرضِ؛ فاحكُمْ بيْنَ النَّاسِ بالعَدلِ، ولا تتَّبِعْ هوى نَفْسِك فيُضِلَّك عن طريقِ الحَقِّ، إنَّ الَّذين يَميلونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ بما أثنَى؛ ذكَرَ قِصَّتَه هذه؛ لِيُعلَمَ أنَّ مِثلَ قِصَّتِه لا يَقدَحُ في الثَّناءِ عليه، والتَّعظيمِ لِقَدْرِه، وإن تضَمَّنَت استِغفارَه ربَّه[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه آتى نَبيَّه داودَ الفَصلَ في الخِطابِ بيْنَ النَّاسِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وكان مَعروفًا بذلك مَقصودًا؛ ذكَرَ تعالى نبَأَ خَصمَينِ اختَصَما عِندَه في قَضيَّةٍ، جعَلَهما اللهُ فِتنةً لداودَ عليه السَّلامُ، ومَوعِظةً لخَلَلٍ ارتكَبَه، فتاب اللهُ عليه، وغفَرَ له[(٢)].

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾.

أي: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نبأُ المتخاصِمَينِ في قَضيَّةٍ، وخبَرُهما العَجيبُ مع داودَ[(٣)]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧-٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٧، ٩٨).

﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾.

أي: حينَ تَسلَّقَ[1] المُتخاصِمانَ المِحْرابَ[2].

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾.

---

(١) قال القرطبي: (ومعنَى: ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أتَوْه مِن أعلى سُورِه. يُقالُ: تَسوَّرَ الحائطَ: تَسلَّقَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ يقولُ: دخَلوا عليه مِن غيرِ بابِ المحرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

والمِحرابُ: قيل: هو مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ وبيتٍ وأشرَفُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٢١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٦).

وقيل: المحرابُ هنا: الغُرفةُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلَّامٍ -نسَبَه إليه الماوَرْديُّ-، وقال الواحديُّ: (المِحرابُ كالغُرفةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦).

قال ابن عطيَّة: (المحراب: الموضعُ الأرْفَعُ مِن القَصرِ أو المسجدِ، وهو مَوضِعُ التَّعبُّدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المحرابَ محلُّ العبادةِ: السعدي، ونصَّ ابنُ أبي زَمَنِين على أنَّه المسجدُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٥).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّه المسجدُ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٦١).

قال الرَّازي: (وأمَّا المحرابُ فالمرادُ منه البيتُ الَّذي كان داودُ يَدخُلُ فيه ويَشتَغِلُ بطاعةِ رَبِّه، وسُمِّيَ ذلك البَيتُ بالمحرابِ؛ لاشتِمالِه على المحرابِ، كما يُسمَّى الشَّيءُ بأشرَفِ أجزائِه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: حينَ دَخَلوا على داودَ بَغتةً فذُعِرَ وخافَ منهم[١].

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾.

أي: قالوا لِداودَ لَمَّا رأَوْا فَزَعَه مِن دُخولِهم عليه: لا تخَفْ؛ نحن خَصْمانِ[٢]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ والسَّببُ أنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا رآهما قد دَخَلوا عليه لا مِن الطَّريقِ المعتادِ، عَلِم أنَّهم إنَّما دَخَلوا عليه للشَّرِّ، فلا جَرَمَ فزِع منهم). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢).

وقال البِقاعي: (كان على وَجهٍ يَهُولُ أمرُه؛ إمَّا لِكَونِه في موضِعٍ لا يَقدِرُ عليه أحدٌ، أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) ذكَر الله تعالى هنا أنَّهما خَصْمانِ، وقال في أوَّلِ القصة: ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ وهو اسمٌ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، أمَّا قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ بالجَمْعِ؛ فلأنَّ الجمْعَ يَتناوَلُ الاثنينِ فصاعِدًا، فمعنى الجَمعِ في الاثنينِ مَوجودٌ؛ لأنَّ معنى الجَمعِ ضَمُّ شَيءٍ إلى شَيءٍ، أو: جمَع؛ لأنَّه جاء مع كلٍّ مِنهما فِرقةٌ، كالعاضِدةِ والمُؤنِسة، أو يكون معنَى خَصْمانِ: فريقانِ، فيكونُ ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ عائِدًا على الخَصمِ الَّذي هو جمعُ الفريقَين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

وقد اختُلِف: هلِ الخَصْمانِ كانا مِن الملائكةِ أم مِن بني آدَمَ؟

ممَّن اختار أنَّهما كانا مِن الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي، وممَّن نقَل اتِّفاقَ المفسِّرينَ وعدَمَ اختلافِهم في ذلك: النَّحَّاسُ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والثعالبي، ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣١). =

تَعدَّى أحَدُنا على صاحبِه، وتجاوَزَ حُدودَه بغَيرِ حَقٍّ[1].

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾.

أي: فاقْضِ بيْنَنا بالعَدلِ، ولا تَجُرْ في القَضاءِ فتَتجاوَزَ الحَدَّ[2].

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

أي: ودُلَّنا وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ بيْنَنا إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ الَّذي لا الْتِباسَ فيه ولا إفراطَ ولا تَفريطَ[3].

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾.

= قال القرطبي: (وعَيَّنهما جماعةٌ فقالوا: إنَّهما جبريلُ وميكائيلُ. وقيل: مَلَكينِ في صورةِ إنسِيَّيْنِ بَعَثَهما اللهُ إليه في يومِ عِبادتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الخَصمينِ كانا مِن بني آدمَ، وأنَّ اختِصامَهم كان على الحقيقةِ لا التَّمثيلِ، وأنَّ الآيةَ على ظاهِرِها: النَّقَّاشُ -كما في ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦)- وابنُ حزمٍ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره السُّبْكيُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١)، ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠١).

قال ابن حزم: (وإنَّما كان ذلك الخَصمُ قومًا من بني آدمَ بلا شكٍّ مُختصِمينَ فِي نِعاجٍ مِن الغَنَمِ على الحقيقةِ بيْنَهم، بغَى أحَدُهما على الآخَرِ على نصِّ الآيةِ). ((الفصل في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤، ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

قال البقاعي: (﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾: أي: طلَب طلبةَ علوٍ واستطالةٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٢، ١٠٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أخبَروا عن وُقوعِ الخُصومةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أردَفوه ببَيانِ سَبَبِ تلك الخُصومةِ على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال[١]:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾.

أي: قال أحَدُ الخَصمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿أَخِى﴾ أُخوَّةُ الدِّينِ، أو أُخوَّةُ النَّسَبِ، أو أخوَّةُ الصَّداقةِ والأُلْفةِ، أو أخوَّةُ الشركةِ والخُلطةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

واختُلِف في المرادِ بالنَّعجةِ على قولَينِ؛ فقيل: المرادُ: أُنثَى الضَّأنِ. وقيل: المرادُ بها الكنايةُ عن المرأةِ.

ممَّن ذهب إلى إبقاءِ لَفظِ النَّعجةِ على حقيقتِها مِن كَونِها أنثى الضَّأنِ، وأنها ليست كنايةً عن المرأةِ: ابنُ حزم، وأبو حيَّان، والنيسابوري، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٤).

وقد ذهب كثيرٌ من المفسِّرينَ، ومنهم ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي: إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ: المرأةُ، وأنَّ ذِكرَ النَّعجةِ مثَلٌ ضَرَبه الخَصمُ لداودَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الأزهري: (والعربُ تَكْني بالنَّعجةِ والشَّاةِ عن المرأةِ). ((تهذيب اللغة)) (١/ ٢٤٥).

ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ٢٢٥) و(٢/ ١٧٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٧).

وقال القرطبي: (العربُ تَكْني عن المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ؛ لما هي عليه مِن السُّكونِ والمَعْجَزةِ =

﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾.

أي: وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: أعطِنيها وضُمَّها إلَيَّ؛ فتَكونَ تحتَ يدي[1].

= وضَعفِ الجانبِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٢).

وأيضًا لِما بيْنَهما مِن الملائمةِ في الرَّحمةِ وكثرةِ التَّآلُفِ. يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة (١/ ٢١٥).

قال البغوي: (قال الحُسَينُ بنُ الفضلِ: هذا تَعريضٌ للتَّنبيهِ والتَّفهيمِ؛ لأنَّه لم يكُنْ هناك نِعاجٌ ولا بَغْيٌ، فهو كقولِهم: ضرَب زَيدٌ عَمرًا، أو اشترى بَكْرٌ دارًا، ولا ضربٌ هنالك ولا شِراءٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠).

وقال ابنُ القيِّم: (تخريجُ هذا الكلامِ على المعاريضِ لا يَكادُ يَتأتَّى، وإنَّما وَجْهُه أنَّه كلامٌ خرَج على ضربِ المثالِ: أي: إذا كان كذلك فكيف الحُكمُ بيْنَنا؟ ونظيرُ هذا قَولُ المَلَكِ للثَّلاثةِ الَّذين أراد اللهُ أن يَبتليَهم: «مسكينٌ وغريبٌ وعابرُ سبيلٍ، وقد تقَطَّعَت بيَ الحِبالُ، ولا بلاغَ لي اليومَ إلَّا باللهِ ثمَّ بك، فأسألُك بالَّذي أعطاك هذا المالَ بعيرًا أتَبَلَّغُ به في سفري هذا» [البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤)]، وهذا ليس بتعريضٍ، وإنَّما هو تصريحٌ على وَجهِ ضَربِ المثالِ، وإيهامِ أنِّي أنا صاحِبُ هذه القضيَّةِ، كما أَوْهَمَ المَلَكانِ داودَ أنَّهما صاحِبا القِصَّةِ؛ لِيَتِمَّ الامتحانُ). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٦٩).

وقال ابنُ عاشور: (ليس في قَولِ الخَصمَين: ﴿هَٰذَآ أَخِى﴾ ولا في فَرضِهما الخُصومةَ الَّتي هي غيرُ واقِعةٍ: ارتكابُ الكَذِبِ؛ لأنَّ هذا مِن الأخبارِ المخالِفةِ للواقِعِ الَّتي لا يُريدُ المُخبِرُ بها أن يَظُنَّ المُخبَرُ -بالفتحِ- وُقوعَها إلَّا رَيْثَما يَحصُلُ الغَرَضُ مِن العِبرةِ بها، ثمَّ يَنكَشِفُ له باطِنُها فيَعلَمُ أنَّها لم تَقَعْ، وما يجري في خِلالِها مِن الأوصافِ والنِّسَبِ غيرِ الواقِعةِ فإنَّما هو على سبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ، وعلى نيَّةِ المُشابَهةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((التفسير المنير)) للزحيلي (٢٣/ ١٨٦).

ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ -ومنهم ابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني- إلى أنَّ المرادَ: وليَ امرأةٌ واحِدةٌ، فقال لي أخي: انزِلْ لي عنها وضُمَّها إلَيَّ حتَّى أكفُلَها وأصيرَ زَوجًا لها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾.

أي: غلَبَني وقَهَرني في خِطابِه معي؛ لِيَأخُذَ مِنِّي نعجتي الوحيدةَ[١]!

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ (٢٤)﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾.

أي: قال داودُ للخَصمِ المتظَلِّمِ مِن صاحِبِه: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه أخْذَ نَعجتِك الوحيدةِ؛ لِيَضُمَّها إلى نِعاجِه الكثيرةِ[٢].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).
قال النيسابوري: (ليس السُّؤالُ هاهنا سؤالَ خُضوعٍ وتفضُّلٍ، وإنَّما هو سؤالُ مُطالَبةٍ ومُعازَّةٍ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩).
وقال ابن عاشور: (﴿وَعَزَّنِي﴾ غَلَبني في مُخاطَبتِه، أي: أظهَر في الكلامِ عِزَّةً علَيَّ وتطاوُلًا... والمعنى: أنَّه سأله أن يعطيَه نعجتَه، ولَمَّا رأى منه تمنُّعًا اشتدَّ عليه بالكلامِ وهَدَّده). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥، ٢٣٦).
وقد ذهب ابنُ جرير وغيرُه -كما تقدَّم- إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ في هذه القِصَّةِ المرأةُ، أي: لقد ظلَمَك أخوك بسؤالِه امرأتَك الواحِدةَ إلى التِّسعِ والتِّسعينَ مِن نسائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢).
قال الواحدي: (أي: إن كان الأمرُ على ما تقولُ فقد ظلَمَك أخوك بما كلَّفَك مِن تَحَوُّلِك عن امرأتِك؛ لِيَتزَوَّجَها هو). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤٧).

أي: وإنَّ عادةَ كثيرٍ مِن الشُّرَكاءِ أن يَتعدَّى بعضُهم على بعضٍ، ويَظلِمَ بعضُهم بعضًا(١).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا منهم بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فإنَّه لا يقَعُ منهم بَغْيٌ على شُرَكائِهم، وقَليلٌ هم أولئك(٢).

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخُلَطاءِ الشُّرَكاءُ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ١٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ يعني: الشُّرَكاءَ، واحدُهم: خليطٌ، وهو المُخالِطُ في المالِ، وإنَّما قال هذا؛ لأنَّه ظنَّهما شريكَين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٨).

وقال ابن جُزَي: (الخلطاءُ هم الشُّرَكاءُ في الأموالِ، ولكنِ الخُلْطةُ أعَمُّ مِن الشَّركةِ، ألَا ترى أنَّ الخُلطةَ في المواشي ليست بشركةٍ في رقابِها؟ وقصَد داودُ بهذا الكلامِ الوعظَ للخَصمِ الَّذي بغَى، والتَّسليةَ بالتَّأسِّي للخَصمِ الَّذي بُغِيَ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩).

وقيل: ﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾: أي: الأصحابِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

أي: وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْن الخَصمَين أنَّما ابتَلَيْناه[١].

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾.

أي: فطلَبَ مِن رَبِّه أن يَغفِرَ له ذَنْبَه؛ سَترًا له، وتَجاوُزًا عن مؤاخَذتِه به[٢]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال البيضاوي: (﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: ابتَلَيْناه بالذَّنْبِ، أو امتَحَنَّاه بتلك الحُكومةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧).

(٢) قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْنَ أهلِ التَّأويلِ أنَّهم إنَّما كانوا ملائكةً بَعَثَهم اللهُ ضَرْبَ مَثَلٍ لداودَ عليه السَّلامُ، فاختَصَموا إليه في نازلةٍ قد وقع هو في نحوِها، فأفتى بفُتيا هي واقِعةٌ عليه في نازلتِه، ولَمَّا شَعَر وفَهِم المرادَ، خَرَّ وأناب واستغفَرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

قال الثعالبي: (وأمَّا نازِلَتُه الَّتي وَقَع فيها، ففيها للقُصَّاصِ تطويلٌ، فلم نَرَ سوقَ جميعِ ذلك؛ لعدَمِ صِحَّتِه). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذكَر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ مِن السَّلفِ والخلَفِ هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرُها إسرائيليَّاتٌ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالةَ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

وقال القاضي عياضٌ: (وأمَّا قصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ فلا يجبُ أن يُلتفَتَ إلى ما سطره فيه الأَخْباريُّون عن أهلِ الكتابِ الَّذين بدَّلوا وغيَّروا ونقَلَه بعضُ المفسِّرينَ، ولم يَنُصَّ اللهُ على شَيءٍ مِن ذلك، ولا ورد في حديثٍ صحيحٍ). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (٢/ ١٦٣). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٢- ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٧).

وذكر السبكي أنَّ المغفورَ في الآيةِ أحدُ ثلاثةِ أمورٍ: (إمَّا ظَنُّه، وإمَّا اشتغالُه بالحُكم عن العبادةِ، وإمَّا اشتغالُه بالعبادةِ عن الحكمِ، كما أشعَر به قولُه: ﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾). ((القول المحمود)) (ص: ١٧).

وقيل: ظَنَّ دَاوُد عليه السَّلام أن يكونَ ما آتاهُ الله عزَّ وجل مِن سَعَةِ المُلك العظيمِ فِتْنةً، فاستغفَرَ اللهَ تعالى مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له؛ إذْ لم يكُنْ ما آتاه الله تعالى مِن ذلك فتنةً. واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٥). =

وألقَى بنَفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا[1]، ورجَعَ إلى ربِّه وإلى رِضوانِه مِن خَطيئتِه

= وقيل: إنَّه فَزِع منهم ظانًّا أنَّهم يَغتالونَه، فلمَّا اتَّضَح له أنَّهم جاؤُوا في حُكومةٍ، ولم يقَعْ ما كان ظنَّه؛ استغفَر اللهَ مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١).

وقيل: إنَّ تلك الزَّلَّةَ إنَّما حَصَلت لأنَّه قضَى لأحدِ الخَصمَينِ قبْلَ أنْ يَسمَعَ كلامَ الخصمِ الثَّانِي. واختاره الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١). وردَّه ابنُ العربي والسعديُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧).

قال النحاس: (﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ فيقالُ: إنَّ هذه خطيَّةُ داودَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، مِن غيرِ تثبيتِ بَيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ، ولا سؤالٍ لِخَصْمِه هل كان هذا كذا أمْ لم يَكُنْ؟ هذا قولٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣٠٩).

وقال القرطبيُّ بعدَ ذِكرِ كلامِ النَّحَّاسِ: (وهو حسَنٌ إن شاء الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ اللهَ اختبَره بهذه الخصومةِ؛ وذلك لدخولِه المِحرابَ وإغلاقِه البابَ عليه، مُخالفًا مقتضَى وظيفتِه، وما أُمِر به مِن الحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وأيضًا لحُكمِه بعدَ سماعِه مِن أحدِ الخَصمينِ دونَ الثَّاني، وليس في القرآنِ أنَّه سمِع جوابَ الثَّاني. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١١، ١١٢).

قال السعدي: (وهذا الذَّنْبُ الَّذي صَدَرَ مِن داودَ عليه السَّلامُ لم يَذكُرْه اللهُ؛ لعَدَمِ الحاجةِ إلى ذِكْرِه، فالتَّعَرُّضُ له مِن بابِ التَّكَلُّفِ، وإنَّما الفائدةُ ما قَصَّه اللهُ علينا مِن لُطفِه به وتَوبتِه وإنابتِه، وأنَّه ارتفَعَ مَحَلُّه؛ فكان بعدَ التَّوبةِ أحسَنَ منه قَبْلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(١) نفى ابنُ العربيِّ وجودَ خِلافٍ بيْن العُلماءِ في أنَّ المرادَ بالرُّكوعِ هنا: السُّجودُ. وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ العُلَماءِ عليه. واعترض ابنُ عاشورٍ بأنَّ الخلافَ موجودٌ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٧)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّةَ (١/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقيل: ذُكِر الرُّكوعُ مع أنَّ المرادَ به السُّجودُ؛ لأنَّه سجَد بعدَ أن كان راكعًا، أي: فخُرورُه كان مِن رُكوعٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

قال ابن تيميَّةَ: (وقد ثبَتَ بالنَّصِّ الصَّحيحِ واتِّفاقِ النَّاسِ أنَّ داودَ سجَد... والآثارُ عن السَّلفِ متواترةٌ بأنَّ داودَ سجَد، فكُلُّ ساجدٍ راكعٌ، وليس كلُّ راكِعٍ ساجدًا؛ فإنَّه إذا سجَد مِن قيامٍ انحنى انحناءَ الرَّاكعِ وزاد فإنَّه يَصيرُ ساجدًا، ولو صلَّى قاعدًا أيضًا انحنَى انحناءَ الرُّكوعِ وزاد فإنَّه =

تائِبًا[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبَرِ ﴿صٓ﴾، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ نَزَل فسَجَد، وسَجَد النَّاسُ معه، فلمَّا كان يومٌ آخَرُ قَرَأها، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ تَشَزَّنَ[٢] النَّاسُ للسُّجودِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما هي تَوبةُ نَبيٍّ، ولَكِنِّي رأيْتُكم تَشَزَّنْتُم للسُّجودِ، فنَزَل فسَجَد وسَجَدوا))[٣].

= يصيرُ ساجِدًا؛ فالسَّاجدُ راكِعٌ وزيادةٌ؛ فلهذا جازَ أن يُسمَّى راكِعًا... ومِن النَّاسِ مَن قالَ في قصَّةِ داودَ: إنَّه خَرَّ ساجِدًا بعدَ ما كان راكِعًا... وهذا قولٌ ضعيفٌ، والقرآنُ إنَّما فيه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، لم يقُلْ: خرَّ بعدَ ما كان راكِعًا... ولعلَّ داودَ سجَد مِن قيامٍ، وقيل: خرَّ راكعًا؛ ليبينَ أنَّ سُجودَه كان مِن قيامٍ، وهو أكمَلُ، ولَفْظُ خَرَّ يدُلُّ على أنَّه وصَل إلى الأرضِ، فجمع له معنى السُّجودِ والرُّكوعِ). ((جامع الرسائل)) (١/ ٣٣-٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٢، ١١٣).

وقد اختلفَ العلماءُ في هذا الموضعِ: هل هو مِن مواضعِ السُّجودِ أو لا؟ فمذهَبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ وبعضِ الشَّافعيَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ أنَّه مِن مواضعِ سجودِ التِّلاوةِ. وممَّن اختاره: ابنُ المُنذِرِ، وابنُ حزمٍ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٣)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٣٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٦١)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٤٤١)، ((الأوسط)) لابن المنذر (٥/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٤/ ٩٨).

(٢) التَّشَزُّنُ: التَّأَهُّبُ والتَّهيُّؤُ للشَّيءِ، والاستِعدادُ له. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٧١).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤١٠) واللَّفظُ له، والدارميُّ (١٤٦٦)، وابنُ خُزَيْمةَ (١٤٥٥).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٧٦٥)، وصحَّح إسنادَه البَيْهَقيُّ في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٠)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ٥٣)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٢٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٧٦٥). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤١٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد في ﴿صٓ﴾، وقال: سَجَدَها داودُ تَوبةً، ونَسجُدُها شُكرًا))[١].

وعنه أيضًا قال: ((﴿صٓ﴾ ليس مِن عزائِمِ السُّجودِ، وقد رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسجُدُ فيها))[٢].

وعن العَوَّامِ، قال: ((سألْتُ مُجاهِدًا عن سَجدةِ ﴿صٓ﴾، فقال: سألْتُ ابنَ عَبَّاسٍ: مِن أين سَجَدْتَ؟ فقال: أوَما تَقرأُ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟ فكان داودُ ممَّن أُمِرَ نَبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقتَديَ به، فسجَدَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٣].

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

أي: فسَتَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وتَجاوَزْنا عن مُؤاخَذتِه به[٤].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي (٩٥٧) واللفظ له، والطبراني (١٢/ ٣٤) (١٢٣٨٦)، والدارقطني (١/ ٤٠٧).
قال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ١٥١): (رجالُه على شرط البخاري). ووثَّق رواتَه ابنُ حجر في ((الدراية)) (١/ ٢١١)، وقال في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٤٥٩): (أصلُه في البخاريِّ). وجوَّد إسنادَه الشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٦٠٢)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

أي: وإنَّ لِداودَ عِندَنا لَقُربةً مِنَّا ومَنزِلةً رَفيعةً، وحُسْنَ مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ[١].

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يا داودُ إنَّا استَخلَفْناك في الأرضِ[٢] بعدَ مَن كان قَبْلَك؛ لِتأمُرَ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المُنكَرِ، وتُدَبِّرَ أمورَ أهلِها الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ بأمْرِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

قيل: المرادُ بـ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: حُسنُ مَرجِعٍ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢).

وقيل: المرادُ: حُسنُ مَرجِعٍ في كُلِّ ما يُؤمَّلُ مِن الخَيرِ، وفَوقَ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٣).

(٢) قيل: الأرضُ هي أرضُ مملكتِه المعهودة، أي: جعَلْناك خليفةً في أرضِ إسرائيلَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: الأرضُ كُلُّها؛ إشارةً إلى إطلاقِ أمْرِه في جميعِها، فلا جُناحَ عليه فيما فعَلَ في أيِّ بلدٍ أرادَها؛ فهو كان خليفةً في بيتِ المقدِسِ بالفِعلِ، وهو خليفةٌ في جميعِ الأرضِ بالقُوَّةِ، بمعنى: أنَّه مهما حكَمَ فيها صَحَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٦).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُجعَلَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مرادًا به جميعُ الأرضِ؛ فإنَّ داودَ كان في زمَنِه أعظَمَ مُلوكِ الأرضِ؛ فهو مُتصَرِّفٌ في مملكتِه، ويَخافُ بأسَه ملوكُ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: فاحكُمْ بيْن النَّاسِ بالعَدلِ والإنصافِ، وذلك بالحَقِّ المُنَزَّلِ مِن عندِ اللهِ تعالى(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ هوَى نَفْسِك المُخالِفَ لأمرِ اللهِ؛ فيُضِلَّك الهوَى عن اتِّباعِ الحَقِّ المُوصِلِ لِرِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه، ويُوقِعَك في الجَورِ والظُّلمِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ ما تَرتَّبَ على اتِّباعِ الهَوى، وهو الإضْلالُ عن سَبيلِ اللهِ؛ ذَكَر عِقابَ الضَّالِّ(٣)، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَحيدونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بِسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ، وتَرْكِهم الإيمانَ به، والاستِعدادَ له بالأعمالِ الصَّالحةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).
=

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ فيه أنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان في أغلَبِ أحوالِه مُلازِمًا مِحرابَه لعبادةِ رَبِّه؛ ولهذا تسَوَّر الخَصمانِ عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في مِحرابِه لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعَلْ كُلَّ وَقتِه للنَّاسِ، مع كثرةِ ما يَرِدُ عليه مِنَ الأحكامِ، بل جعَلَ له وَقتًا يخلو فيه برَبِّه، وتَقَرُّ عَينُه بعبادتِه، وتُعينُه على الإخلاصِ في جميعِ أمورِه[(١)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي استِعمالُ الأدَبِ في الدُّخولِ على الحُكَّامِ وغَيرِهم؛ فإنَّ الخَصمَينِ لَمَّا دخَلَا على داودَ عليه السَّلامُ في حالةٍ غيرِ مُعتادةٍ، ومِن غيرِ البابِ المعهودِ؛ فَزِعَ منهم، واشتَدَّ عليه ذلك، ورآه غيرَ لائقٍ بالحالِ[(٢)].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ ...﴾ الآياتِ، في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على التَّلَطُّفِ في رَدِّ الإنسانِ عن مَكروهٍ صَنَعه، وألَّا يُؤخَذَ بالعُنفِ ما أمكَنَ[(٣)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

= قال مكِّي: (قال عِكْرِمةُ: هذا مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ. والتَّقديرُ عندَه: لهم يومَ الحسابِ عذابٌ شديدٌ ﴿بِمَا نَسُواْ﴾ أي: بما ترَكوا أمرَ الله والقضاءَ بالعدلِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٣٨). واختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٧).

وقال ابن كثير: (قال السُّدِّيُّ: «لهم عذابٌ شديدٌ بما ترَكوا أنْ يعمَلوا ليومِ الحسابِ». وهذا القولُ أمشَى على ظاهِرِ الآيةِ. فاللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّه لا يَمنَعُ الحاكِمَ مِن الحُكمِ بالحَقِّ سُوءُ أدَبِ الخَصمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ فيه أنَّ المَوعوظَ والمَنصوحَ ولو كان كبيرَ القَدْرِ، جَليلَ العِلمِ، إذا نصَحَه أحَدٌ أو وعَظَه: لا يَغضَبُ ولا يَشمَئِزُّ، بل يُبادِرُه بالقَبولِ والشُّكرِ؛ فإنَّ الخَصمَينِ نصَحَا داودَ عليه السَّلامُ، فلم يَشمَئِزَّ ولم يَغضَبْ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخُصومَ إذا خاطَبوا الحاكِمَ بمِثلِه، وقالوا: «اعْدِلْ في حُكمِك، ولا تَجُرْ علينا»! لم يكُنْ ذلك منهما سُوءَ أدَبٍ، ولا يُجوزُ للحاكِمِ أنْ يَجِدَ عليهما، ولا يُعاقِبَهما[٣]، فمُخاطَبةُ الخَصمِ لِداودَ بهذا خارِجةٌ مَخرجَ الحِرصِ على إظهارِ الحَقِّ، وهو في مَعنى الذِّكرَى بالواجِبِ؛ فلذلك لا يُعَدُّ مِثلُها جَفاءً لِلحاكِمِ والقاضي، وهو مِن قَبيلِ: اتَّقِ اللهَ في أمْري. وصُدورُه قَبْلَ الحُكمِ أقرَبُ إلى مَعنى التَّذكيرِ، وأبعَدُ عن الجَفاءِ، فإنْ وَقَع بعدَ الحُكمِ كان أقرَبَ إلى الجَفاءِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ ما معهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ يَمنَعُهم مِنَ الظُّلمِ[٥]. وكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا وأكثرَ عَمَلًا مِن الصَّالحاتِ، كان أبْعَدَ عن الظُّلمِ والبَغيِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

٨- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ العَمَلَ لا ينفَعُ إلَّا إذا بُنِيَ على الإيمانِ وكان صالِحًا، فعَمَلٌ بلا إيمانٍ لا يُقبَلُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وكذلك لو كان هناك إيمانٌ لكِنْ لم يكنِ العَمَلُ صالِحًا؛ لِفَقْدِ الإخلاصِ أو الاتِّباعِ فيه، فإنَّه لا يَنفعُ[(١)].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيدُ أنَّ بَغْيَ أحَدِ المُتعاشِرينَ على عَشيرِه: مُتَفَشٍّ بيْن النَّاسِ غيرِ الصَّالحينَ مِن المؤمِنينَ[(٢)].

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ المخالطةَ بيْن الأقارِبِ والأصحابِ، وكثرةَ التَّعَلُّقاتِ الدُّنيويَّةِ الماليَّةِ: مُوجِبةٌ للتَّعادي بيْنَهم، وبَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وأنَّه لا يَرُدُّ عن ذلك إلَّا استِعمالُ تقوى اللهِ، والصَّبرُ على الأُمورِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ هذا مِن أقَلِّ شَيءٍ في النَّاسِ[(٣)].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذِكرُ غالِبِ أحوالِ الخُلَطاءِ أراد به الموعِظةَ لهما بعدَ القَضاءِ بيْنَهما، على عادةِ أهلِ الخَيرِ مِن انتِهازِ فُرَصِ الهدايةِ؛ فأراد داودُ عليه السَّلامُ أن يُرَغِّبَهما في إيثارِ عادةِ الخُلَطاءِ الصَّالِحينَ، وأن يُكَرِّهَ إليهما الظُّلْمَ والاعتِداءَ. ويُستفادُ مِن المَقامِ أنَّه يأسَفُ لحالِهما، وأنَّه أراد تَسليةَ المظلومِ عمَّا جرَى عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

مِن خَليطِه، وأنَّ له أُسوةً في أكثَرِ الخُلَطاءِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ لا يَحكُمُ حتَّى يَستوعِبَ حُجَجَ الخَصمَينِ[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ الذي نَصَب نفْسَه لِيَكونَ حَكَمًا بيْنَ العِبادِ لا يَحِلُّ له أنْ يَختفِيَ عنهم في الوقتِ الَّذي يكونُ وقتًا للتَّحاكمِ، وفيه أنَّ الاشتِغالَ بما فيه مصلحةٌ عامَّةٌ أفضلُ مِن الاشتغالِ بما فيه مصلحةٌ خاصَّةٌ[٣]. وهذا على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الظنُّ بمعنى العِلم -واللهُ أعلمُ- أي: عَلِمَ داودُ، والدَّليلُ عليه استِغفارُه وتوبتُه؛ لأنَّ بالشَّكِّ لا يَتحقَّقُ الذَّنْبُ؛ فلِلتَّائبينَ بعدَه أنْ يَقتَدوا به -صلَّى الله عليه وسلَّم- في التَّوبةِ، فيَستَغفِروا خارِّينَ بيْنَ يَدَيْ ربِّهم في السُّجودِ؛ لأنَّه أجْدَرُ بالغُفرانِ لصاحبِه إذا تذَلَّلَ بالسُّجودِ لخالِقِه[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فيه أنَّ الاستغفارَ والعِبادةَ -خُصوصًا الصَّلاةَ- مِن مُكفِّراتِ الذُّنوبِ؛ فإنَّ اللهَ رَتَّب مَغفِرةَ ذَنْبِ داودَ على استِغفارِه وسُجودِه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه لا ينبغي للشَّخصِ إذا وُكِل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

إليه تَوَلِّي القضاءِ أنْ يَفِرَّ منه ما دام يَعرِفُ مِن نفْسِه الكفاءةَ؛ حتَّى لا يَتعطَّلَ هذا المَنصِبُ العظيمُ الَّذي هو مَنصِبُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أتاه دونَ سؤالٍ فلْيَستَعِنْ بالله، واللهُ يُعينُه عليه(١)، فمَنصِبُ القَضاءِ فَرْضُ كفايةٍ -كما قال ذلك أهلُ العِلمِ- وإذا لم يُوجَدْ إلَّا الشَّخصُ المُعَيَّنُ المُؤَهَّلُ، فإنَّه يَكونُ في حقِّه فرضَ عَينٍ(٢).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ فيه أنَّه ينبغي للحاكِمِ أن يَحذَرَ الهَوى، ويَجعَلَه منه على بالٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ لا تخلو منه، بل يُجاهِدُ نَفْسَه بأن يكونَ الحَقُّ مَقصودَه، وأن يُلقِيَ عنه وقتَ الحُكمِ كُلَّ مَحبَّةٍ أو بُغضٍ لأحَدِ الخَصمَينِ(٣).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه أنَّ السَّبَبَ الأوَّلَ لِحُصولِ الضَّلالِ هو نِسيانُ يَومِ الحِسابِ؛ لأنَّه لو كان مُتذكِّرًا لِيَومِ الحِسابِ لَمَا أعرَضَ عن إعدادِ الزَّادِ لِيَومِ المعادِ، ولَمَا صارَ مُستَغرِقًا في هذه اللَّذَّاتِ الفاسِدةِ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ الحَذَرُ من الانغِماسِ في الدُّنيا؛ الَّذي يُوجِبُ نِسيانَ يومِ الحسابِ، وكلُّ لَهْوٍ يَصُدُّ عن سبيلِ اللهِ يُنسِي يومَ الحسابِ(٥).

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه التَّرهيبُ مِن نسيانِ القيامةِ، قال

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٩).

تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾[١] [الأعراف: ٥١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ إلى آخرِ القِصَّةِ: أنَّ الحُكْمَ بينَ النَّاسِ أفضَلُ مِن العباداتِ الخاصَّةِ؛ لأنَّ نَفعَه مُتَعَدٍّ، والعباداتِ الخاصَّةَ نَفعُها قاصِرٌ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الأنبياءَ يَلحَقُهم مِن الطَّبائعِ البَشَريَّةِ ما يَلحَقُ غَيْرَهم؛ حيث لَحِقه الفَزَعُ كما يَلحَقُ سائرَ النَّاسِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ في هذه القِصَّةِ دليلٌ على جوازِ القَضاءِ في المَسجِدِ[٤]، وذلك على قولٍ في معنى المحرابِ.

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ نَصَّ على الأُخُوَّةِ؛ لاقتِضائِها عَدَمَ البَغيِ، وأنَّ بَغْيَه الصَّادِرَ منه أعظَمُ مِن غيرِه، سواءٌ كانت أُخُوَّةً في الدِّينِ أو النَّسَبِ أو الصَّداقةِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فيه جَوازُ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٥٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

المعاريضِ مِن القَولِ[١] -وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ-؛ والمعاريضُ غيرُ مَعدودةٍ في عِدادِ الكَذِبِ[٢].

٦- لَباقةُ هَذينِ الخَصمَينِ؛ حيثُ لم تُثِرِ الخُصومةُ ضَغينتَهما؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، مع أنَّه قال في الأوَّلِ: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ لكِنْ هذا البَغيُ لم تُفقَدْ به الأُخُوَّةُ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ فيه دَليلٌ شَرعيٌّ على جَوازِ وَضعِ القِصَصِ التَّمثيليَّةِ الَّتي يُقصَدُ منها التَّربيةُ والمَوعِظةُ، ولا يَتحَمَّلُ واضِعُها جُرحةَ الكَذِبِ[٤]، وذلك على أحَدِ القَولَينِ في معنى الآيةِ.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جاز لداودَ عليه السَّلامُ أن يَحكُمَ على أحَدِ الخَصمَينِ بمُجَرَّدِ قَولِ خَصمِه؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ هذا الكلامَ ليس ابتداءً مِن داودَ عليه السَّلامُ إثرَ فَراغِ لَفظِ المُدَّعِي، ولا فُتيا بظاهِرِ كَلامِه قَبْلَ ظُهورِ ما يَجِبُ، فذلك على تقديرِ: لَئِنْ كان ما تقولُ، لَقد ظَلَمَك. أي: أنَّ هذا الحكمَ كان مشروطًا بشرطِ كونِه صادقًا في دعواه.

الوجهُ الثَّاني: أنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ، أي: فأقَرَّ المُدَّعَى عليه، فقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾، ولكِنَّه لم يُحْكَ في القُرآنِ اعتِرافُ المُدَّعَى عليه؛ لأنَّه معلومٌ مِن الشَّرائعِ كُلِّها؛

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨).

إذ لا يَحكُمُ الحاكِمُ إلَّا بعدَ إجابةِ المُدَّعَى عليه(١).

الوجهُ الثَّالِثُ: أن يكونَ التَّقديرُ أنَّ الخَصمَ الَّذي هذا شأنُه يكونُ قد ظَلَمك(٢).

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّه مِن المعلومِ مِن السِّياقِ السَّابِقِ مِن كَلامِهما: أنَّ هذا هو الواقِعُ؛ فلهذا لم يحتَجْ أن يَتَكلَّمَ الآخَرُ؛ فلا وَجْهَ للاعتِراضِ(٣).

الوجهُ الخامِسُ: أنَّه قد عَلِمَ داودُ عليه السَّلامُ مِن تَساوُقِهما للخُصومةِ ومِن سُكوتِ أحَدِ الخَصمَينِ أنَّهما مُتقارِبانِ على ما وَصَفه الحاكي منهما(٤).

الوجهُ السَّادسُ: أنَّ هذه كانت خطيئةَ داودَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مِن غيرِ تثبُّتٍ ببَيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ هل كان هذا كذا أو لم يكُنْ(٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ الشَّرِكةِ(٦).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).
وقال الثعلبي: (حُذِف الاعتِرافُ؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ دالٌّ عليه، كقولِ العرَبِ: أمَرْتُك بالتِّجارةِ فكسَبْتَ الأموالَ [أي: فاتَّجرتَ فاكتسبتَ الأموالَ]). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).
قال ابنُ قُدامةَ: (الشركةُ: هي الاجتماعُ في استحقاقٍ أو تصرُّفٍ، وهي ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ؛ أمَّا الكتابُ فقولُ الله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. والخُلَطاءُ هم الشُّرَكاءُ ...). ((المغني)) (٥/ ٣).

العَرَبَ -وإنْ سَمَّتِ النِّساءَ بالنِّعاجِ- فهي في هذا الموضِعِ نِعاجُ الغَنَمِ -على أحدِ القولَينِ-؛ لأنَّ الخُلَطاءَ لا يكونونَ في النِّساءِ، إنَّما يَكونونَ في الغَنَمِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أنَّ أكثَرَ الشُّرَكاءِ يَحصُلُ مِن أحدِهم بَغْيٌ على الآخَرِ، وهذا مِن الغَريبِ أن يَكونَ الإنسانُ كُلَّما قَرُبَ إلى الشَّخصِ تُوُقِّعَ منه البَغيُ أكثرَ ممَّا لو كان بعيدًا؛ لأنَّ البعيدَ ليس بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ، لكنَّ الَّذي بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ وهو الشَّريكُ: هو الَّذي رُبَّما يَجحَدُه أو يُنكِرُه، أو يَفعَلُ شيئًا لم يَأذَنْ به أو ما شابَهَ ذلك(٢).

١٢- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أنَّ الجمعَ بيْن هذَينِ الوَصفَينِ؛ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ: قَليلٌ(٣).

١٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ حَثٌّ للخَصْمَينِ أن يَكونا مِنَ الصَّالِحينَ؛ لِما هو مُتقَرِّرٌ في النُّفوسِ مِن نَفاسةِ كُلِّ شَيءٍ قَليلٍ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ قد يُفتَنونَ ويُختَبَرونَ، ولكِنَّ الفِتنةَ الَّتي يُفتَنُ بها الأنبياءُ لا يُمكِنُ أنْ تَعودَ إلى إبطالِ مُقَوِّماتِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ؛ كالفِتنةِ التي تَعودُ إلى الكَذِبِ، أو الشِّركِ، أو الأخلاقِ الرَّديئةِ، وما أشبَهَها، هذا لا يُمكِنُ أنْ يَقَعَ مِن الأنبياءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢). وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أنَّ العبدَ بعدَ التَّوبةِ يعودُ خيرًا ممَّا كان[١].

١٦- قولُ الله تعالى في حقِّ داودَ عليه السَّلامُ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، وقولُه عن سُليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى...﴾ إلى أن قال عنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبيِّنُ إكرامَ اللهِ لِعَبدِه داودَ وسُليمانَ؛ بالقُربِ منه، وحُسنِ الثَّوابِ، وألَّا يُظَنَّ أنَّ ما جرَى لهما مُنقِصٌ لدَرَجتِهما عندَ الله تعالى، وهذا مِن تمامِ لُطفِه سبحانه بعبادِه المُخلَصينَ: أنَّه إذا غفَر لهم، وأزال أثَرَ ذُنوبِهم، أزال الآثارَ المترتِّبةَ عليه كلَّها، حتَّى ما يقَعُ في قُلوبِ الخَلقِ؛ فإنَّهم إذا عَلِموا ببَعضِ ذُنوبِهم وقَعَ في قُلوبِهم نُزولُهم عن دَرَجتِهم الأُولى، فأزال اللهُ تعالى هذه الآثارَ، وما ذاك بعزيزٍ على الكريمِ الغفَّارِ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبيِّنُ اعتِناءَ اللهِ تعالى بأنبيائِه وأصفيائِه عندَما يقَعُ منهم بَعضُ الخَلَلِ، بفِتنتِه إيَّاهم، وابتلائِهم بما به يَزولُ عنهم المحذورُ، ويَعودون إلى أكمَلَ مِن حالتِهم الأُولى، كما جرَى لداودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه يجِبُ الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ بالحقِّ؛ سواءٌ كان ذلك في طريقِ الحُكمِ أو في نفْسِ الحُكمِ، أمَّا طريقُ الحكمِ؛ فهو معاملةُ الخَصمينِ بحيثُ تكونُ المعامَلةُ بيْنَهما على وجهِ العدلِ، وألَّا يميلَ إلى أحَدِ الخَصمَينِ أو يحابيه؛ لِقَرابةٍ، أو لجاهِه، أو سبَبٍ يقتَضي المَيلَ، ويُؤيِّدُ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وأمَّا في الحكمِ؛ فأنْ يَحكُمَ بما تقتضيه الشَّريعةُ[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ الحُكمَ بيْنَ النَّاسِ مَرتبةٌ دينيَّةٌ تولَّاها رُسُلُ اللهِ وخواصُّ خَلقِه، وأنَّ وَظيفةَ القائِمِ بها: الحُكمُ بالحَقِّ، ومُجانبةُ الهوى؛ فالحُكمُ بالحَقِّ يَقتَضي العِلمَ بالأُمورِ الشَّرعيَّةِ، والعِلمَ بصُورةِ القَضيَّةِ المحكومِ فيها، وكيفيَّةَ إدخالِها في الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ فالجاهِلُ بأحَدِ الأمْرَينِ لا يَصلُحُ للحُكمِ، ولا يَحِلُّ له الإقدامُ عليه[٢].

٢٠- المعروفُ في استعمالِ الهوَى عندَ الإطلاقِ: أنَّه المَيلُ إلى خلافِ الحقِّ، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

٢١- قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، ولذلك اشترَط العُلَماءُ في الخَليفةِ شُروطًا كُلُّها تَحومُ حوْلَ الحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ اتِّباعِ الهوَى، وما يُوازيه مِنَ الوُقوعِ في الباطِلِ، وهي: التَّكليفُ، والحُرِّيَّةُ، والعَدالةُ، والذُّكورةُ[٤].

٢٢- مُجَرَّدُ الحبِّ والبغضِ هو هوًى، لكنَّ المُحَرَّمَ منه هو اتِّباعُ حُبِّه وبُغْضِه بغيرِ هُدًى مِن اللهِ؛ ولهذا قال اللهُ سبحانه لنَبيِّه داودَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، فأخبَرَ أنَّ مَن

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥، ٢٤٦).

اتَّبَعَ هواه أضَلَّه ذلك عن سَبيلِ اللهِ، وهو هُداهُ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، وهو السَّبيلُ إليه(١).

٢٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لم يَنْهَه عن هوى النَّفْسِ، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها؛ لأنَّ النَّفْسَ قد تَهوى في الحُكمِ بغيرِ حَقٍّ؛ حيث قال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ لأنَّ النَّفْسَ أُنشِئَت على الهوى والمَيلِ إلى اللَّذَّاتِ والشَّهواتِ، وعلى ذلك طُبِعَت وبُنِيَت؛ فيكونُ في هواها إلى ما تَهوى مدفوعًا غيرَ مالِكٍ ولا قادِرٍ على دَفْعِه؛ لذلك لم يَنْهَه عن هواها، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها، ويَقدِرُ على مَنْعِها بالعَقلِ، ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحَقِّ؛ لذلك كان ما ذَكَر. واللهُ أعلَمُ(٢).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اتِّباعَ الهوَى يَجلِبُ للإنسانِ الضَّلالَ، كما أنَّه هو نَفْسُه ضَلالٌ، فإذا اتَّبعتَ الهوى في قَضيَّةٍ ما فانتَظِرِ اتِّباعَ الهوى في القَضيَّةِ الَّتي تليها؛ لأنَّ المَعصيةَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ فيها الإنسانُ يَجِدُ نَفْسَه تَستوحِشُ منها وتَنفِرُ، فإذا فَعَلَها مَرَّةً هانتْ عليه، وانكسرَ الحِجابُ، فإذا هانتْ عليه أوَّلَ مَرَّةٍ هانتْ عليه الثَّانيةُ ثمَّ الثَّالثةُ، حتَّى تُصبِحَ وكأنَّها لا شَيءَ؛ ولهذا يَضرِبُ العامَّةُ مَثَلًا له فائِدةٌ، يقولونَ: «بكثرةِ الإمسَاسِ يَقِلُّ الإحساسُ»، يعني: إذا أكثَرَ الإنسانُ مُماسَّةَ الشَّيءِ قَلَّ إحساسُه به(٣).

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في جَعلِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، ونِسيانِ يومِ الحِسابِ سَبَبينِ لاستِحقاقِ العَذابِ الشَّديدِ: تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٧).

تلازُمِهما؛ فإنَّ الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ يُفضي إلى الإعراضِ عن مُراقَبةِ الجَزاءِ[١].

٢٦- أنَّ دِينَ اللهِ تعالى واحِدٌ لا يَتشعَّبُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأفرَدَها، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[الأنعام: ١٥٣]؛ فسَبيلُ اللهِ واحِدةٌ، وما خالَفَها فهو المُتَشَتِّتُ؛ فهذا سَبَبُه الهوى، وهذا سَبَبُه خَشيةُ النَّاسِ، وهذا سَبَبُه كذا، وهذا سَبَبُه كذا؛ فتتفَرَّقُ السُّبُلُ[٢].

٢٧- أنَّ مِن أسبابِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ نِسيانَ يومِ الحِسابِ، والغفلةَ عنه، والانغماسَ في الدُّنيا حتَّى تُنسِيَ الإنسانَ ما خُلِقَ له، وما هو مُقبِلٌ عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: غَفَلوا عنه، وليس المرادُ بالنِّسيانِ الذُّهولَ الَّذي يُعفَى عنه، بلِ المرادُ بالنِّسيانِ التَّركُ الَّذي هو الغَفلةُ، وعَدَمُ المُبالاةِ به[٣].

٢٨- إثباتُ الأسبابِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ الباءَ هذه للسَّببيَّةِ[٤].

٢٩- مُناسَبةُ ذِكرِ الله تعالى قِصَّةَ داودَ عليه السَّلامُ في سورةِ (ص): أنَّهم لَمَّا قالوا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] كان في ذلك الكلامِ إشعارٌ بهَضمِ جانبِه، فغار الله لذلك، وبيَّن أنَّهم ليس عندَهم خزائنُ رحمتِه، ولا لهم مُلكٌ، وأنَّهم جندٌ مهزومون. وكأنَّه يقولُ: وما قدرُ هؤلاء؟ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧] واذكُرْ مَن آتَيْناه المُلكَ العظيمَ في الدُّنيا، مع ما لَه في الآخرةِ، وهو أخوك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).

وأنت عندَنا أرفَعُ رتبةً منه. وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا شكَّ أنَّه يَفرَحُ لإخوتِه الأنبياءِ بما يَحصُلُ لهم مِن الخَيرِ، كما لو حصَل لِنَفْسِه، سواء بسواء، وأكثر.

والثَّاني: أنَّه يعلمُ أنَّ رتبتَه عندَ الله أكمَلُ. وإذا ذكَر هذَينِ الأمْرَينِ، احتقَر قُرَيشًا فيه، وعلِم أنَّ الَّذي أُوتوه وافتَخَروا به لا شيءَ. فهذا وجهُ المناسبةِ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ قِصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ[(٢)]. أو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ﴾ [ص: ١٨]، والإنشاءُ هنا في معنَى الخَبَرِ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ قصَّتْ شأنًا مِن شأنِ داودَ مع ربِّه تعالى، فهي نَظيرُ ما قَبْلَها[(٣)].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ظاهِرُه الاستِفهامُ، ومَعناهُ: الدَّلالةُ على أنَّه مِنَ الأنباءِ العَجيبةِ الَّتي حَقُّها أنْ تَشيعَ ولا تَخفَى على أحَدٍ، وفي الاستِفهام معنَى التَّشويقِ إلى استِماعِه؛ وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ إنْ كانتْ مَعلومةً للسَّامِعِ فيَكونُ في الاستِفهام بَعثٌ له، وتَحريضٌ على إشاعَتِها، وإعلامِ النَّاسِ بها، أي: كأنَّك ما عَلِمْتَها حيثُ تُخْفيها، ولا تؤدِّي حقَّها مِن الإذاعةِ، وإنْ لم تكُنْ معلومةً كان تأنيبًا على التَّقاعُدِ عن استِعلامِها، وتَشويقًا إلى استِماعِها. والخِطابُ يَجوزُ أنْ يَكونَ لكلِّ سامِعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: عهدِ فردٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ مِن جِنسِه، أي: نَبأُ خَصمٍ مُعَيَّنٍ هذا خَبَرُه. والخَصمُ: اسمٌ يُطلَقُ على الواحِدِ وأكثَرَ[١]، وأُريدَ به هنا خَصْمانِ؛ لقَولِه بعْدَه: ﴿خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، أو نحنُ فَوجانِ مُتَخاصِمانِ، على تَسميةِ مُصاحِبِ الخَصمِ خَصمًا[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن حِكايةِ فَزَعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قالوا عِندَ مُشاهَدَتِهم لِفَزَعِه؟ فقيل: قالوا -إزالةً لِفَزَعِه-: ﴿لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ ...﴾[٤].

- وجاءَ ضَميرُ المُتكَلِّمِ ومعه غَيرُه في قولِه: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾؛ رَعْيًا لِمَعنى ﴿خَصْمَانِ﴾، ولم يُبَيِّنا الباغيَ منهما؛ لأنَّ مَقامَ تَسكينِ رَوْعِ داودَ يَقتَضي الإيجازَ بالإجمالِ، ثم يَعقُبُه التَّفصيلُ، ولإظهارِ الأدَبِ مع الحاكِمِ؛ فلا يَتَولَّيانِ تَعيينَ الباغي منهما، بل يَترُكانِه لِلحاكِمِ يُعيِّنُ الباغيَ منهما في حُكمِهِ حينَ قال لِأحَدِهما: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[٥] [ص: ٢٤].

= على الكشاف)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(١) و(الخَصْمُ) في الأصلِ مَصدَرُ (خَصَمَه)، والعَرَبُ إذا نعتَت بالمَصدَرِ أفردَتْه وذكَّرَتْه، وعليه فالخَصمُ يُرادُ به الجَماعةُ والواحدُ والاثنانِ، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه؛ لِتَناسي أصلِه الَّذي هو المصدَرُ، وتنزيلِه مَنزِلةَ الوصفِ. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ لِأنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا كان مَلِكًا، وكان اللَّذانِ حَضَرَا عِندَه خَصمَيْنِ؛ كان طَلَبُ الحُكمِ بَيْنَهما مُفَرَّعًا على ذلك. والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَٱحۡكُم﴾، وهذا مُجرَّدُ طَلَبٍ منهما لِلحَقِّ[1].

- والنَّهيُ في قَولِه: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّذكيرِ والإرشادِ[2].

- وقَولُهما: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يَصرِفُ عن إرادةِ الجَفاءِ مِن قَولِهما: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ لأنَّهما عَرَفا أنَّه لا يَقولُ إلَّا حَقًّا، وأنَّهما تَطَلَّبَا منه الهُدَى، وعُبِّر بالهُدَى هنا عن البَيانِ، وإيضاحِ الصَّوابِ[3].

- قولُه: ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ضُرِب مثلًا لِعَيْنِ الحقِّ ومحضِه الَّذي لا يَشوبُه باطِلٌ، وعُبِّر به عنه؛ لِأنَّ الصِّراطَ الطَّريقُ الواسِعُ، والسَّواءُ منه هو الَّذي لا الْتِواءَ فيه، ولا شُعَبَ تَتشَعَّبُ منه، فهو أسرَعُ إيصالًا إلى المَقصودِ باستِوائِه، وأبعَدُ عن الالتِباسِ بسَلامَتِه مِنَ التَّشَعُّبِ[4].

- ومَجموعُ قَولِه: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ الحاكِمِ بالعَدلِ بحالِ المُرشِدِ الدَّالِّ على الطَّريقِ المُوصلةِ؛ فهو مِنَ التَّمثيلِ القابِلِ تَجزِئةَ التَّشبيهِ في أجزائِه[5].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

﴿فِي ٱلۡخِطَابِ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما فيه الخُصومةُ، أيْ: أخي في الدِّينِ، أو في الصُّحبةِ، والتَّعرُّضُ لذلك تَمهيدٌ لِبَيانِ كَمالِ قُبحِ ما فَعَل به صاحِبُه(١).

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَخِي﴾ بَدَلًا مِنِ اسمِ الإشارةِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرَ ﴿إِنَّ﴾، وهو أَوْلَى؛ لِأنَّ فيه زيادةَ استِفظاعِ اعتِدائِه عليه(٢).

- قيل: الظَّاهِرُ إبقاءُ لَفظِ النَّعجةِ على حَقيقَتِه مِن كَونِها أُنثى الضَّأْنِ؛ لِأنَّ ذلك الإخبارَ كان صادِرًا مِنَ المَلائِكةِ -على قولٍ-، على سَبيلِ التَّصويرِ لِلمَسألةِ، والفَرضِ لها مِن غَيرِ تَلَبُّسٍ بشَيءٍ منها، فمَثَّلوا بقِصَّةِ رَجُلٍ له نَعجةٌ، ولِخَليطِه تِسعٌ وتِسعونَ، فأرادَ صاحِبُه تَتِمَّةَ المِئةِ، فطَمِعَ في نَعجةِ خَليطِه، وأرادَ انتِزاعَها منه، وحاجَّهُ في ذلك مُحاجَّةَ حَريصٍ على بُلوغِ مُرادِه، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا التَّصويرُ والتَّمثيلُ أبلَغُ في المَقصودِ، وأدَلُّ على المُرادِ(٣).

- وقيل: إنَّ لَفظَ النَّعجةِ كِنايةٌ عنِ المَرأةِ؛ فقد كانوا يَكْنون عنِ المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ، والكِنايةُ والتَّمثيلُ فيما يُساقُ لِلتَّعريضِ أبلَغُ في المَقصودِ، وفي مَعنى ذِكرِ النِّعاجِ نُكتةٌ بَليغةٌ؛ لِأنَّ تَحاكُمَهم في نَفْسه كان تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً، وكان كَلامُهم تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً؛ لِأنَّ التَّمثيلَ أبلَغُ في التَّوبيخِ؛ ولِلتَّنبيهِ على أنَّه أمرٌ يُستَحْيا مِن كَشفِه، فيُكَنَّى عنه، كما يُكَنَّى عمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٠، ٣٥١).

يُستَسمَجُ الإفصاحُ به[١].

- وقولُه: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: اجْعَلْها في كَفالَتي، أي: حِفْظي، وهو كِنايةٌ عن الإعطاءِ والهِبةِ، أيْ: هَبْها لي[٢].

- قَولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غَلَبَني في مُخاطَبَته، أيْ: أظهَرَ في الكَلامِ عِزَّةً عليَّ وتَطاوُلًا؛ فجَعَلَ الخِطابَ ظَرفًا لِلعِزَّةِ؛ لِأنَّ الخِطابَ دَلَّ على العِزَّةِ والغَلَبةِ؛ فوَقَعَ تَنزيلُ المَدلولِ مَنزِلةَ المَظروفِ، وهو كَثيرٌ في الاستِعمالِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ؛ قَصَد به المُبالَغةَ في إنكارِ فِعلِ خَليطِه، وتَهجينِ طَمَعِه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ أضافَ المَصدَرَ إلى المَفعولِ، وضَمَّنَ السُّؤالَ مَعنى الإضافةِ والضَّمِّ، أيْ: بإضافةِ نَعجَتِكَ على سَبيلِ السُّؤالِ والطَّلَبِ؛ ولذلك عَدَّاهُ بـ (إلى)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٨- ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦). =

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كِنايةٌ عن أمْرِهما بأنْ يَكونا مِنَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ، وأنَّ ما فَعَلَه أحَدُهما ليس مِن شَأنِ الصَّالِحينَ[١].

- وزِيادةُ (ما) بَعدَ (قَليلٌ) في قَولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ لِقَصدِ الإبهامِ، وفي هذا الإبهامِ إيذانٌ بالتَّعَجُّبِ مِن قِلَّتِهم بمَعونةِ السِّياقِ والمَقامِ. وقيل: (ما) صِلةٌ، تُفيدُ معنى التَّعظيمِ والتَّعَجُّبِ[٢].

- وسَوقُ نَبَأِ الخَصمَيْنِ عَقِبَ التَّنويهِ بداودَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا تتميمًا لِلتَّنويهِ به؛ لِدَفعِ ما قد يُتَوَهَّمُ أنَّه يَنقُضُ ما ذُكِرَ مِن فَضائِلِه ممَّا جاءَ في كِتابِ اليَهودِ في ذِكرِ هذه القِصَّةِ من أغلاطٍ باطِلةٍ تُنافي مَقامَ النُّبوَّةِ؛ فأُريدَ بَيانُ المِقدارِ الصَّادِقِ منها، وتَذييلُه بأنَّ ما صَدَرَ عن داودَ عليه السَّلامُ يَستَوجِبُ العِتابَ، ولا يَقتَضي العِقابَ؛ ولذلك خُتِمتْ بقَولِه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[٣] [ص: ٢٥].

- وأيضًا جاءتْ قِصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ على طَريقةِ التَّمثيلِ والتَّعريضِ دونَ التَّصريحِ؛ لِكَونِها أبلَغَ في التَّوبيخِ، مِن قِبَلِ أنَّ التَّأمُّلَ إذا أدَّاهُ إلى الشُّعورِ بالمُعَرَّضِ به، كان أوْقَعَ في نَفْسِه، وأشَدَّ تَمكُّنًا مِن قَلبِه، وأعظَمَ أثَرًا فيه،

= وقال ابنُ جريرٍ: (قال داودُ للخَصمِ المُتظلِّمِ مِن صاحِبِه: لقد ظلَمك صاحبُك بسؤالِه نعجتَك إلى نعاجِه، وهذا مما حُذِفتْ منه الهاءُ، فأُضيف بسقوطِ الهاءِ منه إلى المفعولِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧).

وأجلَبَ لاحتِشامِه وحَيائِه، وأدْعى إلى التَّنَبُّهِ على الخَطَأِ فيه مِن أنْ يُبادِرَه به صَريحًا، مع مُراعاةِ حُسنِ الأدَبِ بتَركِ المُجاهَرةِ[١]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجاء الفَصلُ في القِصَّةِ على وَجهِ التَّحاكُمِ إلى داودَ عليه السَّلامُ لِيَحكُمَ بما حَكَم به مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾؛ حتى يَكونَ مَحجوجًا بحُكمِه، ومُعترِفًا على نَفْسِه بظُلْمِه[٢]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وعَبَّرَ بالرَّاكِعِ عنِ السَّاجِدِ في قَولِه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ لِأنَّه يَنحَني ويَخضَعُ كالسَّاجِدِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ قد استَغفَرَ اللهَ لِذَنْبِه، وأحرَمَ برَكعَتَيِ الاستِغفارِ والإنابةِ؛ فيَكونَ المَعنى: وخرَّ لِلسُّجودِ راكِعًا، أيْ: مُصَلِّيًا؛ لِأنَّ الرُّكوعَ يُجعَلُ عِبارةً عنِ الصَّلاةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾

- قولُه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَلِكَ﴾ للإشارةِ إلى ما دَلَّتْ عليه خُصومةُ الخَصْمَينِ مِن تَمثيلِ ما فَعَله داودُ عليه السَّلامُ بصُورةِ قَضيةِ الخَصمَينِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن لَطائفِ القُرآنِ؛ إذْ طَوى القِصَّةَ الَّتي تَمثَّلَ له فيها الخَصمانِ، ثمَّ أشارَ إلى المَطويِّ باسمِ الإشارةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤١).

- وأتْبَعَ اللهُ سُبحانَه الخَبَرَ عنِ الغُفرانِ له بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ، المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ الغُفرانِ لا غيرُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وتأكيدُ الخَبَرِ -بـ (إنَّ) واللَّامِ-؛ لإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فتَنَه؛ تَنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

- قَولُه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِحكايةِ ما خُوطِبَ به داودُ عليه السَّلامُ بعدَ ما تَقدَّمَ، وهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ مَعطوفٍ على قَولِه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥]، أيْ: صَفَحْنا عنه، وذَكَّرْناه بنِعمةِ المُلْكِ، ووَعَظْناه؛ فجَمَعَ له بهذا تَنويهًا بشَأنِه، وإرشادًا لِلواجِبِ[2].

- وافتِتاحُ الخِطابِ بالنِّداءِ في قَولِه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾؛ لاستِرعاءِ وَعيِه، واهتِمامِه بما سَيُقالُ له[3].

- وقَولُه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُفرَّعٌ على جَعْلِه خَليفةً؛ فأمَرَه بأنْ يَحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك واجِبُه، وأنَّه أحَقُّ النَّاسِ بالحُكمِ بالعَدلِ؛ ذلك لِأنَّه هو المَرجِعُ لِلمَظلومينَ، والَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

تُرفَعُ إليه مَظالِمُ الظَّلَمةِ مِنَ الوُلاةِ، فإذا كان عادِلًا خَشِيَه الوُلاةُ والأُمراءُ؛ لِأنَّه أَلِفَ العَدلَ، وكَرِهَ الظُّلْمَ فلا يُقِرُّ ما يَجري منه في رَعيَّتِه كُلَّما بَلَغَه، فيَكونَ النَّاسُ في حَذَرٍ مِن أنْ يَصدُرَ عنهم ما عَسى أنْ يُرفَعَ إلى الخَليفةِ فيَقتَصَّ مِنَ الظَّالِمِ، وأمَّا إنْ كانَ الخَليفةُ يَظلِمُ في حُكمِه، فإنَّه يَألَفُ الظُّلْمَ، فلا يُغضِبُه إذا رُفِعتْ إليه مَظلِمةُ شَخصٍ، ولا يَحرِصُ على إنصافِ المَظلومِ، والمُرادُ بالنَّاسِ ناسُ مَملَكَتِه؛ فالتَّعريفُ لِلعَهدِ، أو هو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ[1].

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدَّيمومةِ، وتَنبيهٌ لِغَيرِه ممَّن وَلِيَ أُمورَ النَّاسِ؛ فمِن حيثُ هو مَعصومٌ لا يَحكُمُ إلَّا بالحَقِّ أُمِرَ أوَّلًا بالحُكمِ، ولَمَّا كان الهَوى قد يَعرِضُ لِغَيرِ المَعصومِ أُمِرَ باجتِنابِه، وذَكَر نَتيجةَ اتِّباعِه؛ وهي إضلالُه عن سَبيلِ اللهِ[2].

- وتَقدَّمَ الأمْرُ بالحُكمِ بالحَقِّ على قَولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ لِيَكونَ تَوطِئةً لِلنَّهيِ عنِ اتِّباعِ الهَوى؛ سَدًّا لِذَريعةِ الوُقوعِ في خَطَأِ الحَقِّ؛ فإنَّ داودَ عليه السَّلامُ ممَّن حَكَمَ بالحَقِّ، فأمْرُه به باعتِبارِ المُستَقبَلِ[3].

- والهَوى: كِنايةٌ عنِ الباطِلِ والجَورِ والظُّلمِ[4].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ لِلاستِغراقِ؛ فالنَّهيُ يَعُمُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال الشنقيطي: (مَعلومٌ أنَّ نَبيَّ اللهِ داودَ لا يَحكُمُ بغيرِ الحَقِّ، ولا يَتَّبِعُ الهوى فيُضِلُّه عن سَبيلِ اللهِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وينهاهم؛ لِيُشرِّعَ لأُمَمِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤٤).

كُلَّ ما هو هَوًى؛ سواءٌ كان هَوى المُخاطَبِ، أو هَوى غَيرِه، مِثلَ هَوى زَوجِه ووَلَدِه، وسَيِّدِه وصَديقِه[١].

- وأيضًا النَّهيُ عن اتِّباعِ الهَوى تَحذيرٌ له، وإيقاظٌ؛ لِيَحذَرَ مِن جَرَّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِه، ويَتعَقَّبَه، فلا يَنقادَ إليه فيما يَدعوه إليه إلَّا بعدَ التَّأمُّلِ والتَّثبُّتِ، والاسترسالُ في اتِّباعِ الشَّهَواتِ وُقوعٌ في الرَّذائِلِ في الأغلَبِ؛ ولهذا جَعَلَ هنا الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ مُسبَّبًا عنِ اتِّباعِ الهَوى، وهو تَسبُّبٌ أغلَبيٌّ عُرفيٌّ؛ فشَبَّهَ الهَوى بسائِرٍ في طَريقٍ مهلكةٍ، وعَبَّرَ عن ذلك بالإضْلالِ عن طَريقِ الرَّشادِ، المُعبَّرِ عنه بسَبيلِ اللهِ؛ فإنَّ الَّذي يَتَّبِعُ سائِرًا غَيرَ عارِفٍ بطَريقِ المَنازِلِ النَّافِعةِ، لا يَلبَثُ أنْ يَجِدَ نَفْسَه وإيَّاه في مهلكةٍ أو مَقطَعةِ طَريقٍ[٢].

- وقَولُه: ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ جَوابٌ لِلنَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾[٣].

- وقَولُه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه الثَّناءُ العظيمُ على شَريعةِ اللهِ؛ وذلك بإضافتِها إلى اللهِ؛ لأنَّ كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ -إذا كانتِ الإضافةُ خاصَّةً- فإنَّ الإضافةَ تدُلُّ على شَرَفِه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ ...﴾ يَظهَرُ أنَّها ممَّا خاطَبَ اللهُ به داودَ عليه السَّلامُ؛ فهي في مَوقِعِ العِلَّةِ لِلنَّهيِ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّسبُّبِ والتَّرتُّبِ، فالشَّيءُ الَّذي يُفضي إلى العَذابِ الشَّديدِ خَليقٌ بأنْ يُنهَى عنه. وإنْ كانتِ الجُملةُ كلامًا مُنفَصِلًا عن خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ كانت مُعتَرِضةً ومُستَأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا؛ لِبَيانِ خَطَرِ الضَّلالِ عن سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

اللهِ[١]. وأتَى بهذه الجملةِ الاستئنافيَّةِ الاستقلاليَّة؛ أوَّلًا: تفاديًا لمُخاطَبةِ داودَ عليه السَّلامُ بذلك، وثانيًا: لِيكونَ أعَمَّ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ إظهارُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مَوقِعِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (سَبيلِه)-؛ لِزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ شَناعةِ الضَّلالِ عنه[٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ عِلَّةٌ لاستِحقاقِ العَذابِ[٤].

- والعُمومُ الَّذي في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ وصْفَ التَّذييلِ[٥].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ لِلاختِصاصِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سَبَبيَّةٌ، و(ما) مَصدَريَّةٌ، أيْ: بسَبَبِ نِسيانِهم يَومَ الحِسابِ[٧].

- والنِّسيانُ في قَولِه: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾: مُعبَّرٌ به عن الإعراضِ الشَّديدِ؛ لأنَّه يُشبِهُ نِسيانَ المُعرَضِ عنه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٧-٢٩)

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿فَوَيْلٌ﴾: وَيلٌ: كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الهَلَكةِ، والويلُ: الحزنُ والهلاكُ والمشَقَّةُ مِن العذابِ، وقيل: الوَيلُ: وادٍ في جَهنَّمَ[١].

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: البَرَكةُ: مِن الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمُبارَكُ ما فيه ذلِك الخَيرُ، وأصل (برك): يدُلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[٢].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾: أي: لِيَتأمَّلوا في معانيه، ويَتبصَّروا ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ الأمرَ، أي: نظرتُ في عاقبتِه، والتَّدبيرُ: قَيْسُ دُبُرِ الكلامِ بقُبُلِه، ثمَّ جُعِل كلُّ تمييزٍ تدبيرًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه[٣].

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفردُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَودةُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٣٦).
قال الراغب: (ومَن قال: «ويلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨٧).

والشَّيءُ المُنتقَى[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنزِّهًا نفْسَه عن العبثِ ومتوعِّدًا الكفَّارَ الَّذين يَظنُّونَ ذلك: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بيْنَهما خَلْقًا باطِلًا لا حِكمةَ فيه، ذلك ظَنُّ الَّذين كَفَروا، فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه اقتضَتْ عدمَ المساواةِ بيْنَ الأخيارِ والأشرارِ، فيقولُ: بل أنجعَلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ؟!

بل أنجعَلُ المتَّقينَ كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِ اللهِ؟ كلَّا؛ لا يَستَوونَ عندَ اللهِ.

ثمَّ يُثْني اللهُ سبحانَه على القرآنِ الكريمِ، ويُبيِّنُ حكمةَ إنزالِه، فيقولُ: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ- مُبارَكٌ، كَثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لِيتدبَّرَ النَّاسُ آياتِه، ولِيَتذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جَرَى في خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ ذِكرُ نِسيانِ يَومِ الحِسابِ وترتيبُ العذابِ الشَّديدِ على إنكارِه، وكان أقصى غاياتِ ذلك النِّسيانِ جحودُ وُقوعِه -لِأنَّه يُفْضي إلى عَدَمِ مُراعاتِه ومُراقَبَتِه أبَدًا-؛ اعتُرِضَ بيْنَ القِصَّتَينِ بثَلاثِ آياتٍ لِبَيانِ حِكمةِ اللهِ تَعالى في جَعلِ الجَزاءِ ويَومِه احتِجاجًا على مُنكِريهِ مِنَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

المُشرِكين(١).

وأيضًا بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الَّذين يَضِلُّونَ عن سَبيلِ اللهِ لهم العذابُ الشَّديدُ يومَ الحِسابِ؛ لِظَنِّهم أنَّه ليس بكائنٍ- أعقَبَ هذا ببيانِ أنَّ هذا اليومَ آتٍ لا رَيْبَ فيه؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَخلُقِ الخَلقَ عَبَثًا، بل خلَقَهم لعبادتِه وتوحيدِه، ثمَّ يَجمَعُهم يومَ الجَمعِ فيُثيبُ المُطيعينَ، ويُعذِّبُ الكافِرين(٢).

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما عَبَثًا ولَعِبًا ولَهْوًا بلا غايةٍ ولا حِكمةٍ(٣).

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (اتَّفَق المفسِّرون على أنَّ الحَقَّ الذي خُلِقَت به السَّموات والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما من الثَّوابِ والعِقابِ؛ فمن جَحَد ذلك وجَحَد رسالةَ الرُّسُلِ، وكَفَر بالمعادِ، وأحال حوادِثَ العالَم على حَرَكاتِ الكواكِبِ؛ فقد زعم أنَّ خَلْقَ السَّموات والأرض أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِقَ عَبَثًا، وتُرِكَ سُدًى، وخُلِّيَ هَمَلًا! وغايةُ ما خُلِقَ له أن يكونَ مُتمَتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ، كالبهائم، في هذه المدَّةِ القصيرةِ جِدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوجودَ، وتُحدِثُ حَرَكاتُ الكواكِبِ أشخاصًا مِثلَه هكذا أبدًا؛ فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عَبَثٍ فوقَ هذا؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ * وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: الظَّنُّ بأنَّا خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا: هو ظَنُّ الَّذين كفَروا باللهِ واليومِ الآخِرِ، فلم يَعرِفوا عَظَمةَ اللهِ وحِكمَتَه(١).

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ(٢).

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى على سَبيلِ الإجمالِ: أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ الشَّكَّ في حِكمةِ اللهِ تعالى؛ بيَّنَ ذلك على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ فإنَّنا نَرى في الدُّنيا مَن أطاع اللهَ، واحتَرَز عن مَعصيتِه: في الفَقرِ والزَّمانةِ وأنواعِ البَلاءِ، ونرى الكَفَرةَ والفُسَّاقَ في الرَّاحةِ والغِبطةِ؛ فلو لم يكُنْ حَشرٌ ونَشرٌ ومَعادٌ، فحينَئذٍ يكونُ حالُ المطيعِ أدْوَنَ مِن حالِ العاصي، وذلك لا يَليقُ بحِكمةِ الحَكيمِ الرَّحيم، وإذا كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

ذلك قادِحًا في الحِكمةِ ثَبَت أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ إنكارَ حِكمةِ اللهِ(١).

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي(٢)؟!

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعذابَه، بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟ كلَّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه(٣).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

قال الشنقيطي: (((أَمْ» في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ﴾، وقولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: كِلْتاهما مُنقَطِعةٌ. و«أم» المُنقطِعةُ فيها لعُلَماءِ العَربيَّةِ ثلاثةُ مَذاهِبَ:

الأوَّلُ: أنَّها بمعنى همزةِ استِفهامِ الإنكارِ.

الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» الإضرابيَّة.

والثَّالثُ: أنَّها تَشملُ معنى الإنكارِ والإضرابِ مَعًا، وهو الَّذي اختاره بعضُ المحقِّقينَ، وعليه فالإضرابُ بها هنا انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ، ووجْهُ الإنكارِ بها عليهم واضِحٌ؛ لأنَّ مَن ظَنَّ باللهِ الحَكيمِ الخَبيرِ أنَّه يُساوي بيْنَ الصَّالحِ المُصلِحِ، والمفسِدِ الفاجِرِ، فقد ظنَّ ظنًّا قَبيحًا جديرًا بالإنكارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٣، ٣٤٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انتَفَت التَّسويةُ؛ بَيَّن ما تَصلُحُ به لِمُتَّبِعِه السَّعادةُ الأبديَّةُ، وهو كِتابُ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا ثَبَت بما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما ذُكِرَ في هذا الذِّكرِ مِن البراهينِ الَّتي لا يأْباها إلَّا مَدخولُ الفِكرِ، مُخالَطُ العَقلِ؛ ثَبَت أنَّه ذو الذِّكرِ والشَّرَفِ الأعظَمِ، فقال تعالى مُنَبِّهًا على ذلك: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا بعدَ الإمعانِ في تَهديدِ المُشرِكينَ، وتَجهيلِهم على إعراضِهم عن التَّدبُّرِ بحِكمةِ الجَزاءِ ويَومِ الحِسابِ عليه، والاحتِجاجِ عليهم؛ أعرَضَ اللهُ عن خِطابِ المُشركين، ووَجَّهَ الخِطابَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالثَّناءِ على الكِتابِ المُنَزَّلِ عليه، وكان هذا القُرآنُ قد بَيَّنَ لهم ما فيه لهم مَقنَعٌ، وردَّ على شبهاتِهم، وأنَّه إنْ حَرَم المُشرِكونَ أنْفُسَهم مِنَ الانتِفاعِ به، فقد انتَفَعَ به أُولو الألبابِ، وهمُ المُؤمِنونَ[3].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ-، وهو دائِمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلمِ، كثيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

أي: أنزَلْناه؛ لِيَتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا مِن إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ لِيَفهَموا ما وراءَها مِن المعاني والحِكَمِ والأسرارِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

أي: ولِيَتذَكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

الفَوائِدُ التَّربَوِيَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يدُلُّ على الحَثِّ على تَدبُّرِ القُرآنِ، وأنَّه مِن أفضَلِ الأعمالِ، وأنَّ القِراءةَ المُشتَمِلةَ على التَّدبُّرِ أفضَلُ مِن سُرعةِ التِّلاوةِ الَّتي لا يَحصُلُ بها هذا المَقصودُ[١]. وأنَّ تحديقَ ناظِرِ القَلْبِ إلى معاني القرآنِ، وجَمعَ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتعَقُّلِه؛ هو المقصودُ بإنزالِه، لا مجرَّدُ تِلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ[٢]، وقد ذَمَّ اللهُ تعالى الَّذين يَقرؤونه قراءةً لا تَتجاوَزُ ألفاظَه إلى معانيها ومَراميها، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿أَمَانِىَّ﴾: يعني قراءةً لفظيَّةً فقط، فوصَفَهم اللهُ بأنهم أُمِّيُّونَ؛ لأنَّهم لم يَنتفِعوا بالقرآنِ؛ إذْ لا يُمكِنُ أنْ يُنتفَعَ بالقرآنِ إلَّا بفَهمِ معانيه، فإذا لم تُفهَمْ معانيه صار العربيُّ والعجميُّ على حَدٍّ سواءٍ[٣]. واللهُ تعالى إنَّما أنزَلَ كتابَه لِيَتأدَّبَ عِبادُه بآدابِه، ويَتخلَّقوا بأخلاقِه، ويَتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على اللهِ تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتَّى يُفهَمَ لا يُمكِنُ العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسَلَها اللهُ إلى عِبادِه لِيُنفذوها، لا لِتُقرأَ عليهم فلا يَفهموها ولا يُقيموها[٤].

٢- ما أَحَقَّ مَن عَلِمَ كِتابَ اللهِ أن يَزدَجِرَ بنواهيه، ويَتذكَّرَ ما شُرِحَ له فيه، ويَخشَى اللهَ ويتَّقِيَه، ويُراقِبَه ويَستحِييَه! فإنَّه حُمِّلَ أعباءَ الرُّسُلِ، وصار شهيدًا في القيامةِ على مَن خالَفَ مِن أهلِ المِلَلِ، ومَن أُوتيَ عِلمَ القُرآنِ فلم يَنتفِعْ، وزجَرَتْه نواهيه فلم يَرتَدِعْ، وارتكَبَ مِن المآثِمِ قَبيحًا، ومِنَ الجرائِمِ فُضُوحًا؛ كان القُرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصمًا لَديه؛ فالواجِبُ على مَن خَصَّه اللهُ بحِفظِ كِتابِه أن يَتلوَه حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).
(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

تِلاوتِه، ويَتدَبَّرَ حقائِقَ عِبارتِه، ويَتفَهَّمَ عَجائِبَه، ويَتبَيَّنَ غرائِبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لا شَيءَ أنفَعُ للقَلبِ مِن قِراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإنَّه جامِعٌ لجَميعِ مَنازِلِ السَّائِرينَ، وأحوالِ العامِلينَ، ومَقاماتِ العارِفينَ، وهو الَّذي يُورِثُ المَحبَّةَ والشَّوقَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والإنابةَ والتَّوكُّلَ، والرِّضا والتَّفويضَ، والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائِرَ الأحوالِ الَّتي بها حياةُ القَلبِ وكَمالُه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ الحَثُّ على العِنايةِ بهذا الكتابِ والتِزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَكِ[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾؛ إذْ لو انتفتِ الحكمةُ لأمْكَنَ أنْ تُخلَقَ السَّماءُ والأرضُ باطِلًا[4]!

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ وقد بُنِيتْ هذه الحُجَّةُ على الاستِدلالِ بأحوالِ المُشاهَداتِ، وهي أحوالُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، والمُشرِكونَ يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، فأُقيمَ الدَّليلُ على أساسِ مُقدِّمةٍ لا نِزاعَ فيها، فإذا استَقرَّتْ هذه المُقدِّمةُ تعَيَّنَ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٦).

إنكارَ البَعثِ والجَزاءِ يَلزَمُه أنْ يَكونَ مُنكِرُه قائِلًا بأنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما شَيءٌ مِنَ الباطِلِ، وقد دَلَّتِ الدَّلائِلُ الأُخرى على أنَّه لا يَكونُ في خَلقِ ذلك شَيءٌ مِنَ الباطِلِ بقياسِ الخَفيِّ على الظَّاهِرِ؛ فبَطَلَ ما يُفْضي إلى القَولِ بأنَّ في خَلقِ بَعضِ ما ذُكِرَ شيئًا مِنَ الباطِلِ[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العِبادِ؛ فهذه الآيةُ تدُلُّ على كَونِه تعالى خالِقًا لكُلِّ ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وأعمالُ العِبادِ حاصِلةٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فوجَبَ أن يكونَ اللهُ تعالى خالِقًا لها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أنَّه لا أحدَ يَظُنُّ أنَّ ذلك باطِلٌ إلَّا الكافِرُ، وأنَّ مَن ظَنَّ ذلك فهو كافِرٌ، والفَرقُ بيْنَ الفائِدَتينِ: أنَّ الفائِدةَ الأُولى يكونُ الكُفرُ سابِقًا على هذا الظَّنِّ، فيكونُ الكُفرُ سببًا لهذا الظَّنِّ. أمَّا الفائِدةُ الثَّانيةُ: أنَّ هذا الظَّنَّ سابِقٌ على الكُفرِ؛ فيكونُ هذا الظَّنُّ سَببًا للكُفرِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ ما لا يَليقُ به -جَلَّ وعلا- فله النَّارُ[4].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إذا قيل: وإذا كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما -بدَليلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦- ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٧).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٢).

قَوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]- فبِمَ جُعِلوا ظانِّينَ أنَّه خَلَقَها لِلعَبَث، لا لِلحِكمةِ؟

فالجَوابُ عن ذلك: أنَّه لَمَّا كان إنكارُهم لِلبَعثِ والحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ مُؤَدِّيًا إلى أنَّ خَلْقَها عَبَثٌ وباطِلٌ؛ جُعِلوا كأنَّهم يَظُنُّونَ ذلك ويَقولونَه؛ لِأنَّ الجَزاءَ هو الَّذي سَبَقتْ إليه الحِكمةُ في خَلقِ العالَم، فمَن جَحَده فقد جَحَد الحِكمةَ مِن أصْلِها، ومَن جَحَد الحِكمةَ في خَلقِ العالَم فقد سَفَّهَ الخالِقَ، وظَهَر بذلك أنَّه لا يَعرِفُه ولا يَقدُرُه حَقَّ قَدْرِه، فكان إقرارُه بكَونِه خالِقًا كَلَا إقرارٍ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لصَلاحِ الأرض، وهذا يُؤيِّدُه آياتٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] [الأعراف: ٩٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ المعاصِيَ سَبَبٌ للفَسادِ في الأرض؛ لأنَّه قابَلَ هذا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فكلُّ فَسادٍ يَحدُثُ في الأرضِ مِن جَدبٍ وفَقْرٍ ومَرَضٍ، وفَسادِ ثِمارٍ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّه بسَبَبِ المعاصي بما كسَبَت أيدي النَّاسِ[3].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ذكَرَ أعلَى أحوالِ الفَسادِ؛ إشارةً إلى أنَّه يَغفِرُ ما دونَ ذلك لِمَن يَشاءُ، وذكرَ أعلَى أحوالِ التَّقوى؛ إيماءً إلى أنَّه لا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُوصَفُ بها ويَستَحِقُّ جَزاءَها إلَّا الرَّاسِخُ فيها، تَرغيبًا للمُؤمِنِ في أنْ يَترقَّى إلى أوْجِها[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُمكِنُ أنْ يَجعَلَ المتَّقينَ كالفُجَّارِ في مآلِهم؛ فالمُتَّقي في جَنَّاتِ النَّعيمِ، والفاجِرُ في عذابِ الجَحيمِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به الفُقَهاءُ على استِحبابِ تدَبُّرِ القِراءةِ[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن العُلوِّ[٤].

١٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾، ومِن بَرَكةِ القُرآنِ أنه يُستَشفى به، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ أخرى؛ يُستَشفَى به مِن أمراضِ القُلوبِ، ومِن أمراضِ الأبدانِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] [يونس: ٥٧].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ فَضيلةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ كان أهلًا لِأَنْ يُنزَلَ عليه القُرآنُ، والقُرآنُ لا يُنزَلُ إلَّا على مَن هو أهلٌ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

وقال ابن عثيمين: (تَدَبُّرُ القرآنِ فَرْضٌ؛ لأنَّ العملَ بالقرآنِ فَرْضٌ؛ ولا يَتِمُّ العملُ إلَّا بالتَّدبُّرِ؛ وما لا يَتِمُّ الفرضُ إلَّا به فهو فرضٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٥).

لإنزالِه عليه؛ لِجَمعِه صِفاتِ الكَمالِ البَشَريَّةِ[١].

١٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ كُلُّ آياتِ القُرآنِ إمَّا مُرشِدةٌ إلى خَيرٍ، وإمَّا صارِفةٌ عن شَرٍّ وفَسادٍ، وذلك سَبَبُ الخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ، ولا بَرَكةَ أعظَمُ مِن ذلك[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به النُّحاةُ على جوازِ الوَصفِ بالجُملةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ قَبْلَ الوَصفِ بالمُفرَدِ ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، خِلافًا لِمَن مَنَعَه[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه أنَّ مَن تَذَكَّرَ بالقرآنِ فهو صاحِبُ عَقْلٍ، ومَن لم يَتَذَكَّرْ فليس له عَقْلُ رُشدٍ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ جَعَلَ التَّذكُّرَ لِمَنِ اتَّصَفوا بالعقولِ[٤]. وأنَّه بحَسَبِ لُبِّ الإنسانِ وعَقلِه يَحصُلُ له التَّذكُّرُ والانتِفاعُ بهذا الكِتابِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ نَزَلَ مَوعِظةً للنَّاسِ، كما قال اللهُ تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[النساء: ٥٨]؛ فالقُرآنُ نَزَلَ لِيُؤَثِّرَ، ولم يَنزِلْ لِيتبَرَّكَ الإنسانُ بقِراءتِه، أو يَنالَ الأجرَ بقراءتِه فقط، ولكِنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

لا بُدَّ أنْ يُؤَثِّرَ تَذَكُّرًا ومَوعِظةً[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أنَّ لُبَّ الإنسانِ ورُوحَه هو العَقلُ؛ عَقلُ الرُّشْدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّى هذه العُقولَ ألبابًا[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه مِن أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ، أيْ: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما مِنَ المَخلوقاتِ على هذا النِّظامِ البَديعِ الَّذي تَحارُ في فَهمِه العُقولُ خَلقًا باطِلًا، أي: خاليًا عن الغايةِ الجَليلةِ، والحِكمةِ الباهِرةِ، بل مُنطَويًا على الحَقِّ المُبينِ، والحِكَمِ البالِغةِ[3].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لِإفادةِ تَرتُّبِ ثُبوتِ الوَيلِ لهم على ظَنِّهم الباطِلِ، كما أنَّه عَبَّرَ بالاسمِ المَوصولِ بَدَلًا من ضَميرِهم؛ لِمَا تُشيرُ إليه الصِّلةُ مِن أنَّهمُ استَحَقُّوا العِقابَ على سُوءِ اعتِقادِهم، وسُوءِ أعمالِهم، وأنَّ ذلك أيضًا مِن آثارِ انتِفاءِ الباطِلِ عن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؛ لِأنَّهم كانوا على باطِلٍ في إعراضِهم عن الاستِدلالِ بنِظامِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي ارتِكابِهم مَفاسِدَ عَوائِدِ الشِّركِ ومِلَّتِه، وقد تَمَتَّعوا بالحياةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

الدُّنيا أكثَرَ ممَّا تَمتَّعَ بها الصَّالِحونَ؛ فلا جَرَمَ استَحَقُّوا جَزاءَ أعمالِهم[١].

- ولَفظُ (وَيْلٌ) يدُلُّ على أشَدِّ السُّوءِ، وكَلِمةُ (وَيْلٌ له) تُقالُ للتَّعجُّبِ مِن شِدَّةِ سُوءِ حالةِ المُتَحدَّثِ عنه، وهي هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ عَذابِهم في النارِ[٢].

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تَعليليَّةٌ، كما في قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩]، ونَظائرِه، مُفيدةٌ لِعلِّيَّةِ النَّارِ؛ لِثُبوتِ الوَيلِ لهم صَريحًا بَعدَ الإشعارِ بعِلِّيَّةِ ما يُؤدِّي إليها مِن ظَنِّهم وكُفرِهم، أيْ: فوَيْلٌ لهم بِسَببِ النَّارِ المُتَرتِّبةِ على ظَنِّهم وكُفرِهم، ويجوزُ أن تكونَ (مِنْ) ابتدائيةً أو بيانيةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (أَمْ) مُنقَطِعةٌ، أفادَتْ إضْرابًا انتِقاليًّا، وهو ارتِقاءٌ في الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ، وبَيانٌ لِمَا هو مِن مُقتَضى خَلقِ السَّماءِ والأرضِ بالحَقِّ، بَعدَ أنْ سِيقَ ذلك بوَجهِ الاستِدلالِ الجُمَليِّ، وقد كان هذا الانتِقالُ بِناءً على ما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ٢٧]؛ فلِأجْلِ ذلك بُنِيَ على استِفهامٍ مُقدَّرٍ بَعدَ (أَمْ)، وهو مِن لَوازِمِ استِعمالِها، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ لإنكارِ التَّسويةِ بيْنَ الحِزبَينِ الَّتي هي مِن لَوازِمِ خَلقِها باطِلًا؛ لِيَدُلَّ على نَفيِه، والمَعنى: لو انتَفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

البَعثُ والجَزاءُ -كما تَزعُمونَ- لاستَوَتْ عِندَ اللهِ أحوالُ الصَّالِحينَ وأحوالُ المُفسِدينَ، ومَن سَوَّى بَيْنَهم كان سَفيهًا، ولم يَكُنْ حَكيمًا(١).

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ لِلتَّسويةِ، والمَعنى: إنكارُ أنْ يكونوا سَواءً في جَعلِ اللهِ، أيْ: إذا لم يُجازَ كُلُّ فَريقٍ بما يَستَحِقُّه على عَمَلِه؛ فالمُشاهَدُ في هذه الحَياةِ الدُّنيا خِلافُ ذلك، فتَعيَّنَ أنْ يَكونَ الجَزاءُ في عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي يُسلَكُ له النَّاسُ بَعدَ البَعثِ، وقد أُخِذَ في الاستِدلالِ جانِبُ المُساواةِ بيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ وبيْنَ المُفسِدينَ في الأرضِ؛ لِأنَّه يُوجَدُ كَثيرٌ مِنَ الفَريقَينِ مُتَساوونَ في حالةِ الحياةِ الدُّنيا في النِّعمةِ، أو في التَّوَسُّطِ، أو في البُؤسِ والخَصاصةِ، فحالةُ المُساواةِ كافيةٌ لِتَكونَ مَناطَ الاستِدلالِ على إبطالِ ظَنِّ الَّذين كَفَروا بقَطعِ النَّظَرِ عن حالةٍ أُخرَى أَوْلَى بالدَّلالةِ؛ وهي المُقابَلةُ بيْنَ فَريقِ المُفسِدينَ أُولي النَّعمةِ، وفَريقِ الصَّالِحينَ أُولي البُؤسِ، وعن حالةٍ دونَ ذلك؛ وهي فَريقُ المُفسِدينَ أصحابِ البُؤسِ والخَصاصةِ، وفَريقُ الصَّالِحينَ أُولي النَّعمةِ؛ لأنَّها لا تَستَرعي خاطِرَ النَّاظِرِ(٢).

- و(أَمْ) في قَولِه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ مُنقَطِعةٌ أيضًا، ومُفادُها إضرابُ انتِقالٍ عن تَقريرِ أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بما مَرَّ مِن نَفيِ خَلقِ العالَمِ خاليًا مِنَ الحِكَمِ والمَصالِحِ، إلى تَقريرِه وتَحقيقِه، ولِلارتِقاءِ في الاستِدلالِ على أنَّ الحِكمةَ الرَّبَّانيَّةَ بمُراعاةِ الحَقِّ وانتِفاعِ الباطِلِ في الخَلقِ تَقتَضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩، ٢٥٠).

الجَزاءَ والبَعثَ لِأجْلِه[١].

- قَولُه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ مَعنى الاستِفهامِ الَّذي تَقتَضيه (أَمْ) الإنكارُ، وهذا الارتِقاءُ في الاستِدلالِ؛ لِقَصدِ زيادةِ التَّشنيعِ على مُنكِري البَعثِ والجَزاءِ، بأنَّ ظَنَّهم ذلك يَقتَضي أنْ جَعَلَ اللهُ المُتَّقينَ مُساوينَ لِلفُجَّارِ في أحوالِ وُجودِ الفَريقَيْنِ، فأنكَرَ التَّسويةَ بيْنَ الفَريقَينِ، ونَفاها على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه، أيْ: بلْ أنَجعَلُ المُؤمِنينَ المُصلِحينَ كالكَفَرةِ المُفسِدينَ في أقطارِ الأرضِ؟! كما يَقتَضيهِ عَدَمُ البَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِنَ الجَزاءِ؛ لِاستِواءِ الفَريقَينِ في التَّمتُّعِ بالحَياةِ الدُّنيا، بلِ الكَفَرةُ أوفَرُ حَظًّا منها مِن المُؤمِنينَ، لكِنَّ ذلك الجَعلَ مُحالٌ؛ فتَعيَّنَ البَعثُ والجَزاءُ حَتمًا؛ لِرَفعِ الأوَّلينَ إلى أعْلى عِلِّيِّينَ، ورَدِّ الآخَرينَ إلى أسفَلِ سافِلينَ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ إطنابٌ مَقصودٌ منه زيادةُ التَّهويلِ والتَّفظيعِ على الَّذين ظَنُّوا ظَنًّا يُفْضي إلى أنَّ اللهَ خَلَقَ شَيئًا مِنَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما باطِلًا؛ فإنَّ في الانتِقالِ مِن دَلالةِ الأضعَفِ إلى دَلالةِ الأقوى، وفي تَكريرِ أداةِ الإنكارِ: شأنًا عَظيمًا مِن فَضحِ أمْرِ الضَّالِّينَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ استِئنافٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

مُعتَرَضٌ، وفي هذا الاستئنافِ نَظَرٌ إلى قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ إعادةً لِلتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، كما سَيُعادُ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[١] [ص: ٤٩].

- وتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِلتَّعظيمِ؛ لِأنَّ الكِتابَ مَعلومٌ، فما كان تَنكيرُه إلَّا لِتَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ لَيسوا مِن أهلِ العُقولِ، وأنَّ التَّذكُّرَ مِن شأْنِ المُسلِمينَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه؛ فهُمْ مِمَّن تدبَّروا آياتِه فاستَنبَطوا مِنَ المَعاني ما لم يَعلَموا، ومَن قَرَأهُ فتَذكَّرَ به ما كان عَلِمَه وتَذكَّر به حَقًّا كان عليه أنْ يَرعاهُ، والكافِرونَ أعرَضوا عنِ التَّدبُّرِ؛ فلا جَرَمَ فاتَهُمُ التَّذكُّرُ[٣].

- وأسنَدَ التَّدبُّرَ إلى الجَميعِ في قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهو التَّفكُّرُ في الآياتِ، والتَّأمُّلُ الَّذي يُفْضي بصاحِبِه إلى النَّظَرِ في عَواقِبِ الأشياءِ، وأسنَدَ التَّذكُّرَ إلى أُولي العُقولِ؛ لِأنَّ ذا العَقلِ فيه ما يَهديه إلى الحَقِّ، وهو عَقلُه، فلا يَحتاجُ إلَّا إلى ما يُذكِّرُه فيَتذَكَّرُ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).

الآيات (٣٠-٤٠)

﴿ ووَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ
ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا
عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا
ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ
مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نِعْمَ﴾: كلمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ بإزاءِ (بِئْسَ)[(١)].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: أي: الخَيلُ القائِمةُ على ثلاثِ قوائِمَ، وأقامت واحِدةً على طَرفِ الحافِرِ، وأصلُ (صفن): يدُلُّ على جِنسٍ مِن القيامِ[(٢)].

﴿ٱلْجِيَادُ﴾: أي: الخَيلُ السِّراعُ، جمعُ جوادٍ، وأصلُ (جود): يدُلُّ على تَسَمُّحٍ بالشَّيءِ، وكَثرةِ عَطاءٍ[(٣)].

﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾: أي: استترَتْ وتَغيَّبت بما يَحجُبُها عن الأبصارِ، يُقالُ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

واريْتُ كذا: إذا ستَرْتَه، والتَّواري: الاستتارُ، وأصلُ (حجب): المنعُ[١].

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾: طَفِق من أفعالِ المُقارَبةِ للشُّروعِ فِي الفعلِ، يُقالُ: طَفِق يَفعَلُ كذا، كما يُقالُ: ظَلَّ يَفعلُ كذا، وأخَذ يفعلُ كذا، وأصلُ (مسح): يدُلُّ على إمرارِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، ويُطلَقُ على القطعِ، يُقالُ: مسَح رأسَه؛ إذا قطَعه[٢].

﴿بِٱلسُّوقِ﴾: جمعُ ساقٍ؛ وسمِّيَت بذلك لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[٣].

﴿رُخَآءً﴾: أي: رِخوةً لَيِّنةً، وأصلُ (رخو): يدُلُّ على لِينٍ[٤].

﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾: أي: حيثُ أراد، مِن قولِهم: أصاب اللهُ بك خيرًا: أي: أراد الله بك خيرًا، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[٥].

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بَعضُهم إلى بَعضٍ، أو مُقَرَّنةً أيديهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣) و(٥/ ٣٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

وأرجُلهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(١)].

﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾: أي: الأغلالِ والقُيودِ، واحدُها صَفَدٌ، كأصنامٍ وصنَمٍ، وأصلُ (صفد): يدُلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ[(٢)].

﴿فَٱمۡنُنۡ﴾: أي: أعْطِ وأنْفِقْ، وأصلُ (المنة): النِّعمةُ الثَّقيلةُ[(٣)].

﴿لَزُلۡفَىٰ﴾: أي: قُرْبى، ومَنزِلةً عاليةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾

قَولُه: ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ في نَصبِه أوجهٌ:

أحدُها: أنَّه مَفعولُ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾؛ لتَضمينِه معنى (آثَرْتُ)، و﴿عَن﴾ بمعنى (على)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكْرِ رَبِّي.

الثاني: أنَّ ﴿حُبَّ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ لـ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ على حَذْفِ الزَّوائِدِ، أو نائِبٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٢٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤).

عن المصدَرِ؛ لأنَّه اسمُ مَصدرٍ.

الثالثُ: أنَّه مَصدرٌ تشبيهيٌّ منصوبٌ، أي: حُبًّا مِثلَ حُبِّ الخَيرِ.

الرَّابعُ: قيل: إنَّ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مِنْ أحَبَّ البعيرُ: إذا سَقَطَ وبَرَك مِن الإعياءِ. والمعنى: قَعَدْتُ عن ذِكْر ربِّي، فيكونُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مَفعولًا لأجْلِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن قصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ووَهَبْنا لداودَ ابنَه سُلَيمانَ، نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى؛ إذ عُرِضَ عليه آخِرَ النَّهارِ الخُيولُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت، وأنَّها سريعةُ العَدْوِ، فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ عن ذِكرِ رَبِّي. إلى أنْ غابَتْ، ثمَّ أمَرَ مَن تحتَ يَدِه فقال: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد اختبَرْنا سُلَيمانَ، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه وتابَ وقال: ربِّ اغفِرْ لي، وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحدٍ مِن بَعدي؛ إنَّك أنت الوهَّابُ. فاستجابَ اللهُ تعالى له دُعاءَه؛ فسَخَّرَ له الرِّيحَ تَجري رِخوةً لَيِّنةً إلى حيثُ أراد، وسخَّرَ له الشَّياطينَ؛ كُلَّ بنَّاءٍ منهم وكُلَّ غَوَّاصٍ، وآخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ مُوثَقينَ في القُيودِ.

ثمَّ قال اللهُ تعالى لنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ هو عَطاؤُنا لك؛ فأعْطِ مَن شِئْتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ؛ فلا حِسابَ عليك، ولا حرَجَ في ذلك، وإنَّ لك عِندَنا مَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٧٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٢٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثنَى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ، وذكَرَ ما جرَى له ومنه؛ أثنَى على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[1]، فقال:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

أي: ووهَبْنا لِداودَ ابنَه سُلَيمانَ[2].

﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

أي: نِعمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[3].

﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩).

قيل: رَجَّاعٌ إلى الله في جميعِ أحوالِه؛ بالتَّألُّهِ والإنابةِ، والمَحَبَّةِ والذِّكرِ، والدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والاجتِهادِ في مَرْضاةِ الله، وتقديمِها على كلِّ شَيءٍ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقيل: المرادُ: أنَّه أوَّابٌ إلى أمرِ الله ونَهْيِه، أي: إذا حصَل له ما يُبعِدُه عن ذلك تَذَكَّر فآبَ، أي: فتاب. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

أي: إذ[١] عُرِضَ على سُلَيمانَ في آخِرِ النَّهارِ الخَيلُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت[٢]، وأنَّها سريعةٌ في عَدْوِها إذا ركَضَت[٣].

---

(١) قيل: ﴿إِذۡ﴾ مِن صِلةِ ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: إنَّه تَوَّابٌ إلى اللهِ مِن خَطيئتِه الَّتي أخطأها حينَ عُرِضَ عليه بالعَشيِّ الصَّافناتُ الجِيادُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١).

وقيل: ﴿إِذۡ﴾ مفعولٌ به لفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يا مُحمَّدُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ أي: الَّتي تَقِفُ على ثلاثِ قوائِمَ وطَرَفِ حافِرِ القائمةِ الرَّابعةِ؛ بحيث لا تَعتمِدُ عليها في وُقوفِها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والثعلبي، وابن كثير، وابن عاشور، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠٠)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وتلك مِن علاماتِ خِفَّتِه الدَّالَّة على كَرمِ أصلِ الفَرَسِ، وحُسنِ خِلالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي القائِمةُ عُمومًا، سواءٌ كانت على ثلاثٍ أو غيرِ ثلاثٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٣).

وممَّن اختار مِن السَّلفِ أنَّ الصُّفُونَ: القيامُ وبَسْطُ القوائمِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١ - ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩: ١٥٦).

و﴿ٱلۡجِيَادُ﴾ قيل: هي السَّريعةُ في عَدْوِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، =

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾.

أي: فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ(١) ....

= والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهي إذا استُوقِفَت وقَفَت على أحسَنِ هَيئةٍ... وإذا ركَضَت ركَضَت على أكمَلِ هَيئةٍ... وهذا غايةُ ما يكونُ مِن جَمالِ الخَيلِ: أن تكونَ هيئتُها حينَ الوُقوفِ ممَّا يَسُرُّ النَّفْسَ، وأن يكونَ فِعلُها وأداؤُها حينَ السَّيرِ ممَّا يَنفَعُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي مِنَ الجَودةِ، بمعنى النَّفاسةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(١) قال السمعاني: (أمَّا ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّها الخَيلُ في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ معنى هذا يختلِفُ على حَسَبِ الاختلافِ في القِصَّةِ؛ فأمَّا الَّذين قالوا: إنَّ سُليمانَ عَقَر الخَيلَ لَمَّا اشتَغَل بها حتَّى فاتَتْه الصَّلاةُ، فاختلَفوا في هذا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به الخَيلُ، وزعَموا أنَّ الخَيلَ يقالُ لها: خَيرٌ، و﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ بمعنى: آثَرْتُ، أو بمعنى فِعلٍ يَتعدَّى بـ «عن»، كأنَّه قال: آثَرتُ حُبَّ الخَيلِ فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

والآخَرُ: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به المالُ؛ لأنَّ الخَيلَ وغيرَها مالٌ؛ فهو كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: مالًا.

والثَّالِثُ: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، و﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مَصدرٌ، والتَّقديرُ: أحبَبتُ هذه الخَيلَ مِثلَ حُبِّ الخيرِ، فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

وأمَّا الَّذين قالوا: كان يُصَلِّي فعُرِضَت عليه الخَيلُ فأشار بإزالتِها، فالمعنى أنَّه قال: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخيرِ الَّذي عندَ اللهِ في الآخرةِ؛ بسَبَبِ ذِكرِ رَبِّي، وشغَلَني ذلك عن النَّظَرِ إلى الخَيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٨).

وقال الشوكاني: (و«عن» في ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنَى «على». والمعنَى: آثَرْتُ حُبَّ الخَيلِ على ذِكرِ رَبِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥). =

عن ذِكرِ ربِّي[1] ....

= وقال ابن كثير: (ذَكَر غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والمفسِّرينَ أنَّه اشتَغَل بعَرْضِها حتَّى فاتَ وقتُ صلاةِ العصرِ، والَّذي يُقْطَعُ به أنَّه لم يَترُكْها عمدًا، بل نِسيانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

ممَّن اختار أنَّ فِعلَ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ ضُمِّن معنى (آثَرْتُ)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ ربِّي: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقال ابن عاشور: (وأصلُ تركيبِ ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾: أحببتُ الخيرَ حُبًّا، فحُوِّل التَّركيبُ إلى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾؛ فصار حُبُّ الخَيرِ تمييزًا لإسنادِ نِسبةِ المَحَبَّةِ إلى نفْسِه، لغرضِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقال ابنُ جرير: (ويعني بقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: أحببْتُ حبًّا للخيرِ، ثمَّ أُضيف الحبُّ إلى الخيرِ. وعُنيَ بالخيرِ في هذا الموضعِ الخيلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابِها، و﴿حُبَّ﴾ الثَّانيةُ على بابِها مِن بابِ التَّوكيدِ، كأنَّه أحَبَّ حُبَّ الخيلِ، فضلًا عن الخَيلِ، ومَن أحَبَّ حُبَّ الشَّيءِ لَزِم أن يكونَ مُحِبًّا للشَّيءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ بمعنَى أنَّ هذه المحبَّةَ الشَّديدةَ إنَّما حَصَلتْ عن ذِكرِ اللهِ وأمْرِه، لا عن الشَّهوةِ والهوَى. وممَّن اختاره: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠).

(١) قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الصَّلاةُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٧٧).

ذكر غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ والمفَسِّرين أنَّها صلاةُ العَصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقال ابن عاشور: (لعلَّها صلاةٌ كان رتَّبَها لِنَفْسِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الذِّكرِ، ويدخلُ فيه صَلاةُ العصرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

إلى أنْ غابَتْ عن أعيُنِ النَّاظِرينَ[(١)].

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ٣٣﴾.

أي: أعيدُوا إلي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣ - ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وممَّن قال: إنَّ الَّتي توارتْ بالحِجابِ هي الشَّمسُ وَقتَ غُروبِها: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، وابن رجب، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

قال ابن عثيمين: (الحجابُ هو الأرضُ، فالَّذي يَستُرُها إذا غابَتْ هي الأرضُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٤).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿تَوَارَتْ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، أي: دخَلَت اصطَبلاتِها، فهي الحِجابُ. واستظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤).

قال الرازي: (لو قُلْنا: المرادُ: حتَّى تَوَارَتِ الصَّافِناتُ بالحجابِ، كان معناه أنَّه حِينَ وَقَع بَصَرُه عليها حالَ جَرْيِها كان يقولُ هذه الكلمةَ إلى أنْ غابَتْ عن عَيْنِه، وذلك مُناسِبٌ... قالَ: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾، ثُمَّ قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، وعَودُ الضَّميرِ إلى أقرَبِ المَذكورَينِ أولَى، وأقربُ المَذكورَينِ هو الصَّافناتُ الجيادُ، وأمَّا العَشِيُّ فأبعَدُهما؛ فكان عَودُ ذلك الضَّميرِ إلى الصَّافناتِ أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

اختلَف المفسِّرونَ في المرادِ من قولِه تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾:

فقيل: إنَّ المراد: قَتْلُ سُليمانَ للخَيلِ، وأنَّه قطَع أعناقَها وسُوقَها. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبي، والبغوي ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والزمخشري، وهو ظاهِرُ اختيار ابن الجوزي، واختاره القرطبيُّ، والبيضاوي، وابن القيِّم، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره البِقاعي، =

= والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

قال ابن الجوزي: (هذا اختيارُ السُّدِّيِّ، ومُقاتلٍ، والفَرَّاءِ، وأبي عُبَيدةَ، والزَّجَّاجِ، وابنِ قُتَيْبةَ، وأبي سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيِّ، والجمهورِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال ابن كثير: (قد يكونُ في شرعِهم جوازُ مِثلِ هذا، ولا سِيَّما إذا كان غضَبًا لله عزَّ وجلَّ بسببِ أنَّه اشتَغَل بها حتَّى خَرَج وقتُ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: مَسَحَ عليها؛ حُبًّا وإكرامًا لها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والجَصَّاصُ، وابنُ حزم، والقاضي أبو يعلى-كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)- والرازيُّ، وأبو حيَّان، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٤٦)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٢)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٥، ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والزُّهْريُّ، وابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال أصحابُ هذا القولِ: وهذا القولُ أشْبَهُ بتأويلِ الآيةِ؛ لأنَّ القولَ بأنَّه قتَلها جمَع على سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ أنواعًا مِن الأفعالِ المذمومةِ؛ منها: تركُ الصَّلاةِ، وأنَّه استولَى عليه الاشتغالُ =

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: ولقد ابتَلَيْنا سُلَيمانَ واختبَرْناه، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا(١)، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه، فعَلِمَ أنَّ الَّذي حَلَّ به مِنَ البلاءِ بسَبَبِ ذَنْبٍ صَدَر منه، فتاب إلى رَبِّه(٢).

= بحبِّ الدُّنيا إلى حيثُ نَسِيَ الصَّلاةَ، وأنَّه بعدَ الإتيانِ بهذا الذَّنْبِ العظيم لم يَشتغِلْ بالتَّوبةِ والإنابةِ البتَّةَ، بل عاقَب خيلًا لا ذنْبَ لها، ومثَّل بها، وأتلَفَ مالًا مُنتفَعًا به. يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

قال الرازي: (والصَّوابُ أنْ نقولَ: إنَّ رِباطَ الخيلِ كان مَندوبًا إليه في دينِهم، كما أنَّه كذلك في دينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ إنَّ سُليمانَ عليه السَّلامُ احتاج إلى الغزوِ فجَلَس، وأمَر بإحضارِ الخَيلِ، وأمَر بإجْرائِها، وذَكَر أنِّي لا أُحِبُّها لأجْلِ الدُّنيا ونَصيبِ النَّفْس، وإنَّما أُحِبُّها لأمْرِ اللهِ وطَلَبِ تَقويةِ دينِه، وهو المرادُ مِن قولِه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أمَر بإعدائِها وتسييرِها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، أي: غابَتْ عن بصرِه، ثمَّ أمَر الرَّائضينَ بأنْ يَرُدُّوا تلكَ الخَيلَ إليه، فلمَّا عادَتْ إليه طَفِقَ يَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها، والغرضُ مِن ذلكَ المسحِ أمورٌ:

الأوَّلُ: تشريفًا لها، وإبانةً لعِزَّتِها؛ لِكَونِها مِن أعظَمِ الأعوانِ في دفعِ العَدُوِّ.

الثَّاني: أنَّه أرادَ أن يُظهِرَ أنَّه في ضبطِ السِّياسةِ والمُلْكِ يَتَّضِعُ إلى حيثُ يُباشِرُ أكثرَ الأمورِ بنفْسِه.

الثَّالثُ: أنَّه كان أعْلَمَ بأحوالِ الخَيلِ وأمراضِها وعُيوبِها، فكان يَمتحِنُها ويَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها حَتَّى يَعلمَ هل فيها ما يدُلُّ على المرضِ؟ فهذا التَّفسيرُ الَّذي ذَكَرْناه يَنطَبِقُ عليه لفظُ القرآنِ انْطِباقًا مُطابِقًا مُوافِقًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

وقيل: المرادُ أنَّه كوى سُوقَها وأعناقَها بكَيِّ الصَّدَقةِ، وحَبَّسها في سبيلِ اللهِ تعالى. حكاه الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨).

(٢) قيل: المرادُ بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: شَيطانٌ جلَسَ على كُرسيِّ مُلكِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنِينَ، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن حجر، والسعدي. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ قَولًا مُحتَمَلًا، وأنَّه أقربُ الأقوالِ إلى =

= ظاهِرِ اللَّفظِ، ونسَبه القرطبيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٨).

وقيل: المرادُ هو ما جاء في الحديثِ أنَّه قال: لَأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ على سبعينَ امرأةً، كُلُّ واحدةٍ تأتي بفارسٍ يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، ولم يَقُلْ: إن شاء اللهُ، فطاف عليهِنَّ، فلم تَحمِلْ إلَّا امرأةٌ واحِدةٌ، وجاءَتْه بشِقِّ رَجُلٍ. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو قالَها لَجاهَدوا في سبيلِ اللهِ)) [البخاري (٣٤٢٤)] وفي روايةٍ: ((ولو قالَ: إنْ شاءَ اللهُ، لم يَحْنَثْ، وكان دَرَكًا له في حاجَتِه)) [مسلم (١٦٥٤)]. فالمرادُ بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ هو هذا، والجَسَدُ المُلْقى هو المولودُ شِقَّ رَجُلٍ. وقد استظهر هذا القولَ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي، وذكر أبو حيَّان أنَّ هذا القَولَ هو أقرَبُ ما قيل في ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥، ١٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (وغايتُه تَرْكُ الأَولى، فليس بذَنْبٍ، وإن عدَّه هو عليه السَّلامُ ذنْبًا، فالمرادُ بالجسَدِ ذلك الشِّقُّ الَّذي وُلِد له، ومعنى إلقائِه على كُرسيِّه وضْعُ القابلةِ له عليه لِيَراه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((حاشية الشهاب تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١١).

وقال الشنقيطيُّ في تفسيرِ الآيةِ (٢٣) من سورة الكهف: (اعلَمْ أنَّ هذا الحديثَ الصَّحيحَ بيَّن معنى قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ الآيةَ، وأنَّ فِتنةَ سُليمانَ كانت بسببِ تركِه قولَ «إن شاء الله»، وأنَّه لم يَلِدْ مِن تلك النِّساءِ إلَّا واحدةٌ نِصْفَ إنسانٍ، وأنَّ ذلك الجسَدَ الَّذي هو نِصفُ إنسانٍ هو الَّذي أُلْقِيَ على كُرسيِّه بعدَ مَوتِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ الآيةَ. فما يَذكُرُه المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآيةَ، مِن قصَّةِ الشَّيطانِ الَّذي أخَذ الخاتمَ وجلَس على كُرسيِّ سُلَيمانَ، وطَردِ سُلَيمانَ عن مُلكِه حتَّى وجَد الخاتمَ في بطنِ السَّمكةِ الَّتي أعطاها له مَن كان يَعملُ عندَه بأجرٍ مطرودًا عن مُلكِه، =

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: رَبِّ استُرْ علَيَّ ذنْبي، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتي به[1].

﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾.

أي: وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحَدٍ سِوايَ مِثلُه[2].

= إلى آخِرِ القِصَّة: لا يخفى أنَّه باطلٌ لا أصلَ له، وأنَّه لا يَليقُ بمقامِ النُّبوَّة، فهي مِن الإسرائيليَّاتِ الَّتي لا يَخفى أنَّها باطلةٌ. والظَّاهِرُ في معنى الآيةِ هو ما ذكَرْنا، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ الصَّحيحةُ عليه في الجملةِ، واختاره بعضُ المُحقِّقينَ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القاضي عياضٌ: (ولا يَصِحُّ ما نقله الأَخْباريُّون مِن تشبُّهِ الشَّيطانِ به، وتسلُّطِه على مُلكِه، وتصرُّفِه في أمَّتِه بالجَورِ في حُكمِه؛ لأنَّ الشَّياطينَ لا يُسَلَّطون على مِثلِ هذا، وقد عُصِم الأنبياءُ مِن مِثلِه). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشُّمُنِّي)) (٢/ ١٦٧).

وذكر ابنُ عثيمين احتمالًا أن يكونَ المرادُ سليمانَ نفْسَه، سلَبَ اللهُ تعالى منه التَّفكيرَ وتدبيرَ شؤونِ المملكةِ، فصار لا يُحسِنُ التَّدبيرَ، وأنَّ هذا الاحتمالَ أقرَبُ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا سُلِب عقله وتفكيره فهو بمنزلةِ الجسدِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني)) (٢/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ عطية، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: لا يَصلُحُ لأحدٍ أن يَسلُبَنيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سُلَيمانَ بنَ داودَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا بنى بيتَ المَقدِسِ سأل اللهَ عزَّ وجَلَّ خِلالًا ثلاثةً: سأل اللهَ عزَّ وجلَّ حُكمًا يُصادِفُ حُكمَه، فأُوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فأوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ حينَ فَرَغ مِن بناءِ المسجِدِ ألَّا يأتيَه أحَدٌ لا يَنهَزُه[١] إلَّا الصَّلاةُ فيه أن يُخرِجَه مِن خَطيئتِه كيَومَ ولَدَتْه أمُّه))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ عِفريتًا مِن الجِنِّ جَعَل يَفتِكُ[٣] علَيَّ البارحةَ؛ لِيَقطَعَ علَيَّ الصَّلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكَنَني منه فذَعَتُّه[٤]، فلقد همَمْتُ أن أربطَه إلى جَنبِ ساريةٍ مِن سواري المسجِدِ، حتَّى تُصبِحوا تَنظُرونَ إليه أجمَعونَ -أو كُلُّكم- ثمَّ ذكَرْتُ قَولَ أخي

= والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣، ١٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٥).

(١) لا يَنهَزُه: أي: لا يُحَرِّكُه ويَدفَعُه. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه النَّسائي (٦٩٣) واللفظ له، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٦٦٤٤).

صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (١٦٣٣)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، وابنُ القيِّم في ((المنار المُنيف)) (٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٦٩٣)، وصحَّح إسنادَه القرطبيُّ في ((التفسير)) (٥/ ٢٠٧)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٨)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٢٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٦٣٣).

(٣) أي: يغفلُه عن الصلاةِ ويَشغلُه. وأصل الفَتكِ: القتلُ على غفلةٍ وغِرَّةٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٥/ ١٩١)، ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٢/ ١٥٠).

(٤) أي: خنَقْتُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٢٩).

سُلَيمانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، فرَدَّه اللهُ خاسِئًا))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قام فصلَّى صلاةَ الصُّبحِ وهو خَلْفَه، فقرأَ فالتبَسَتْ[٢] عليه القِراءةُ، فلمَّا فرَغَ من صلاتِه قال: لو رأيتُموني وإبليسَ، فأهوَيتُ بيَدي، فما زِلتُ أخنُقُه حتَّى وَجدْتُ بَرْدَ لُعابِه بيْنَ إصْبَعَيَّ هاتَينِ: الإبهامِ والَّتي تليها! ولولا دَعوةُ أخي سُلَيمانَ لأصبَحَ مَربوطًا بساريةٍ مِن سواري المسجدِ يَتلاعَبُ به صِبيانُ المدينةِ! فمَنِ استطاع منكم ألَّا يَحولَ بيْنَه وبيْنَ القِبلةِ أحَدٌ فلْيَفعَلْ))[٣].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك كثيرُ الهِباتِ والعَطاءِ لِمَن تَشاءُ مِمَّا تَشاءُ مِن خزائِنِ رَحمتِك وفَضلِك[٤].

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾.

أي: فاستَجَبْنا دُعاءَ سُلَيمانَ بإعطائِه مُلكًا عَظيمًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فذَلَّلْنا لأجْلِه الرِّيحَ طائِعةً له كيفما يأمُرُها، فتَهُبُّ رِخوةً في غايةِ اللِّينِ إلى حيثُ أراد[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) واللفظ له.

(٢) التَبَسَت: أي: اختَلَطت واشتَبَهَت. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٦٩٩) مختصرًا، وأحمدُ (١١٧٨٠) واللفظ له.

جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٢٩٣)، وابنُ رجب في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٩٧)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٩٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٦٩٩): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤، ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير =

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: وسَخَّرْنا له الشَّياطينَ، فذلَّلْنا كُلَّ بَنَّاءٍ منهم، فيَبنونَ له ما يأمُرُهم ببنائِه؛ وذلَّلْنا كُلَّ غوَّاصٍ منهم، فيَغوصونَ له في البِحارِ، فيَستَخرِجونَ له اللآلِئَ وغيرَها[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: وذَلَّلْنا لسُلَيمانَ آخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ حتَّى قَرَنَهم في القُيودِ، وأوثَقَهم في الأغلالِ[2].

= البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩، ١٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿ حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ إجماعُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ أنَّه حيث أراد، وحقيقتُه: قَصَدَ، وكذلك قَولُك للمُجيبِ في المسألةِ: أصَبْتَ، أي: قصَدْتَ، فلم تُخطِئِ الجوابَ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الماوَرْدي: (﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: تَحمِلُ ما يأمُرُها. الثَّاني: تجري إلى حيثُ يأمُرُها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ الَّذي سألْتَ هو عَطاءٌ عَظيمٌ واسِعٌ وهَبْناه لك؛ فأعْطِ مَن شِئتَ مِنَ النَّاسِ، واحرِمْ مَن شِئتَ؛ فلا حرَجَ ولا مُؤاخَذةَ عليك في ذلك(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠ - ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).
قال ابن جُزَي: (﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ ﴾ الإشارةُ إلى المُلكِ الَّذي أعطاه الله له، والمعنى: أنَّ الله قال له: أعطِ مَن شِئتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ. وقيل: المعنى: امنُنْ على مَن شِئتَ مِن الجنِّ بالإطلاقِ مِن القُيودِ، وأمسِكْ مَن شِئتَ منهم في القيودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩).
وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠، ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).
وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).
وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦).
قال الماوَرْدي: (﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: بغيرِ تقديرٍ فيما تُعطي وتَمنعُ، حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: بغيرِ حرَجٍ، قاله مجاهدٌ. الثَّالثُ: بغيرِ حسابٍ تُحاسَبُ عليه يومَ القيامةِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيْر). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٠).
وممَّن قال: إنَّ معنى ﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾: بغيرِ مُؤاخَذةٍ عليك في ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦). =

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على سُليمانَ في الدُّنيا؛ أردَفَه بإنعامِه عليه في الآخِرةِ(١).

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾.

أي: وإنَّ لِسُلَيمانَ عِندَنا قُربةً مِنَّا ومَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للعَبدِ، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه يَجِبُ على العَبدِ شُكرُ اللهِ على هذه النِّعمةِ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾

= قال السَّعدي: (أي: لا حرَجَ عليك في ذلك ولا حِسابَ؛ لِعلمِه تعالى بكَمالِ عَدلِه، وحُسنِ أحكامِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وقيل: المرادُ: أنَّه عَطاءٌ واسِعٌ لا تَضييقَ عليك فيه، على أن جُملَتَيْ ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ مُعْترِضَتانِ بيْن قولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

وقيل: المرادُ: أعطِ مَن شِئتَ بغيرِ حِسابٍ؛ لأنَّك لا تخشى مِن نَقصِه، ولا تُسألُ عنه في الآخرةِ؛ لأنَّه قد أُذِنَ لك؛ فنَفْيُ الحِسابِ عنه يُفيدُ شيئينِ: الكَثرةَ، وعدَمَ المؤاخَذةِ في إعطاءٍ أو مَنعٍ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- أنَّ كُلَّ ما شَغَل العَبدَ عن اللهِ تعالى، فإنَّه مَشؤومٌ مَذمومٌ، فلْيُفارِقْه، ولْيُقبِلْ على ما هو أنفَعُ له[١].

٣- قَولُ الله تعالى حكايةً عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجعَل سُلَيمانُ يُعَرقِبُ[٢] سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِحِرمانِ نَفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ تَوبةً منه، وتربيةً لِنَفْسِه، وهذه طريقةٌ جَليلةٌ مِن طرائِقِ تَربيةِ النَّفْسِ، ومَظاهِرِ كَمالِ التَّوبةِ بالنِّسبةِ إلى ما كان سَبَبًا في الهَفوةِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ الآياتُ المُتعَلِّقةُ بنَدَمِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ على الاشتِغالِ بالخَيلِ عن ذِكرِ اللهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَوقِعُ أُسوةٍ به في مُبادَرةِ التَّوبةِ، وتحذيرٌ مِن الوُقوعِ في الغفلةِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ يدُلُّ على أنَّه يَجِبُ تَقديمُ مُهِمِّ الدِّينِ على مُهِمِّ الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَب المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ بَعْدَه طَلَب المَملَكةَ[٥]؛ وذلك لأنَّ زَوالَ أثَرِ الذُّنوبِ هو الَّذي يَحصُلُ به المقصودُ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) أي: يَقْطعُ عُرْقُوبَها، وهو الوَتَرُ الَّذي خَلْفَ الكَعبَين بيْنَ مَفْصِلِ القَدَمِ والسَّاقِ مِن ذَواتِ الأَرْبَعِ، وهو مِنَ الإنسانِ فُوَيْقَ العَقِبِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

فالذُّنوبُ في الحقيقةِ تَتراكَمُ على القَلبِ، وتَمنَعُه مِن كثيرٍ من المصالحِ، فيَسأَلُ الإنسانُ التَّخلُّصَ مِن آثارِ هذه الذُّنوبِ قبْلَ أنْ يَسأَلَ ما يُريدُ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على أنَّ طَلبَ المَغفرةِ مِن اللهِ تعالى سبَبٌ لانفِتاحِ أبوابِ الخَيراتِ في الدُّنيا؛ لأنَّ سُليمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ توسَّلَ به إلى طَلَبِ المَملَكةِ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ فيه تنبيهٌ على القاعِدةِ المَشهورةِ: (مَن ترك شَيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه)؛ فسُليمانُ عليه السَّلامُ عَقَرَ الجيادَ الصَّافِناتِ المحبوبةَ للنُّفوسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ تقديمًا لمحبَّةِ اللهِ، فعَوَّضه اللهُ خيرًا من ذلك، بأنْ سَخَّر له الرِّيحَ الرُّخاءَ اللَّيِّنةَ الَّتي تجري بأمْرِه إلى حيثُ أرادَ وقَصَد، غُدُوُّها شَهرٌ، ورَواحُها شَهرٌ، وسَخَّر له الشَّياطينَ أهلَ الاقتِدارِ على الأعمالِ الَّتي لا يَقدِرُ عليها الآدَميُّونَ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ فيه أنَّ سُليمانَ عليه السَّلامُ من مِنَنِ اللهِ وفضائلِه على داودَ عليه السَّلامُ؛ حيثُ وهَبَه له، وأنَّ من أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه أن يَهَبَ له ولَدًا صالِحًا، فإنْ كان عالِمًا كان نورًا على نورٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢). ويُنظر أيضًا: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهذه الكَلِمةُ للتَّعليلِ؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه إنَّما كان نِعْمَ العَبدُ لأنَّه كان أوَّابًا، فيَلزَمُ أنَّ كُلَّ مَن كان كثيرَ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى في أكثَرِ الأوقاتِ، وفي أكثَرِ المُهِمَّاتِ؛ كان موصوفًا بأنَّه نِعمَ العَبدُ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ هو سَبَبُ الثَّناءِ عليه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فضيلةُ الأَوبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والرُّجوعِ إليه بالقَلبِ والعَمَلِ؛ لأنَّ اللهَ أثنَى على سُلَيمانَ بسَبَبِ ذلك[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أنَّ الصَّلاةَ يقالُ لها: «ذِكْرٌ» كما هي، وفيها أفعالٌ[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّه لَمَّا أَثْبَت أنَّها تَتوارَى بالحِجابِ دلَّ هذا على أنَّ الأرضَ هي الَّتي تَحْجُبُها، وهي كما تُشاهَدُ تَنْزِلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تكونَ في الأرضِ، فيدُلُّ ذلك على أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، وهذا أيضًا أمرٌ مقطوعٌ به، ولا إشكالَ فيه؛ فهو ظاهرٌ مِن القرآنِ، وظاهرٌ في الواقعِ؛ ففي القرآنِ يقول اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وذلك يكونُ يومَ القيامةِ، فقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدُلُّ على أنَّها قبْلَ هذا ليست ممدودةً، بل هي كرويَّةٌ، وهذا لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٨).

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ * وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ * وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها باعتبارِ المُشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وَقَفْتَ على الأرضِ تجدُها مستويةً إلى مَدِّ البصرِ(١).

٧- يَنقَسِمُ الأنبياءُ عليهم السَّلامُ إلى عَبدٍ رَسولٍ، ونَبيٍّ مَلِكٍ، وقد خَيَّرَ اللهُ سُبحانَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ أنْ يكونَ عَبدًا رَسولًا، وبيْنَ أنْ يكونَ نَبيًّا مَلِكًا، فاختار أنْ يكونَ عبدًا رَسولًا.

فالنَّبيُّ المَلِكُ مِثلُ داودَ وسُلَيمانَ ونحوِهما -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ سُليمانَ الَّذي: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ * فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: أَعْطِ مَن شِئتَ، واحرِمْ مَن شِئْتَ، لا حِسابَ عليك؛ فالنَّبيُّ المَلِكُ يَفعَلُ ما فَرَض اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّم اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الوِلايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويختارُ مِن غَيرِ إثمٍ عليه.

وأمَّا العَبدُ الرَّسولُ فلا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ رَبِّه، ولا يُعطي مَن يَشاءُ ويَحرِمُ مَن يَشاءُ، بل جاء عنه أنَّه قال: ((ما أُعْطيكم ولا أَمْنَعُكم، أنا قاسِمٌ، أضَعُ حيثُ أُمِرتُ))(٢).

والمقصودُ هنا أنَّ العَبدَ الرَّسولَ هو أفضَلُ مِن النَّبيِّ المَلِكِ، كما أنَّ إبراهيمَ وموسى وعيسى ومُحمَّدًا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أفضَلُ مِن يُوسُفَ وداودَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

وسُلَيمانَ -عليهم السَّلامُ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ فيه جوازُ الذُّنوبِ على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك أنَّه لو لم يكنْ ذَنْبٌ لَمَا استَغفرَ، وفيه أيضًا أنهم مُحتاجون إلى مَغفرةِ اللهِ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ هذا أدبُ الأنبياءِ والصَّالحينَ مِن طَلَبِ المَغفرةِ مِنَ اللهِ؛ هَضمًا لِلنَّفْسِ، وإظهارًا لِلذِّلَّةِ والخُشوعِ، وطَلَبًا لِلتَّرَقِّي في المَقاماتِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعنيُّونَ أكثرَ بأمورِ الآخرةِ؛ ولهذا طَلَبَ مِن اللهِ المَغفرةَ قبْلَ أنْ يَطلُبَ المُلْكَ[٤].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ إنْ قيل: كيف سأل سُلَيْمانُ المُلكَ، وهو مِن ناحيةِ الدُّنيا، وهو نَبيٌّ مِن الأنبياءِ، وإنَّما يَرغَبُ في المُلْكِ أهلُ الدُّنيا المُؤثِرونَ لها على الآخِرةِ؟

فالجواب: أنَّ سُليمانَ عليه السَّلامُ إنَّما سأل المُلكَ لسياسةِ النَّاسِ، وإنصافِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، والقيامِ بحَقِّ اللهِ، ولِيَستعينَ به على طاعةِ اللهِ، ولم يَسألْه لأجْلِ مَيلِه إلى الدُّنيا، وهو كقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٤).

حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1] [يوسف: ٥٥].

وأيضًا فرَغبتُه إلى رَبِّه فيما يَرغَبُ إليه مِن المُلْكِ لم تكُنْ -إن شاء اللهُ- به رَغبةٌ في الدُّنيا، ولكِنْ إرادةٌ منه أن يَعلَمَ مَنزِلتَه من اللهِ في إجابتِه فيما رَغِبَ إليه فيه، وقَبولِه تَوبتَه، وإجابتِه دُعاءَه[2].

١٢- إن قال لنا قائِلٌ: ما وجْهُ مَسألةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ ربَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، وما كان يَضُرُّه أن يكونَ كُلُّ مَن بعدَه يُؤتَى مِثلَ الَّذي أُوتيَ مِن ذلك؟

فالجوابُ: أنَّ مَسألتَه رَبَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، قد قيلَ: إنَّ معنى ذلك: هَبْ لي مُلْكًا لا أُسلَبُه، وإنَّما معناه عندَ هؤلاء: هَبْ لي مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ من بَعدي أن يَسلُبَنيه.

وقد يَتَّجِهُ ذلك أن يكونَ بمعنى: لا ينبغي لأحَدٍ سِوايَ مِن أهلِ زماني، فيَكونَ حُجَّةً وعَلَمًا لي على نُبُوَّتي، وأنِّي رسولٌ لك إليهم مَبعوثٌ؛ إذ كانت الرُّسُلُ لا بدَّ لها مِن أعلامٍ تُفارِقُ بها سائِرَ النَّاسِ سِواهم. ويَتَّجِهُ أيضًا لأن يكونَ مَعناه: وهَبْ لي مُلكًا تَخُصُّني به، لا تُعطيه أحدًا غيري، تَشريفًا مِنك لي بذلك وتَكرِمةً؛ لِتُبَيِّنَ مَنزلتي منك به مِن مَنازِلِ مَن سِوايَ[3].

وقيل: أرادَ أنْ يَقولَ: مُلْكًا عَظيمًا، فقال: لا يَنبَغي لِأحَدٍ من بَعدِي، ولم يَقصِدْ بذلك إلَّا عِظَمَ المُلْكِ وسَعَتَه، كما تَقولُ: لِفُلانٍ ما ليس لِأحَدٍ مِنَ الفَضلِ والمالِ، ورُبَّما كان لِلنَّاسِ أمثالُ ذلك، ولكِنَّكَ تُريدُ تَعظيمَ ما عِندَه[4].

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((فتح الرحمن)) =

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فيه أنَّ تَسخيرَ الشَّياطينِ لا يكونُ لأحَدٍ بعدَ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ(١).

١٤- قولُه تعالى حكايةً عن سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ فيه جوازُ طَلَبِ الإنسانِ المُلْكَ؛ ولكنْ يُشترَطُ في ذلك أنْ يكونَ لدى الإنسانِ استِعدادٌ للقيامِ بما سَأل(٢).

١٥- التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بالاسمِ المناسِبِ لِمَا يَدعو به؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ يُناسِبُ قَولَه: ﴿وَهَبۡ لِي﴾، وهذا هو أحدُ معاني قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فإنَّ أحدَ معانيها أنْ تَجعَلَها وَسيلةً لِمَا تدعو به؛ فإنْ أرَدْتَ أنْ تسألَ المَغفِرةَ تَقولُ: يا غَفورُ، أوِ الرَّحمةَ فتَقولُ: يا رحيمُ... وهكذا(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يُسَخِّرُ شَيئًا مِن الكَونِ لعبدٍ مِن عِبادِه، كما سَخَّرَ الرِّيحَ لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فإنَّه مِن الجائزِ أنْ يُسَخِّرَها لغيرِه إذا دُعِيَ(٤).

١٧- الرِّياحُ لها شعورٌ واختيارٌ؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه إذا كان يأمُرُها وتَشْعُرُ بالأمرِ ثمَّ تمتثلُ؛ فهو دليلٌ أنَّ لها شعورًا ولها إرادةً(٥).

١٨- قال الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ وصَفَ اللهُ تعالى الرِّيحَ

= للأنصاري (ص: ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

المذكورةَ هنا بأنَّها تَجري بأمرِه رُخاءً، ووصَفَها في سورةِ (الأنبياء) بأنَّها عاصِفةٌ، أي: شَديدةُ الهُبوبِ، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، والعاصِفةُ غَيرُ التي تجري رُخاءً، فكيف يُجمَعُ بيْنَهما؟

والجوابُ: مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّها عاصِفةٌ في بعضِ الأوقاتِ، ولَيِّنةٌ رُخاءٌ في بَعضِها؛ بحَسَبِ الحاجةِ، كأنْ تَعصِفَ ويَشتَدَّ هُبوبُها في أوَّلِ الأمرِ، حتَّى تَرفَعَ البِساطَ الَّذي عليه سُلَيمانُ وجُنودُه، فإذا ارتفَعَ سارت به رُخاءً حيثُ أصاب[١]، أو يكونَ ذلك باختِلافِ الأحوالِ؛ فإذا أراد سُلَيمانُ عليه السَّلامُ الإسراعَ في السَّيرِ سارت عاصِفةً، وإذا أراد اللِّينَ سارت رُخاءً، والمقامُ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ المُواتاةُ لإرادةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ المُشعِرُ باختِلافِ مَقصدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ منها[٢].

الثَّاني: أنَّها كانت في نَفْسِها رَخيَّةً طَيِّبةً كالنَّسيم، فإذا مَرَّت بكُرسيِّه أبعَدَت به في مُدَّةٍ يَسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جَمْعُها بيْنَ الأمْرَينِ: أن تكونَ رُخاءً في نَفْسِها، وعاصِفةً في عَمَلِها، مع طاعَتِها لسُلَيمانَ، وهُبوبِها على حَسَبِ ما يُريدُ[٣].

الثَّالث: أنَّ الرُّخاءَ في البُداءةِ، والعصْفَ بعْدَ ذلك[٤].

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

الرَّابع: أنَّها كانت رُخاءً في ذهابه، وعاصفةً في رجوعِه إلى وطنِه؛ لأنَّ عادةَ المسافرينَ الإسراعُ في الرُّجوعِ[١].

١٩- قال الله تعالى هنا: ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴾، وقال في (الأنبياء): ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء: ٨١]، والسُّؤالُ هو أنَّه في سورةِ (الأنبياء) خَصَّ جَرْيَها به بكَونِه إلى الأرضِ الَّتي بارك فيها للعالَمينَ، وفي سورةِ (ص) قال: ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ وقَولُه: ﴿ حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ يدُلُّ على التَّعميمِ في الأمكِنةِ الَّتي يُريدُ الذَّهابَ إليها على الرِّيحِ؟

والجوابُ: أنَّ قولَه: ﴿ حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ يدُلُّ على أنَّها تجري بأمْرِه حَيثُ أراد مِن أقطارِ الأرضِ، وقولَه: ﴿ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾؛ لأنَّ مَسكَنَه فيها، وهي الشَّامُ، فتَرُدُّه إلى الشَّامِ، وعليه فقَولُه: ﴿ حَيۡثُ أَصَابَ ﴾ في حالةِ الذَّهابِ، وقولُه: ﴿ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾ في حالةِ الإيابِ إلى محَلِّ السُّكنى؛ فانفَكَّتِ الجِهةُ، فزال الإشكالُ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ جوازُ التَّعزيرِ -إذا كان بحقٍّ، ولِمَن يَستحِقُّ- بمثلِ هذا العَمَلِ، أي: بالشَّدِّ والغَلِّ؛ وذلك لأنَّ التَّعزيرَ لا يَختَصُّ بعُقوبةٍ مُعَيَّنةٍ؛ لأنَّ المقصودَ به الإصلاحُ، فأيُّ عُقوبةٍ كان بها الإصلاحُ فهي الواجبةُ[٣].

٢١- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ التَّنبيهُ على كَثرةِ خَيرِ اللهِ وبرِّه بعَبيدِه: أنْ يَمُنَّ عليهم بصَالحِ الأعمالِ ومَكارِمِ الأخلاقِ، ثمَّ يُثنيَ عليهم بها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨١).

وهو المتفَضِّلُ الوهَّابُ[١].

٢٢- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ: أنَّ الأنبياءَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم مَعصومون مِنَ الخَطَأِ فيما يُبَلِّغونَ عن اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَقصودَ الرِّسالةِ لا يَحصُلُ إلَّا بذلك، وأنَّه قد يجري منهم بعضُ مُقتَضياتِ الطَّبيعةِ مِن المعاصي، ولكِنَّ اللهَ يَتدارَكُهم، ويُبادِرُهم بلُطفِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ الكَلامُ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِبَسطِ قِصَّةِ سُلَيمانَ بَعدَ أنْ بَسَطَ قِصَّةَ داودَ، وجَعَلَ التَّخَلُّصَ إلى مَناقِبِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ مِن جِهةِ أنَّه مِن مِنَنِ اللهِ على داودَ عليه السَّلامُ؛ فكانت قِصَّةُ سُلَيمانَ كالتَّكمِلةِ لِقِصَّةِ داودَ. ولهذه النُّكتةِ لم تُفتَتَحْ قِصَّةُ سُلَيمانَ بعِبارةِ: (وَاذْكُرْ)، كما افتُتِحتْ قِصَّةُ داودَ، ثم قِصَّةُ أيُّوبَ، والقِصَصُ بَعْدَها، مُفَصَّلُها ومُجمَلُها، غَيرَ أنَّها لم تَخْلُ مِن مَواضِعِ أُسوةٍ وعِبرةٍ وتَحذيرٍ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ الإرشادِ[٣].

- وجُملةُ ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثَناءٌ على سُلَيمانَ ومَدحٌ له بأنَّه مِن جُملةِ مَنِ استَحَقُّوا عُنوانَ (العَبدُ للهِ)، وهو العُنوانُ المَقصودُ منه التَّقريبُ بالقَرينةِ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِه، أيْ: نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تَعليلٌ لِلثَّناءِ عليه بـ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾. والأوَّابُ: مُبالَغةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

في الآئبِ، أيْ: كَثيرُ الأوْبِ، أيْ: الرُّجوعِ إلى اللهِ؛ بقَرينةِ أنَّه مادِحُه(١). ووُضِعَ ﴿أَوَّابٌ﴾ مَوضِعَ المُسبِّحِ؛ لِأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تَعالى- مِن عِبادَتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه، مُؤوِّبًا لِلتَّسبيحِ، مُرَجِّعًا له؛ لِأنَّ كُلَّ مُؤوِّبٍ أوَّابٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾

- تعَلَّقَ ﴿إِذۡ عُرِضَ﴾ بـ ﴿أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] تَعليقَ تَعليلٍ؛ لِظُهورِ أنْ ليس المُرادُ أنَّه أوَّابٌ في هذه القِصَّةِ فقط؛ لِأنَّ صِيغةَ ﴿أَوَّابٌ﴾ تَقتَضي المُبالَغةَ، والأصلُ منها الكَثرةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَ قِصَّةٍ مِن حَوادِثِ أَوْبَتِه كان لِأنَّها يَنجَلي فيها عِظَمُ أوْبَتِه. وذِكرُ العَشيِّ هنا ليس لِمُجرَّدِ التَّوقيتِ؛ بل لِيُبْنى عليه قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾(٣) [ص: ٣٢].

- وتأخيرُ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظَّرفَينِ ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ لِلتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ(٤).

- والصَّافِناتُ: وَصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، استُغنيَ عن ذِكرِه لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه؛ لِأنَّ الصَّافِنَ لا يكونُ إلَّا مِنَ الخَيلِ والأفراسِ، وهو الَّذي يَقِفُ على ثَلاثِ قَوائِمَ وطَرَفِ حافِرِ القائِمةِ الرَّابِعةِ، لا يُمكِّنُ القائِمةَ الرَّابِعةَ مِنَ الأرضِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾

- كَرَّرَ لَفظَ الحُبِّ مع تَعديَتِه بحَرفِ (عَنْ)؛ لِأنَّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ هنا بمَعنى آثَرتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أيْ: آثَروه، و(عَنْ) بمَعنى (على)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]؛ فيَصيرُ المَعنى: آثَرتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ رَبِّي[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- أو ضَمَّنَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ مَعنى عَوَّضتُ، فعُدِّيَ بـ(عن) في قَولِه: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ فصارَ المَعنى: أحبَبتُ الخَيرَ حُبًّا، فجاوَزتُ ذِكرَ رَبِّي[٢].

- قال سُلَيمانُ عَقِبَ عَرضِ الخَيلِ: إنِّي أحبَبتُ الخَيلَ فغَفَلتُ عن صَلاتي للهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكَلامُه هذا خَبرٌ مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ؛ اعترافًا بما صَدَر عنه مِنَ الاشتِغالِ بها عنِ الصَّلاةِ، ونَدَمًا عليه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِنَ الأمْرِ بردِّها وعَقرِها. والتَّعقيبُ باعتِبارِ أواخِرِ العَرضِ المُستَمِرِّ دُونَ ابتِدائِه، والتَّأكيدُ بـ(إنَّ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اعترافَه ونَدَمَه عن صَميمِ القَلبِ، لا لِتَحقيقِ مَضمونِ الخَبَرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فصيحةٌ، مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذِفتْ ثقةً بدلالهِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سُرعةِ الامتِثالِ بالأمْرِ،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

أيْ: فرَدُّوها عليه، فأخَذَ يَمسَحُ...[١]، وقيل: الفاءُ تَعقيبيَّةٌ[٢].

- وحَرفُ التَّعريفِ في ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ عِوَضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: بسُوقِها وأعناقِها[٣].

- والباءُ في ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ مَزيدةٌ لِلتَّأكيدِ؛ أيْ: تَأكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه[٤].

- قَولُه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ اختُلِفَ في مَعناه، ويَترَتَّبُ على ذلك اختِلافُ الدَّلالاتِ البَلاغيَّةِ؛ فقيلَ: معنى (طَفِقَ) يَمسَحُ أعرافَ الخَيلِ وسُوقَها بيَدِه حُبًّا لها، وهذا هو الجاري على المُناسِبِ لِمَقامِ نَبيٍّ، والأوْفَقُ بحَقيقةِ المَسحِ، ولكِنَّه يَقتَضي إجراءَ تَرتيبِ الجُمَلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ بأنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، أيْ: بَعدَ أنِ استَعرَضَها وانصَرفوا بها لِتأويَ إلى مَذاوِدِها، قال: رُدُّوها علَيَّ، فطَفِقَ مَسحًا بالسُّوقِ والأعناقِ؛ إكرامًا لها ولِحُبِّها، ويُجعَلَ قَولُه: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] مُعترِضًا بيْنَهما، وإنَّما قُدِّمَ؛ لِلتَّعجيلِ بذِكرِ نَدَمِه على تَفريطِه في ذِكرِ اللهِ في بَعضِ أوقاتِ ذِكرِه، أيْ: أنَّه لم يَستَغرِقْ في الذُّهولِ، بل بادَرَ الذِّكرى بمُجَرَّدِ فَواتِ وَقتِ الذِّكرِ الَّذي اعتادَه؛ إذْ لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ من آثارِ نَدَمِه وتَحَسُّرِه، على هذا التَّفسيرِ، وهذا يُفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((لمصدر السابق)).

بأنَّ فَواتَ وَقتِ ذِكرِه نَشَأ عن ذلك الرَّدِّ الَّذي أمَرَ به بقَولِه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾؛ فإنَّهُمْ اعتادوا أنْ يَعرِضوها عليه ويَنصَرِفوا، وقد بَقِيَ ما يَكفي مِنَ الوَقتِ لِلذِّكرِ، فلَمَّا حَمَلتْه بَهجَتُه بها على أنْ أمَرَ بإرجاعِها، واشتَغَل بمَسحِ أعناقِها وسُوقِها، خَرَج وَقتُ ذِكرِه فتَندَّمَ وتَحسَّرَ.

وقيل: إنَّ سُليمانَ لَمَّا نَدِمَ على اشتغالِه بالخَيلِ حتَّى أضاع ذِكرَ اللهِ في وقْتٍ كان يَذكُرُ اللهَ فيه؛ أَمَرَ أنْ تُرَدَّ عليه الخَيلُ الَّتي شَغلَتْه، فجَعَل يُعَرقِبُ سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها؛ لِحِرْمانِ نفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ توبةً منه، وتربيةً لنفْسِه. وأراد ذَبْحَها؛ لِيأكُلَها الفقراءُ. وقيل: لَعَلَّ المَسحَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّوسيمِ بسِمةِ الخَيلِ المَوقوفةِ في سَبيلِ اللهِ بكَيٍّ نارٍ، أو كَشطِ جلدٍ؛ لِأنَّ ذلك يُزيلُ الجلدةَ الرَّقيقةَ الَّتي على ظاهِرِ الجِلدِ، فشُبِّهتْ تلك الإزالةُ بإزالةِ المَسحِ ما على ظَهرِ المَمسوحِ مِن مُلتَصِقٍ به، وعلى هذينِ التَّأويلينِ يكونُ قولُه: ﴿فَطَفِقَ﴾ تَعقيبًا على ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وعلى مَحذوفٍ بعْدَه، والتَّقديرُ: فرَدُّوها عليه فطَفِقَ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ...﴾

- عَطَفَ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) المُفيدِ لِلتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لِأنَّ رُتبةَ الإنابةِ أعظَمُ ذِكرٍ في قَولِه: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[2] [ص: ٣٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

- في قَولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قَدَّمَ الاستِغفارَ على استيهابِ المُلْكِ؛ جَريًا على عادةِ الأنبياءِ والصَّالِحينَ في الأدَبِ، في تَقديمِهم أمْرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦١).

دِينِهم على أُمورِ دُنياهم، ووُجوبِ تَقديمِ ما يَجعَلُ الدُّعاءَ بصَدَدِ الإجابةِ[١].

- وفي إرْدافِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةِ باستيهابِ مُلْكٍ لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ لِأنَّه توقَّعَ مِن غَضَبِ اللهِ أمْرَيْنِ: العِقابَ في الآخِرةِ، وسَلْبَ النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان سُلَيمانُ يَومَئِذٍ في مُلْكٍ عَظيمٍ، فسُؤالُ مَوهِبةِ المُلْكِ مُرادٌ به استِدامةُ ذلك المُلْكِ، وصيغةُ الطَّلَبِ تَرِدُ لِطَلَبِ الدَّوامِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿مُلْكًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وارتَقَى سُلَيمانُ في تَدَرُّجِ سُؤالِه إلى أنْ وَصَف ﴿مُلْكًا﴾ بأنَّه لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يَتأتَّى لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يُعطيهِ اللهُ أحَدًا يَبتَغيه مِن بَعدِه، فكَنَّى بـ ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ عن مَعنى (لا يُعطى لِأحَدٍ)، أيْ: لا تُعطيه أحَدًا مِن بَعدي، وهذا مِنَ التَّأدُّبِ في دُعائِه؛ إذْ لم يَقُلْ: لا تُعطِه أحَدًا مِن بَعدي[٤].

- وحَكى اللهُ دُعاءَ سُلَيمانَ، وهو سِرٌّ بيْنَه وبيْنَ رَبِّه؛ إشعارًا بأنَّه ألْهَمَه إيَّاه، وأنَّه استَجابَ له دَعوَتَه؛ تَعريفًا بِرِضاه عنه، وبأنَّه جَعَل استِجابَتَه مَكرُمةَ تَوبَتِه[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ عِلَّةٌ لِلسُّؤالِ كُلِّه، والدُّعاءِ بالمَغفِرةِ والهِبةِ، وتَمهيدٌ لِلإجابةِ؛ فقامَتْ (إنَّ) مَقامَ حَرفِ التَّفريعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٠).

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (أنْتَ) ضَميرُ فَصلٍ، وأفادَ الفَصلُ به قَصرًا؛ فصارَ المَعنى: أنتَ القَويُّ المَوهِبةِ، لا غيرُك؛ لِأنَّ اللهَ يَهَبُ ما لا يَملِكُ غيرُه أنْ يَهَبَه[1].

- ولَمَّا بالَغَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ في صِفةِ هذا المُلْكِ الَّذي طَلَبه، أتى في صِفَتِه تعالى باللَّفظِ الدَّالِّ على المُبالَغةِ، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، أيْ: الكَثيرُ الهِباتِ، لا يَتَعاظَمُ عِندَه هِبةٌ[2].

- ودَلَّتْ صِيغةُ المُبالَغةِ في ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ على أنَّه تَعالى يَهَبُ الكَثيرَ والعَظيمَ؛ لِأنَّ المُبالَغةَ تُفيدُ شِدَّةَ الكَمِّيَّةِ، أو شِدَّةَ الكَيفيَّةِ، أو كِلتَيْهما، بقَرينةِ مَقامِ الدُّعاءِ، فمَغفِرةُ الذَّنبِ مِنَ المَواهِبِ العَظيمةِ؛ لِمَا يُرَتَّبُ عليه مِن دَرَجاتِ الآخِرةِ، وإعطاءُ مِثلِ هذا المُلْكِ هو هِبةٌ عَظيمةٌ[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ اقتَضَتِ الفاءُ وتَرتيبُ الجُمَلِ أنَّ تَسخيرَ الرِّيحِ وتَسخيرَ الشَّياطينِ كانا بَعْدَ أنْ سأَلَ اللهَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ أنْ أعطاه هاتَينِ المَوهِبتَينِ؛ زِيادةً في قُوَّةِ مُلْكِه، وتَحقيقًا لاستِجابةِ دَعوَتِه؛ لِأنَّه إنَّما سأَلَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ غيرِه، ولم يَسألِ الزِّيادةَ فيما أُعطيَه مِنَ المُلْكِ، ولَعَلَّ اللهَ أرادَ أنْ يُعطيَه هاتَينِ المَوهِبتَينِ، وألَّا يُعطِيَهما أحَدًا بَعْدَه، حتَّى إذا أعطَى أحَدًا بعْدَه مُلْكًا مِثلَ مُلْكِه فيما عدا هاتَينِ المَوهِبتَينِ؛ لم يَكُنْ قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).

أخلَفَ إجابَتَه(١).

- واللَّامُ في ﴿لَهُ﴾ لِلعِلَّةِ، أيْ: لِأجْلِه، أيْ: ذلك التَّسخيرُ كَرامةٌ مِنَ اللهِ له بأنْ جَعَل تَصريفَ الرِّياحِ مُقدَّرًا على نَحوِ رَغبَتِه(٢).

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئَ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجَمْعِ(٣)، وهو أعَمُّ؛ لِعِظَمِ مُلْكِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، وإنْ كان المُفرَدُ بمَعنى الجَمعِ؛ لِكَونِه اسْمَ جِنسٍ(٤).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾

- ﴿كُلَّ﴾ هنا مُستَعمَلةٌ في مَعنى الكَثيرِ، والبَنَّاءُ: الَّذي يَبني، وهو اسمُ فاعِلٍ مَصوغٌ على زِنةِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على مَعنى الصِّناعةِ، مِثلُ نَجَّارٍ وقَصَّارٍ وحَدَّادٍ، والغَوَّاصُ: الَّذي يَغوصُ في البَحرِ لاستِخراجِ مَحارِ اللُّؤلُؤِ، وهو أيضًا مِمَّا صِيغَ على وَزنِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على الصِّناعةِ(٥).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ عَطفٌ على ﴿كُلَّ﴾، كأنَّه فَصَّلَ الشَّياطينَ إلى عَمَلةٍ استَعمَلَهم في الأعمالِ الشَّاقَّةِ، كالبِناءِ والغَوصِ، ومَرَدةٍ قَرَنَ بَعضَهم مع بَعضٍ في السَّلاسِلِ؛ لِيَكُفُّوا عن الشَّرِّ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأها أبو جعفرٍ بالجمعِ، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

- والمُقرَّنُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (قَرَنَه)، مُبالَغةً في قَرَنَه، أيْ: جَعَلَه قَرينًا لِغَيرِه، لا يَنفَكُّ أحَدُهما عن الآخَرِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: مُقرَّنينَ في الأصفادِ حَقيقةً، ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا لِمَنعِ الشَّياطينِ مِنَ التَّفلُّتِ[1].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

- قَولُه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ إشارةٌ لِمَا أعطاه اللهُ تَعالى مِنَ المُلْكِ الضَّخمِ، وتَسخيرِ الرِّيحِ والإنْسِ والجِنِّ والطَّيرِ، والإضافةُ لِتَعظيمِ شأنِ المُضافِ؛ لانتِسابِه إلى المُضافِ إليه، فكَأنَّه قيلَ: هذا عَطاءٌ عَظيمٌ أعطَيْناكَه، أو هذا عَطاؤُنا واسِعًا، وأنَّه مُفوَّضٌ إليه تَفويضًا كُلِّيًّا[2].

- قَولُه: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ أمْرٌ مُستَعمَلٌ في الإذْنِ والإباحةِ، وهو مُشتَقٌّ مِنَ المَنِّ المُكَنَّى به عن الإنعامِ، وَقَّفَه على قَدْرِ النِّعمةِ، ثمَّ أباحَ له التَّصرُّفَ فيها بمَشيئَتِه، وهو تعالى قد عَلِمَ أنَّه لا يَتصَرَّفُ إلَّا بطاعةِ اللهِ[3].

- وجُملَتا ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ مُعترِضتانِ بَينَ قَولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، وهو تَفريعٌ مُقدَّمٌ مِن تَأخيرٍ، والتَّقديمُ لِتَعجيلِ المَسرَّةِ بالنِّعمةِ[4]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

- أَتْبَعَ اللهُ الخَبَرَ عن العَطاءِ والمَنِّ عليه بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ العَطاءِ لا غَيرُ.

وتأكيدُ الجُملةِ بـ «إنَّ» واللَّامِ؛ لإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فَتَنَه؛ تنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).

الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِنُصْبٍ﴾: أي: بِشَرٍّ ومَشقَّةٍ وعَناءٍ، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[1].

﴿ارْكُضْ﴾: أي: اضرِبْ، والرَّكضُ: حَرَكةُ الرِّجلِ، وأصلُه يدُلُّ على حَرَكةٍ[2].

﴿ضِغْثًا﴾: أي: حُزمةً وقَبضةً مِنَ الحَشيشِ أو نَحوِه، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التِباسِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾: أي: قد برَّتْ يمينُك، والحِنْثُ في اليمينِ: نَقْضُها والخُلْفُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٦).
قال ابن فارس: (ومِن البابِ: النَّصَبُ: العناءُ، ومعناهُ أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا حتَّى يُعْيِيَ). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

وأصلُ (حنث): يدُلُّ على ذَنْبٍ وحَرَجٍ وإثمٍ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عَبْدَنا أيُّوبَ حينَ نادَى رَبَّه قائلًا: يا رَبِّ، إنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألمٍ.

ثمَّ يذكُرُ اللهُ تعالى إجابتَه لدعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ وما مَنَّ به عليه، فيقولُ: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، ففعَل فنَبَعَ منها الماءُ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ بارِدٌ تَغتَسِلُ به وتَشرَبُ منه، فلمَّا فَعَل ذلك أيُّوبُ كشَفَ اللهُ ما به مِن ضُرٍّ، ووَهَب له أهلَه في الدُّنيا ومِثلَهم مَعَهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى، وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى مِنَّةً أُخرَى امتنَّ بها على أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقُلْنا له بعدَ شِفائِه: خُذْ بيَدِك حُزمةً صَغيرةً مِن الحَشيشِ فيها مِئةُ عُودٍ؛ فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً مَن حَلَفْتَ أن تَضرِبَه مئةَ ضَربةٍ، وبذلك تكونُ غيرَ حانثٍ في يمينِك، إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ، نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه بالصَّبرِ، وذَكَر ابتِلاءَ داودَ وسُلَيمانَ، وأثْنَى عليهما؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠).

ذَكَر مَن كان أشَدَّ ابتِلاءً منهما، وأنَّه كان في غايةِ الصَّبرِ، بحيثُ أثْنَى اللهُ عليه بذلك(١).

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عبْدَنا أيُّوبَ(٢) حينَ استغاثَ باللهِ تعالى قائِلًا: يا رَبِّ، إنِّي أصابَني الشَّيطانُ بتعَبٍ وألَمٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيُّوبَ نَبيَّ اللهِ كان في بَلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرفَضَه القَريبُ والبَعيدُ، إلَّا رجُلانِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغْدُوانِ إليه ويَرُوحانِ إليه، فقال أحَدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذنَبَه أحَدٌ! قال صاحِبُه: وما ذاك؟! قال: منذُ ثماني عَشْرةَ سَنةً لم يَرحَمْه اللهُ فيَكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يَصبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذكَرَ ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما يقولُ! غيرَ أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي كنتُ أمُرُّ على الرَّجُلَينِ يَتنازَعانِ فيَذْكُرانِ اللهَ(٤)، فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (أيُّوبُ هو نبيٌّ مِن بني إسرائيلَ، مِن ذُرِّيَّة يَعقوبَ عليه السَّلامُ، وهو نبيٌّ ابتُلِيَ في جَسَدِه ومالِه وأهلِه، وسَلِمَ دينُه ومُعتَقَدُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٥-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٣، ١٨٤).

قال ابنُ جرير: (معنى الكلامِ: إذ نادى ربَّه مُستغيثًا به، أنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ ببلاءٍ في جَسدي، وعذابٍ بذَهابِ مالي وولدي). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

(٤) فيَذْكُرانِ اللهَ: أي: يَحلِفانِ باللهِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣).

عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يَخرُجُ إلى حاجتِه، فإذا قضى حاجتَه أمسَكَت امرأتُه بيَدِه حتَّى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحِيَ إلى أيُّوبَ في مكانِه أن: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطَأَتْه فلَقِيَتْه يَنتَظِرُ، وأقبَلَ عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به مِن البَلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان! فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ باركَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ، هذا المُبتلى؟ وواللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو. وكان له أنْدَرانِ[1]: أنْدَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَثَ اللهُ سَحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتَّى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ[2] حتَّى فاض))[3].

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ بِرِجْلِك الأرضَ، فحرِّكْها بها وادفَعْها[4].

(١) الأندَرُ: البَيْدَرُ (الجُرْنُ) الَّذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٠٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ١٩٤).

(٢) الوَرِقَ: أي: الفِضَّةَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وابن حبان (٢٨٩٨).
صحَّحه ابن حبَّان، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧)، والوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٤٢٤)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٥): أَصَحُّ ما ورد. وصحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَين في ((المستدرك)) (٤١١٥)، وصَحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ١٤٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٩٨): (إسنادُه على شرطِ مُسلمٍ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.

أي: فضَرَب أيُّوبُ الأرضَ برِجْلِه، فنَبَع منها ماءٌ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ بارِدٌ تَغتَسِلُ به، وتَشرَبُ منه(١).

= (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالرَّكضِ بالرِّجلِ: ضَرْبُها وتحريكُها: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

وقال البِقاعي: (أي: قُلْنا له: اضرِبِ الأرضَ، وأوجِدِ الرَّكضَ، وهو المشيُ والتَّحريكُ والإسراعُ والاستِحثاثُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ جرير: (عَنى بقَولِه: ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ ما يُغتسَلُ به مِن الماءِ، يُقالُ منه: هذا مُغتَسَلٌ وغَسولٌ للَّذي يُغتسَلُ به مِن الماءِ، وقَولُه: ﴿وَشَرَابٞ﴾ يعني: ويَشرَبُ منه، والموضِعُ الذي يُغتَسَلُ فيه يُسمَّى مُغتَسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقال البقاعي: (﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ أي: ماءٌ يُغتسَلُ به، ومَوضِعُه وزمانُه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩١).

وقال ابن عطية: (فشَرِبَ منها، فذهَبَ كُلُّ مَرَضٍ في داخِلِ جَسَدِه، ثمَّ اغتسَل فذهَبَ ما كان في ظاهِرِ بدَنِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٧).

قيل: أنبَع اللهُ لأيُّوبَ عينَينِ، اغتسَلَ مِن إحداهما، وشَرِبَ مِن الأخرى. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقيل: هي عينٌ واحِدةٌ، اغتسَل أيُّوبُ منها، وشَرِبَ مِن مائِها. وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا المعنى هو ظاهِرُ الآيةِ: الرَّازيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٨). =

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

أي: فاغتَسَل أيُّوبُ، وشَرِبَ مِن ذلك الماءِ، فكَشَفَ اللهُ ما به مِن ضُرٍّ وداءٍ، ووهَبَ له في الدُّنيا أهْلَه(١)، ومِثلَهم معهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

= وقيل: جائزٌ أن يكونَ لَمَّا ضَرَب برِجْلِه الأرضَ وركَضَها، نبَع منها عَيْنانِ: إحداهما للاغتِسالِ فيها، والأخرى للشُّربِ منها؛ فكانت الَّتي للشُّربِ منها ماؤُها بارِدٌ على ما يوافِقُ للشُّربِ ويُختارُ له، والأخرى ماؤُها ما يوافِقُ للاغتِسالِ، وهو دونَه في البرودة، على ما قاله أهلُ التَّأويلِ عامَّةً... وجائزٌ أن يكونَ العَينُ واحدةً إلَّا أنَّه لَمَّا اغتسَل منها كان ماؤُها فاترًا يوافِقُ للاغتِسالِ، وإذا شرِب منها كان ماؤُها بارِدًا يوافِقُ للشُّربِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٣).

(١) قال ابن جرير: (وهَبْنا له أهْلَه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥، ١٨٦).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا. قاله ابنُ مسعودٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ... والثَّاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معهم في الآخِرةِ. رواه هشامٌ عن الحسَنِ. والثَّالثُ: آتاه اللهُ أُجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدُّنيا. قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ. والرَّابعُ: آتاه أهلَه ومِثلَهم معهم في الآخرةِ. حكاه الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠١) و (٤/ ٣٣٥).

وقال الرازي: (قيل: هم عَينُ أهلِه وزيادةُ مِثلِهم، وقيل: غيرُهم مِثلُهم، والأوَّلُ أَولى؛ لأنَّه هو الظَّاهِرُ، فلا يجوزُ العُدولُ عنه مِن غيرِ ضَرورةٍ، ثمَّ اختلَفوا؛ فقال بعضُهم: معناه: أزَلْنا عنهم السَّقَمَ، فعادوا أصحَّاءَ، وقال بعضُهم: بل حَضَروا عندَه بعدَ أن غابوا عنه، واجتَمَعوا بعدَ أن تفرَّقوا. وقال بعضُهم: بل تمكَّنَ منهم وتمكَّنوا منه فيما يتَّصِلُ بالعِشرةِ وبالخِدمةِ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فالأقرَبُ أنَّه تعالى متَّعَه بصِحَّتِه وبمالِه، وقوَّاه حتَّى كثُرَ نَسْلُه، وصار أهلُه ضِعفَ ما كان، وأضعافَ ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بَيْنَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُريانًا، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ(١) من ذَهَبٍ، فجَعَل يَحْثي(٢) في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيُّوبُ، ألَمْ أكُنْ أغنَيْتُك عمَّا تَرى؟! قال: بلى يا رَبِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكَتِك!))(٣).

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ؛ لِيَعتَبِروا ويَتَّعِظوا، فيَقتَدوا بأيُّوبَ في صَبرِه، ويَعلَموا أنَّ عاقِبةَ الصَّبرِ الفَرَجُ، وأنَّ اللهَ يُجيبُ دُعاءَ عَبدِه إذا دعاه؛ فلا يَيأسُوا مِن رَحمةِ اللهِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٤٤)﴾.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾.

أي: وخُذْ بيَدِك -يا أيُّوبُ- حُزمةً من حَشيشٍ أو شماريخَ أو نحوِ ذلك، فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً، فتَبَرَّ بيَمينِك، ولا تَحنَثْ فيما حلَفْتَ عليه مِنَ الضَّربِ(٥).

(١) رِجْلُ جَرادٍ: أي: جماعةٌ مِن جَرادٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٢) يَحْثي: أي: يأخُذُ بيَدَيه جميعًا ويَرمِي. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾.

أي: إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ الَّذي ابتُلِيَ به(١).

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى(٢).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هذه هي القِصَّةُ الثَّالِثةُ مِن القِصَصِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ، وداودُ وسُلَيمانُ كانا ممَّن أفاض اللهُ عليه أصنافَ الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأيوبُ كان ممَّن خَصَّه اللهُ تعالى بأنواعِ البَلاءِ، والمقصودُ من جميعِ هذه القِصَصِ الاعتبارُ، كأنَّ الله تعالى قال: يا محمَّدُ، اصبِرْ على سَفاهةِ قَومِك؛ فإنَّه ما كان في الدُّنيا أكثَرُ نِعمةً ومالًا وجاهًا مِن داودَ وسُلَيمانَ عليهما

= ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

مُعظَمُ المفسِّرينَ على أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ كان قد أقسَمَ على ضَربِ زَوجتِه مِئةَ جَلدةٍ؛ بسَبَبِ غَضَبِه عليها في أمرٍ ما قد اختَلَفوا في بيانِه وتحديدِه. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عثيمين: (مَفعولُ ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوفٌ، وحُذِفَ -والعِلمُ عندَ الله- للسَّترِ...، وليس المقصودُ أن نَعرِفَ عينَ المضروبِ، ولكِنَّ المقصودَ أنَّ الضَّربَ الَّذي كان قد حَلَفَ عليه يَحصُلُ بأخْذِ هذا الضِّغْثِ والضَّربِ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

قال ابنُ عاشور: (أي: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لأنَّا وجَدْناه صابِرًا على ما أصابه... ومعنى ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾: أنَّه ظهَرَ في صَبرِه ما كان في عِلمِ الله منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

السَّلامُ، وما كان في الدُّنيا أكثَرُ بلاءً ومِحنةً مِن أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ فتأمَّلْ في أحوالِ هؤلاء؛ لِتَعرِفَ أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تنتَظِمُ لأحَدٍ، وأنَّ العاقِلَ لا بُدَّ له مِن الصَّبرِ على المَكارِهِ(١).

٢- الشَّكوى إلى اللهِ سُبحانَه لا تُنافي الصَّبرَ بوَجهٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مع إخبارِه عنه بالشَّكوى إليه، في قَولِه: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾(٢) [الأنبياء: ٨٣]، فما صدَرَ مِن أيُّوبَ: دُعاءٌ، وإظهارُ فَقرٍ، وحاجةٌ إلى رَبِّه، لا شكوى ولا جَزَعٌ(٣).

٣- عن عُمرَ بنِ السَّكَنِ، قال: (كنتُ عندَ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، فقام إليه رجُلٌ مِن أهلِ بغدادَ، فقال: يا أبا محمَّدٍ، أخبِرْني عن قولِ مُطَرِّفٍ: «لَأَنْ أُعافى فأشكُرَ، أحَبُّ إلَيَّ مِن أن أُبتلَى فأصبِرَ»، أهو أحَبُّ إليك أمْ قولُ أخيه أبي العلاءِ: «اللَّهُمَّ رَضيتُ لِنَفْسي ما رضيتَ لي»؟ قال: فسكَتَ سكتةً، ثمَّ قال: قَولُ مُطَرِّفٍ أحَبُّ إلَيَّ، فقال الرَّجُلُ: كيف وقد رَضيَ هذا لِنَفْسِه ما رَضيَه اللهُ له؟! فقال سُفْيانُ: إنِّي قرأتُ القرآنَ فوجَدْتُ صِفةَ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ مع العافيةِ الَّتي كان فيها: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ووجَدْتُ صِفةَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ مع البلاءِ الَّذي كان فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فاستوَتِ الصِّفَتانِ، وهذا مُعافًى، وهذا مُبتَلًى، فوجَدْتُ الشُّكرَ قد قام مَقامَ الصَّبرِ، فلمَّا اعتدَلا كانت العافيةُ مع الشُّكرِ أحَبَّ إلَيَّ مِن البلاءِ مع الصَّبرِ)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢١٢) و (٧/ ٢٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ لأُولي الألبابِ على أنَّ مَن صَبَر ظَفِر[1]، فاللهُ تعالى يَمُنُّ على العَبدِ بأكثَرَ ممَّا فَقَد إذا صَبَر واحتَسَبَ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهَبَ اللهُ له أهلَه ومِثلَهم مَعَهم، فاصبِرْ تَظفَرْ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه تَذكيرٌ لِغَيرِه؛ لِيتأسَّى به كُلُّ مُبتلًى، ويَرجو مِثلَ ما رجا؛ فإنَّ رَحمةَ اللهِ واسِعةٌ، وهو عندَ القُلوبِ المُنكَسِرةِ، فما بيْنَه وبيْنَ الإجابةِ إلَّا حُسْنُ الإنابةِ؛ فمَن دام إقبالُه عليه أغناه عن غَيرِه[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بيانُ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نَفعًا ولا ضَرًّا[4].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ جوازُ إضافةِ الأشياءِ إلى أسبابِها؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ أضافَ هذا الضُّرَّ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه سَبَبُه[5].

٣- في قَولِه تعالى عن أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أنَّ الشَّيطانَ قد يُسَلَّطُ على بعضِ الأنبياءِ[6].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩). =

٤- في قَوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بحالِ العَبدِ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تَوسَّلَ إلى اللهِ تعالى بحالِه، وهو أنَّه مَسَّه الشَّيطانُ بنُصْبٍ وعَذابٍ، ونظيرُ هذا قَولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، فتوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بذِكْرِ حالِه، وأنَّه فَقيرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهذا أحدُ أنواعِ التَّوسُّلِ الجائزِ[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾، لَمَّا كان قد حَصَل عِندَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ نَوعانِ مِن المَكروهِ: الغَمُّ الشَّديدُ بسَبَبِ زَوالِ الخَيراتِ وحُصولِ المَكروهاتِ، والألَمُ الشَّديدُ في الجِسمِ- لا جَرَمَ ذكَرَ اللهُ تعالى لَفْظَينِ، وهما: (النُّصْبُ) و(العَذابُ)[2].

٦- في قَوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّينَ إليه، إذا صَدَق الإنسانُ في دَعوتِه[3].

= ذكر الشنقيطيُّ أنَّه يُمكِنُ أن يكونَ الشَّيطانُ قد سلَّطه الله على جسَدِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ ومالِه وأهلِه ابتِلاءً؛ لِيَظهَرَ صبرُه الجميلُ، وتكونَ له العاقبةُ الحميدةُ في الدُّنيا والآخرة، ويَرجِعَ له كلُّ ما أُصيبَ فيه، ثمَّ قال: (وهذا لا يُنافي أنَّ الشَّيطانَ لا سُلْطانَ له على مِثلِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ التَّسليطَ على الأهلِ والمالِ والجسدِ مِن جنسِ الأسبابِ الَّتي تَنشأُ عنها الأعراضُ البَشَريَّةُ، كالمرضِ، وذلك يقعُ للأنبياءِ؛ فإنَّهم يُصيبُهم المرضُ، وموتُ الأهلِ، وهلاكُ المالِ لأسبابٍ مُتنَوِّعةٍ. ولا مانعَ مِن أن يكونَ [من] جملةِ تلك الأسبابِ تسليطُ الشَّيطانِ على ذلك للابتلاءِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ ولو شاء اللهُ تعالى لأنبَعَ له الماءَ بدونِ الرَّكضِ بالرِّجْلِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك سَبَبًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ الَّذي لا يَقومُ بالمُسَبَّبِ سَبَبًا مُؤَثِّرًا، كما أنَّه قادِرٌ على أنْ يَمنَعَ السَّببَ المُؤَثِّرَ فلا يُؤَثِّرُ؛ فالرَّكضُ بالرِّجْلِ ليس مِن العادةِ أنْ يُنبِعَ الماءَ، والإلقاءُ في النَّارِ من العادةِ أنْ يُحرِقَ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقِيَ في النَّارِ ولم يحتَرِقْ، وأيُّوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَكَضَ برِجْلِه الأرضَ فَنبَعَ الماءُ؛ ففيه دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ قَويًّا مُؤَثِّرًا، ويَجعَلُ السَّبَبَ القويَّ المُؤَثِّرَ غيرَ مُؤَثِّرٍ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أي: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فضَرَب الأرضَ بها فنَبَع منها الماءُ بإذنِ اللهِ دونَ مُساعدةٍ مِن أحَدٍ، أو حاجةٍ إلى حَفَّارٍ؛ فاللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهذه إحدى الضَّرَباتِ الَّتي نَبَع بها الماءُ على أنَّه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ. والثَّانيةُ: ضَربُ موسى عليه السَّلامُ للحَجَرِ، فانفجَرَت منه اثنَتا عَشْرةَ عَينًا. والثَّالثةُ: ضَربُ جِبريلَ عليه السَّلامُ بجَناحَيه مكانَ زَمزمَ فنَبَع الماءُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ فيه جوازُ استِعمالِ الحِيَلِ المباحةِ، وهذا الحُكمُ ثابتٌ حتَّى في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، فلو حَلَف رجُلٌ على أن يَضرِبَ شخصًا مِئةَ مرَّةٍ، وكان هذا الشَّخصُ لا يَتحمَّلُ الضَّربَ مئةَ مرَّةٍ؛ قال أهلُ العلمِ: فله أنْ يأخُذَ ضِغْثًا به مِئةُ شِمْراخٍ، ويَضْرِبَ به ضربةً واحدةً. وبَنَوْا على هذا ما لو زنى رجُلٌ مريضٌ مرضًا لا يُرجى زوالُه، ولا يَتحمَّلُ الضَّربَ مِئةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

على انفرادٍ؛ قالوا: فإنه يُجْمَعُ له ضِغْثٌ به مِئةُ عُودٍ، ويُضرَبُ به ضربةً واحدةً[١]؛ أَخْذًا بما أفْتى اللهُ عزَّ وجلَّ به أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ دَليلٌ على جَوازِ ضَربِ النِّساءِ فيما دعا إلى صَلاحِهنَّ وأدَبِهنَّ وأَوْبِهِنَّ إلى اللهِ جلَّ وتعالى[٣].

١٢- في براءةِ أيُّوبَ صلَّى الله عليه مِن يمينِه وبِرِّه فيها بإعمالِ الضِّغث مرَّةً

(١) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨).

والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الجمهورِ من الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ في الجملةِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (٦/ ٢٩٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ١٥٤)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).

وذلك خلافًا للمالكيَّةِ. يُنظر: ((المدونة)) (١/ ٦١٠) و(٤/ ٥١٣)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٣/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).

قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (فأخبَرَ الله تعالى أنَّه إذا فعَل ذلك فقد بَرَّ في يمينِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهو قَولُ الشَّافعيِّ، ومَذهَبُ أبي حنيفةَ، ومحمَّدٍ، وزُفَرَ. وقال مالكٌ: لا يَبَرُّ. ورأى أنَّ ذلك مختَصًّا بأيُّوبَ، وقال: لا يَحنَثُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦١).

قال الرازي: (وهذه الرُّخصةُ باقيةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن تَأمَّل الآيةَ عَلِم أنَّ هذه الفُتْيا خاصَّةُ الحُكمِ؛ فإنَّها لو كانت عامَّةً في حقِّ كلِّ أحدٍ لم يُخَفَّفْ على نبيٍّ كريم مُوجَبُ يمينِه، ولم يكُنْ في اقتِصاصِها علينا كبيرُ عِبرةٍ! فإنَّما يُقَصُّ ما خَرَج عن نظائرِه ليُعتبَرَ به، أمَّا ما كان مقتضى العبارةِ والقياسِ فلا يُقَصُّ، ولأنَّه قد قال عَقيبَ هذه الفُتْيا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، وهذه الجملةُ خَرَجتْ مخرَجَ التَّعليلِ كما في نظائرِه، فعُلِم أنَّ اللهَ إنَّما أفْتاه بهذا جزاءً له على صبرِه؛ تخفيفًا عنه ورحمةً به؛ لأنَّ هذا هو مُوجَبُ هذه اليمين، و... معلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانَه إنَّما أفتاهُ بهذا لئلَّا يَحْنَثَ كما أخبَرَ اللهُ سبحانَه ... وهذا يدُلُّ على أنَّ كفَّارةَ الأيمانِ لم تكُنْ مشروعةً في تلكَ الشَّريعةِ، بل ليس في اليمينِ إلَّا البِرُّ أو الحِنْثُ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦١).

واحدةً -كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾- دليلٌ واضحٌ وحُجَّةٌ لِمَن يقول: الأَيْمانُ على الأسماءِ ليس على المعاني؛ لإحاطةِ العِلم بأنَّ مُماسَّةَ شَماريخِ الضِّغْثِ لا يُؤْلِمُ المضروبَ كما يُؤْلِمُه تفريقُ عددِ الضَّرب عليه، وأيُّوبُ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ حينَ حَلَف عليها قَصَدَ لِضَرْبٍ مُفرَّقٍ يُعَدُّ عَدًّا -واحدًا بعدَ آخرَ-، إذْ مُحالٌ أنْ يكونَ عَرَف الضِّغْثَ قَبْلَ أنْ يأمُرَه اللهُ به! وكذا ضَرْبُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الزَّانيَ النِّضْوَ[١] الخَلْقَ بِعِثْكَالِ[٢] النَّخلِ ضربةً واحدةً بما فيه مِئةُ شِمْراخٍ[٣]؛ وقد أَمَرَ اللهُ بجَلْدِ مئةٍ! فهو يؤكِّدُ هذا[٤].

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ إنْ قيلَ: كيف وَجَده صابِرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمَه؟

فالجَوابُ: أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ عزَّ وعلا لا تُسَمَّى جَزَعًا، ولقد قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العَليلِ إلى الطَّبيبِ؛ وذلك أنَّ أصبرَ النَّاسِ على البَلاءِ لا يخلو مِن تمَنِّي العافيةِ وطَلَبِها، فإذا صَحَّ أن يُسَمَّى صابرًا مع تمنِّي العافيةِ، وطَلَبِ الشِّفاءِ، فلْيُسَمَّ صابرًا مع اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءِ بكَشفِ ما به، ومع التَّعالُجِ ومُشاوَرةِ الأطِبَّاءِ[٥].

(١) النِّضْوُ: المَهْزُولُ مِنَ الإبلِ وغيرِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٩٨).

(٢) العِثْكالُ: هو عِذْقُ النَّخلَةِ بما فيه مِن الشَّماريخِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ١١).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٠٩)، وابن ماجه (٢٥٧٤)، وأحمد (٢١٩٣٥).
ذكر ثبوتَه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٤٠٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((بلوغ المرام)) (٣٦٨)، والشوكانيُّ في ((الدراري المضية)) (٣٨٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٨).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه أنَّ الحِنْثَ[١] في اليَمينِ في الأصلِ حَرامٌ؛ ولكِنَّ اللهَ تعالى يَسَّرَ لعبادِه، وأجاز لهم الحِنثَ مع الكَفَّارةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] إلى قَولِه: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قال العلماءُ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: لا تُكثِروا اليَمينَ، وقال بَعضُهم: أي: احفَظوها مِن الحِنْثِ، فلا تَحنَثوا فيها. والوجهانِ كِلاهما لا يَتنافَيانِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يَحلِفَ ولا يَستَثنيَ[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاستِثناءَ شَرطُه الاتِّصالُ؛ إذ لو لم يُشترَطْ لأمَرَه تعالى بالاستِثناءِ، ولم يَحتَجْ إلى الضَّربِ بالضِّغْثِ[٤].

١٧- عن عَطاءٍ: أنَّ رجُلًا قال: (إنِّي حلَفْتُ ألَّا أكسُوَ امرأتي دِرعًا حتَّى تَقِفَ بعَرَفةً! فقال: احمِلْها على حِمارٍ، ثمَّ اذهَبْ فقِفْ بها بعَرَفةَ. فقال: إنَّما نَويتُ يومَ عَرَفةَ! فقال عَطاءٌ: وأيُّوبُ حينَ حَلَف لَيَجلِدَنَّ امرَأتَه مِئةَ جَلدةٍ: أنَوَى أن يَضرِبَها بالضِّغْثِ؟! إنَّما أمَرَه اللهُ أن يأخُذَ ضِغثًا فيَضرِبَها به. قال عَطاءٌ: إنَّما القُرآنُ عِبَرٌ)[٥].

---

(١) الحِنْثُ: الخُلْفُ في اليَمينِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

وعزاه السيوطيُّ إلى سعيدِ بنِ منصورٍ، وصحَّح إسنادَه. =

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أنَّه سبحانَه أثْنَى على عبدِه أيُّوبَ بأحسَنِ الثَّناءِ على صبرِه؛ فأَطْلَق عليه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ بكَونِه وَجَده صابرًا؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَصبِرْ إذا ابتُلِيَ فإنَّه بِئْسَ العبدُ(١).

١٩- قال تعالى عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾؛ وذلك لأنَّه خرَج مِن البلاءِ على الوجهِ الَّذي دخَل فيه، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ كان أحدَ الأغنياءِ مِن الأنبياءِ قبْلَ البلاءِ وبعدَه، وإنَّما ابتُلِيَ بذهابِ مالِه وولدِه وعظيمِ الدَّاءِ في جسَدِه، وكذلك الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم وسلامُه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ دخَل في البلاءِ على صِفةٍ، فخرَج منه كما دخَل فيه، وما تغيَّرَ منه حالٌ ولا مَقالٌ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾

- هذا مَثَلٌ ثانٍ ذُكِّرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ أُسوةً به في الصَّبرِ على أذَى قَومِه، والالتِجاءِ إلى اللهِ في كَشفِ الضُّرِّ، وهو عَطفٌ على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، ولِكَونِه مَقصودًا بالمَثَلِ هنا أُعيدَ معه فِعلُ (اذْكُرْ)، ولم يَذكُرْ ذلك في قِصَّةِ سُلَيمانَ؛ لِكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَ سُلَيمانَ وداودَ عليهما السَّلامُ، كأنَّ قِصَّتَيْهما قِصَّةٌ واحِدةٌ(٣).

= وأخرجه حربٌ الكرمانيُّ في مسائله (من كتاب النكاح إلى نهاية الكتاب) (١/ ٤٥٧)، عن سعيدِ بنِ منصورٍ بسندِه إلى عطاءٍ.

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٦).

- وأيضًا لَمَّا كانت تَعديةُ فِعلِ (اذْكُرْ) إلى اسم أيُّوبَ على تقديرِ مُضافٍ؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به؛ كان قَولُه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ مِن أيُّوبَ؛ لِأنَّ زَمَنَ ندائِه رَبَّه مِمَّا تَشتَمِلُ عليه أحوالُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. وخُصَّ هذا الحالُ بالذِّكرِ مِن بَينِ أحوالِه؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به، ولِأنَّه مَظهَرُ تَوكُّلِه على اللهِ، واستِجابةِ اللهِ دُعاءَه بكَشفِ الضُّرِّ عنه[1].

- والنِّداءُ: نِداءُ دُعاءٍ؛ لِأنَّ الدُّعاءَ يُفتَتَحُ بمِثلِ: يا رَبِّ، ونَحوِه، وقَولُه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مُتَعلِّقٌ بقَولِه: ﴿نَادَىٰ﴾، بحَذفِ الباءِ المَحذوفةِ مع (أنَّ)، أيْ: نادَى بأنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ، وهو في الأصلِ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في الدُّعاءِ والشِّكايةِ[2].

- ونَسَب المَسَّ إلى الشَّيطانِ؛ لِأنَّه قد راعَى الأدَبَ في ذلك؛ حيث لم يَنسُبْه إلى اللهِ في دُعائِه، مع أنَّه فاعِلُه، ولا يَقدِرُ عليه إلَّا هو. قيلَ: أرادَ ما كان يُوَسوِسُ به إليه في مَرَضِه مِن تَعظيمِ ما نَزَل به مِنَ البَلاءِ، ويُغريه على الكَراهةِ والجَزَعِ، فالتَجأ إلى اللهِ تعالى في أنْ يَكفيَه ذلك بكَشفِ البَلاءِ، أو بالتَّوفيقِ في دَفعِه ورَدِّه بالصَّبرِ الجَميلِ، أو لِأنَّه وَسوَسَ إلى أتْباعِه حتَّى رَفَضوه، وأخرَجوه مِن ديارِهم، وقيل غير ذلك[3].

- وفي قَولِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ظاهِرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٨، ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

إسنادِ المَسِّ بالنُّصْبِ والعَذابِ إلى الشَّيطانِ أنَّ الشَّيطانَ مَسَّ أيُّوبَ بهما، أيْ: أصابَه بهما حَقيقةً، مع أنَّ النُّصبَ والعَذابَ هُما الماسَّانِ أيُّوبَ، ففي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فأسنَدَ المَسَّ إلى الضُّرِّ، والضُّرُّ هو النُّصْبُ والعَذابُ، والجمْعُ بيْنَهما: أنْ تُحمَلَ الباءُ على مَعنى السَّببيَّةِ بجَعلِ النُّصبِ والعَذابِ مُسبِّبَينِ لِمَسِّ الشَّيطانِ إيَّاه، أيْ: مَسَّني بوَسواسٍ سَبَبُه نُصبٌ وعَذابٌ، فجَعَلَ الشَّيطانُ يُوَسوِسُ إلى أيُّوبَ بتَعظيمِ النُّصبِ والعَذابِ عِندَه، ويُلْقي إليه أنَّه لم يَكُنْ مُستَحِقًّا لذلك العَذابِ؛ لِيُلقيَ في نَفْسِ أيُّوبَ سُوءَ الظَّنِّ باللهِ، أو السُّخطَ مِن ذلك. أو تُحمَلُ الباءُ على المُصاحَبةِ، أيْ: مَسَّني بوَسوَسةٍ مُصاحِبةٍ لِضُرٍّ وعَذابٍ، ففي قَولِ أيُّوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن طَلَبِ لُطفِ اللهِ به، ورَفعِ النُّصْبِ والعَذابِ عنه بأنَّهما صارا مَدخَلًا لِلشَّيطانِ إلى نَفْسِه، فطَلَب العِصْمةَ مِن ذلك، على نَحوِ قَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1] [يوسف: ٣٣].

- وتَنوينُ ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ لِلتَّعظيمِ، أو لِلنَّوعيَّةِ، وعَدَلَ عن تَعريفِهما؛ لأنَّهما مَعلومانِ للهِ[2].

- وقَولُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ليس هذا تَمامَ دُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل مِن جُملَتِه قَولُه: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فاكتَفى هاهنا عن ذِكرِه بما في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، كما تَرَك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٠).

هناك ذِكرَ الشَّيطانِ؛ ثِقةً بما ذُكِرَ هاهنا[١].

- واقتِصارُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ في دُعائِه على التَّعريضِ بإزالةِ النُّصْبِ والعَذابِ يُشعِرُ بأنَّه لم يُصَبْ بغَيرِ الضُّرِّ في بَدَنِه، ويحتمِلُ أنْ يَكونَ قد أصابَه تَلَفُ المالِ، وهَلاكُ العِيالِ؛ فيَكونَ اقتِصارُه على النُّصْبِ والعَذابِ في دُعائِه لِأنَّ في هَلاكِ الأهلِ والمالِ نُصْبًا وعَذابًا لِلنَّفْسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، أيْ: قُلْنا له: اركُضْ برِجْلِكَ، وذلك إيذانٌ بأنَّ هذا استِجابةٌ لِدُعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. والرَّكْضُ: الضَّربُ في الأرضِ بالرِّجلِ؛ فقَولُه: ﴿بِرِجۡلِكَ﴾ زيادةٌ في بَيانِ مَعنى الفِعلِ[٣].

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه المَقولُ الأوَّلُ، وفي الكَلامِ حَذفٌ دَلَّتْ عليه الإشارةُ؛ فالتَّقديرُ: فرَكَضَ الأرضَ، فنَبَع ماءٌ، فقُلْنا له: هذا مُغتَسَلٌ بارِدٌ وشَرابٌ، فالإشارةُ إلى ماءٍ؛ لِأنَّه الَّذي يُغتَسَلُ به ويُشرَبُ[٤].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ وَصْفُ الماءِ بذلك في سياقِ الثَّناءِ عليه مُشيرٌ إلى أنَّ ذلك الماءَ فيه شِفاؤُه إذا اغتَسَل به، وشَرِب منه؛ لِيَتناسَبَ قَولُ اللهِ له مع نِدائِه رَبَّه؛ لِظُهورِ أنَّ القَولَ عَقِبَ النِّداءِ هو قَولُ استِجابةِ الدُّعاءِ مِنَ المَدعُوِّ. و ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ اسمُ مَفعولٍ مِن فِعلِ (اغتَسَلَ)، أي: مُغتَسَلٌ به؛ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).
(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

على حَذفِ حَرفِ الجرِّ، وإيصالِ المُغتَسَلِ القاصِرِ إلى المَفعولِ[١].

- ووَصْفُ الماءِ بـ ﴿بَارِدٌ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ به زَوالَ ما بِأيُّوبَ مِنَ الحُمَّى مِنَ القُروحِ[٢].

- واستُغنيَ بالتَّنوينِ عن وَصفِ (شَرَابٌ)؛ إذْ مِنَ المَعلومِ أنَّ الماءَ شَرابٌ، فلولا إرادةُ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ لَكانَ الإخبارُ عنِ الماءِ بأنَّه شَرابٌ إخبارًا بأمْرٍ مَعلومٍ، ومَرجِعُ تَعظيمِ (شَرَابٌ) إلى كَونِه عَظيمًا لِأيُّوبَ، وهو شِفاءُ ما به مِن مَرَضٍ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ مَعطوفٌ على مُقدَّرٍ مُترَتِّبٍ على مُقدَّرٍ آخَرَ يَقتَضيه القَولُ المُقدَّرُ آنِفًا، كأنَّه قيلَ: فاغتَسَلَ وشَرِب، فكَشَفْنا بذلك ما به مِن ضُرٍّ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[٤] [الأنبياء: ٨٤].

- ولم يَتقَدَّمْ في هذه الآيةِ ولا في آيةِ سُورةِ (الأنبياءِ) أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ رُزِئَ أهلَه؛ قيل: يَجوزُ أنْ يكونَ مَعنى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ تَعالى أبْقَى له أهلَه، فلم يُصَبْ فيهم بما يَكرَهُ، وزَادَه بَنينَ وحَفَدةً، ويُؤيِّدُ هذا المَحمَلَ وُقوعُ كَلِمةِ ﴿مَّعَهُمْ﴾ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿وَمِثْلَهُم﴾؛ فإنَّ (مع) تُشعِرُ بأنَّ المَوهوبَ لاحِقٌ بأهلِه، ومَزيدٌ فيهم، فليس في الآيةِ تَقديرُ مُضافٍ في قَولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وما بيْنَ الآيَتَيْنِ مِن تَغييرٍ يَسيرٍ هو مُجرَّدُ تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ، لا يَقتَضي تَفاوُتًا في البَلاغةِ، وأمَّا ما بَيْنَهما مِن مُخالَفةٍ في قَولِه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، وقَولِه في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ فقَولُه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ الذِّكْرى: التَّذكيرُ بما خَفيَ، أو بما يَخفَى، وأُولو الألبابِ هم أهلُ العُقولِ، أيْ: تَذكِرةً لِأهلِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ فإنَّ في قِصَّةِ أيُّوبَ مُجمَلِها ومُفَصَّلِها ما إذا سَمِعه العُقَلاءُ المُعتَبِرونَ بالحَوادِثِ، والقائِسونَ على النَّظائرِ؛ استَدَلُّوا على أنَّ صَبرَه قُدوةٌ لِكُلِّ مَن هو في حَرَجٍ أنْ يَنتَظِرَ الفَرَجَ، وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الأنبياءِ)؛ فإنَّه جيءَ به شاهِدًا على أنَّ النُّبُوَّةَ لا تُنافي البَشريَّةَ، وأنَّ الأنبياءَ يَعتَريهم مِنَ الأحداثِ ما يَعتَري البَشَرَ ممَّا لا يَنقُصُ منهم في نَظَرِ العَقلِ والحِكمةِ، وأنَّهم إنَّما يَقومونَ بأمْرِ اللهِ، وأنَّهم مُعَرَّضونَ لِأذَى النَّاسِ مِمَّا لا يُخِلُّ بحُرمَتِهمُ الحَقيقيَّةِ، وذَكَر مِنَ الأنبياءِ مَنِ ابتُلِيَ مِن قَومِه فصَبَر، ومَنِ ابتُلِيَ مِن غَيرِهم فصَبَر، وكيف كانت عاقِبةُ صَبرِهم واحِدةً، مع اختِلافِ الأسبابِ الدَّاعيةِ إليه؛ فكانت في ذلك آياتٌ لِلعابِدينَ، أيْ: المُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ، المُجتَنِبينَ نَهْيَه؛ فإنَّ مِمَّا أمَرَ به اللهُ الصَّبرَ على ما يَلحَقُ المَرءَ مِن ضُرٍّ لا يَستَطيعُ دَفْعَه؛ لِكَونِ دَفْعِه خارِجًا عن طاقَتِه، فخَتَم بخاتِمةِ أنَّ في ذلك آياتٍ للعابِدينَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٢، ٢٧٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾

- قَولُه: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ في الكَلامِ حَذفٌ دَلَّتْ عليه صِيغةُ الكَلامِ، تَقديرُه: وكان حَلَف لَيَضرِبَنَّ امرأتَه مِئةَ ضَربةٍ؛ لِسَبَبٍ جَرى منها، وكانتْ مُحسِنةً له، فجَعَلْنا له خَلاصًا مِن يَمينِه بقَولِنا: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾. وقيلَ: هو مَعطوفٌ على ﴿ٱرۡكُضۡ﴾، أو على (وَهَبْنَا) بتَقديرِ (قُلْنا)، أيْ: وقُلْنا: خُذْ بيَدِكَ... إلخ. والأوَّلُ أقربُ لَفظًا، وهذا أنسَبُ مَعنًى؛ فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمْرِ لا تَمَسُّ إلَّا بعدَ الصِّحَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ عِلَّةٌ لِجُملةِ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ [ص: ٤٢]، وجُملةِ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ [ص: ٤٣]، أيْ: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لِأنَّا وَجَدْناه صابِرًا على ما أصابَه؛ فهو قُدوةٌ لِلمأمورِ بقَولِه: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّفريعِ(٢).

- قولُه: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ فِعلٌ وفاعِلٌ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِلعِلْمِ به، أيْ: هو، أو: أيُّوبُ. و﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تَعليلٌ لِمَدحِه، أيْ: رَجَّاعٌ إلى اللهِ تعالى. وقَولُه هنا: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ مِثلُ قَولِه في سُلَيمانَ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وكان سُلَيمانُ أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الغِنى والنَّعيمِ، وأيُّوبُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الضُّرِّ والاحتِياجِ، وكان الثَّناءُ عليهما مُتَماثِلًا؛ لِاستِوائِهما في الأَوْبةِ، وإنِ اختَلَفتِ الدَّواعي[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾: أي: أصحابِ القُوَّةِ والبَصائِرِ في الدِّينِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[(١)].

﴿ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾: أي: ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[(٢)].

﴿ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ﴾: أي: المُختارينَ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفوِ الشَّيءِ، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ[(٣)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

قَولُه: ﴿ بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ فيها وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ (خَالِصَة) مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، فيكونُ ﴿ ذِكۡرَى ﴾ مَفعولًا به للمَصدَرِ، أي: بأن أخلَصوا ذِكْرى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣، ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

الدَّارِ، أو يكونُ المعنى: بأنْ أخلَصْنا نحنُ لهم ذِكرى الدَّارِ. وأنْ يكونَ بمعنى الخُلوصِ، فيكونَ ﴿ذِكۡرَى﴾ فاعِلًا للمَصدَرِ مَرفوعًا به، أي: بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرَى الدَّارِ. الثَّاني: أن يكونُ (خالِصة) اسمَ فاعلٍ على بابِه، و﴿ذِكۡرَى﴾ بَدَلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، أو مَقطوعًا عنه إلى النَّصبِ على المفعوليَّةِ بإضمارِ أعني، أو الرَّفعِ على الخبريَّةِ بإضمارِ (هي)[1].

المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى عددًا مِن الأنبياءِ على سبيلِ الإجمالِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا: إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ؛ أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ، إنَّا خَصَصْناهم بخاصَّةٍ امتازُوا بها هي ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، بالعَمَلِ لها، مع الزُّهدِ في الدُّنيا، وإنَّهم عِندَنا لَمِنَ الَّذين اصطفاهم اللهُ، ومِن عبادِه الأخيارِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكِفلِ؛ فإنَّ كلًّا منهم مِن الأخيارِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: واذكرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا إبراهيمَ، وابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يَعقوبَ: أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ تعالى[2].

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ١٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٥٤٠، ٥٤١) و(١٩/ ١٧٠، ١٧١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِخَالِصَةِ ذِكۡرَى﴾ بالإضافةِ. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بأفضَلِ ما في الدَّارِ الآخرةِ. وقيل: المعنى: نزَعَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن حُبِّ الدُّنيا وذِكرِها، وأخلَصَهم بحُبِّ الآخِرةِ والرَّغبةِ فيها، والزُّهدِ في الدُّنيا. وقيل «خالِصة»: مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، أي: بإخلاصِهم ذِكرى الدَّارِ. وقيلَ غيرُ ذلك[1].

= (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال ابنُ جرير: (الأيدي: القوَّةُ، والأبصارُ: العقولُ. فإنْ قال لنا قائلٌ: وما الأيدي مِن القُوَّةِ، والأيدي إنَّما هي جمْعُ يدٍ، واليدُ جارحةٌ؟ وما العُقولُ مِن الأبصارِ، وإنَّما الأبصارُ جمعُ بَصرٍ؟ قيل: إنَّ ذلك مَثَلٌ؛ وذلك أنَّ باليَدِ البَطشَ، وبالبَطشِ تُعرَفُ قُوَّةُ القَويِّ؛ فلذلك قيل للقَويِّ: ذو يَدٍ. وأمَّا البصَرُ فإنَّه عَنى به بصَرَ القَلبِ، وبه تُنالُ مَعرفةُ الأشياءِ؛ فلذلك قيل للرَّجُلِ العالِمِ بالشَّيءِ: بصيرٌ به، وقد يمكِنُ أن يكونَ عَنى بقولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أولي الأيدي عندَ اللهِ بالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فجعَلَ اللهُ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا أيديًا لهم عندَ اللهِ؛ تمثيلًا لها باليدِ تكونُ عندَ الرَّجُلِ لآخَرَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٦).

وقال النَّحَّاسُ: (فأمَّا ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فمُتَّفَقٌ على تأويلِها أنَّها البصائرُ في الدِّينِ، وأمَّا ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ فمُختَلَفٌ في تأويلِها؛ فأهلُ التَّفسيرِ يقولون: إنَّها القُوَّةُ في الدِّينِ، وقومٌ يقولونَ: الأيدي جمعُ يدٍ، وهي النِّعمةُ، أي: هم أصحابُ النِّعَمِ، أي: الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وقيل: هم أصحابُ النِّعَمِ والإحسانِ؛ لأنَّهم قد أحسَنوا، وقَدَّموا خيرًا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣١٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عبارةٌ عن البصائرِ، أي: يُبصِرونَ الحقائقَ، ويَنظُرونَ بنورِ اللهِ تعالى، وبنحوِ هذا فسَّر الجميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّم: (﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فالأيدي: القُوَى والعزائمُ في ذاتِ اللهِ، والأبصارُ: البصائرُ في أمرِ اللهِ. وعباراتُ السَّلَفِ تدورُ على ذلك). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٧).

(١) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ المَدَنيَّانِ، وهشامٌ عن ابنِ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

٢- قراءةُ: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ بالتَّنوينِ. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بخالصةٍ هي ذِكْرى الدَّارِ، أي: أنَّهم كانوا يُذَكِّرون النَّاسَ بالدَّارِ الآخرةِ، ويَدْعونهم إلى العملِ لها بطاعةِ اللهِ. وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قد أخلَصهم بعملِهم للآخرةِ وذِكْرِهم لها، أي: فجعَلهم له خالِصينَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الآخرةِ، والرُّجوعِ إلى اللهِ. وقيل: الدَّارُ يجوزُ أن يُرادَ بها الدُّنيا، أي: لِيَتذكَّروا الدُّنيا ويَزهَدوا فيها، ولِتَخلُصَ لهم بالثَّناءِ الحسَنِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1] [مريم: ٥٠].

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إنَّا جعَلْناهم خالِصينَ لنا بخصلةٍ خالِصةٍ، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرُهم دائمًا للدَّارِ الآخرةِ، والعملُ لها، والزُّهدُ في الدُّنيا[2].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠١).
قال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾: جعَلْناهم خالِصينَ لنا، أو أخلَصْناهم دونَ غيرِهم، وخالِصة: صِفةٌ حُذِفَ مَوصوفُها، تقديرُه: بخَصلةٍ خالِصةٍ، وأمَّا الباءُ في قَولِه: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ فإنْ كان ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: جعَلْناهم خالِصينَ؛ فالباءُ سَبَبيَّةٌ للتَّعليلِ، وإن كان ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: خصَصْناهم؛ فالباءِ لِتَعديةِ الفِعلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).
وقال أيضًا: (وإن أرادَ بالدَّارِ: الدُّنيا؛ فالمعنى: حُسْنُ الثَّناءِ، والذِّكرُ الجَميلُ في الدُّنيا، كقَولِه: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: ٨٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّم، فقال: (﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: خَصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجميلُ الَّذي يُذْكَرونَ به في هذه الدَّارِ، وهو لِسانُ الصِّدقِ الَّذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: =

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عندَ اللهِ لَمِنَ الَّذين اصطفاهم، ومِن عِبادِه الأخيارِ(١).

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٨﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ والْيَسَعَ وذا الكِفْلِ؛ فإنَّ كُلًّا منهم مِنَ الأخيارِ(٢).

= ٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. ((الجواب الكافي)) (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقوله: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ قيل: معناه: الَّذين اختارهم اللهُ لِرسالته. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥).

وقيل: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمعُ (خَيِّر) بالتَّشديدِ، والتَّخفيفِ، كأمواتٍ جمع مَيِّتٍ ومَيْتٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

قال ابن عثيمين: (الخيِّر على وزنِ فيعلٍ، وهو كثيرُ الخيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال السعدي: (اختارهم اللهُ مِن الخَلقِ، واختار لهم أكمَلَ الأحوالِ؛ مِن الأعمالِ والأخلاقِ، والصِّفاتِ الحميدة، والخِصالِ السَّديدة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقال الشوكاني: (المرادُ مِن ذِكرِ هؤلاء أنَّهم مِن جُملةِ مَن صبرَ مِن الأنبياءِ، وتحمَّلوا الشَّدائدَ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال سبحانَه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

= في دينِ الله. أمَرَ الله رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَذكُرَهم؛ لِيَسلُكَ مسلكَهم في الصَّبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

والْيَسَع اسمُ نبيٍّ مِن الأنبياءِ، ذُكِر معهم هنا، وفي سورةِ (الأنعام) الآية (٨٦)، وهو اسمٌ أعجميٌّ، ودخَلت عليه الألفُ واللامُ زائدتينِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٩٠).

واختَلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟

فذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهِرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأَنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وقيل: لم يكن نبيًّا، ونسَبه القرطبي إلى الجمهور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨).

واستظهر ابنُ عثيمينَ أنَّ معنى (ذي الكفل) صاحبُ العملِ الكثيرِ، والجدِّ والنَّشاطِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٣).

وقال الألوسي: (وقيل في تسميتِه «ذا الكفل» أقوالٌ مضطربةٌ لا تصحُّ، والله تعالى أعلم). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: البَصائِرِ في دينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ فبالبصائِرِ يُدرَكُ الحَقُّ ويُعرَفُ، وبالقُوى يُتمَكَّنُ مِن تبليغِه وتَنفيذِه والدَّعوةِ إليه، ولذلك كان وَرَثةُ الرُّسُلِ وخُلَفاءُ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم الَّذين قاموا بالدِّينِ عِلمًا وعَمَلًا ودَعوةً إلى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهؤلاء أتْباعُ الرُّسُلِ -صَلَواتُ اللهِ عليهم وسَلامُه- حَقًّا، وهؤلاء هم الَّذين جَمَعوا بيْنَ البَصيرةِ في الدِّينِ، والقُوَّةِ على الدَّعوةِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّه ينبغي ذِكرُ أهلِ الخيرِ بالثَّناءِ؛ لأنَّ في ذلك فائِدَتينِ:

الفائِدةُ الأُولى: إحياءُ ذِكْرِ هؤلاء؛ لِيَتبيَّنَ فَضلُهم، ويُدْعَى لهم.

والفائِدةُ الثَّانيةُ: الاقتِداءُ بهم، واتِّباعُهم فيما هم عليه ممَّا استحَقُّوا به الثَّناءَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدة: أنَّ مَن أنعَمَ اللهُ عليه بهذه الصِّفَةِ -وهي تَذَكُّرُ الدَّارِ الآخرةِ- فإنَّ هذا مِن الأمرِ الَّذي يَستَحِقُّ الثَّناءَ عليه هو، ويَستَحِقُّ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليه الشُّكرَ؛ حيث لم يَجعَلْ هذا مِمَّن يَنطوي في سِلْكِ أهلِ الدُّنيا[2]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ إطلاقُ الدَّارِ؛ للإشعارِ بأنَّها الدَّارُ الحَقيقيَّةُ، والدُّنيا مَعبَرٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ احتجَّ العُلَماءُ بهذه الآيةِ في إثباتِ عِصمةِ الأنبياءِ[1]؛ لأنَّه تعالى حَكَم عليهم بكَونِهم أخيارًا على الإطلاقِ، وهذا يَعُمُّ حُصولَ الخَيريَّةِ في جَميعِ الأفعالِ والصِّفاتِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾

- ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ذِكرُ اقتداءٍ وائْتِساءٍ بهم؛ فأمَّا إبراهيمُ عليه السَّلامُ فبما عُرِفَ مِن صَبرِه على أذى قَومِه، وإلقائِه في النَّارِ، وابتِلائِه بتَكليفِ ذَبحِ ابْنِه، وأمَّا ذِكرُ إسحاقَ ويَعقوبَ فاستِطرادٌ بمُناسَبةِ ذِكرِ إبراهيمَ، ولِمَا اشتَرَكا به مِنَ الفَضائِلِ مع أبيهما؛ لِيَقتَديَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَلاثَتِهم في القُوَّةِ في إقامةِ الدِّينِ، والبَصيرةِ في حَقائِقِ الأُمورِ. وابتُدِئَ بإبراهيمَ؛ لِتَفضيلِه بمَقامِ الرِّسالةِ والشَّريعةِ، وعُطِفَ عليه ذِكرُ ابنِه، وعُطِفَ على ابنِه ابنُه يَعقوبُ[3].

---

(١) قال ابنُ تيميَّةَ: (القَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ مِن الكبائِرِ دونَ الصَّغائِرِ هو قولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ، وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قولُ أكثَرِ أهلِ الكَلامِ، كما ذكَرَ أبو الحسَنِ الآمِديُّ أنَّ هذا قَولُ أكثَرِ الأشعَريَّةِ، وهو أيضًا قولُ أكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابِعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣١٩).

وقال أيضًا: (أهلُ السُّنَّةِ مُتَّفِقونَ على أنَّ الأنبياءَ مَعصومون فيما يُبَلِّغونَه عن اللهِ تعالى، وهذا هو مَقصودُ الرِّسالةِ). ((منهاج السنة)) (١/ ٤٧٠).

وقال ابنُ حزم: (يَقَعُ مِن الأنبياءِ السَّهوُ عن غيرِ قَصدٍ، ويَقَعُ منهم أيضًا قَصدُ الشَّيءِ يُريدونَ به وَجْهَ اللهِ تعالى والتَّقَرُّبَ به منه، فيُوافِقُ خِلافَ مُرادِ اللهِ تعالى، إلَّا أنَّه تعالى لا يُقِرُّهم على شَيءٍ مِن هذينِ الوَجهَينِ). ((الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦).

- قَولُه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾ قُرِئَ ﴿ عَبۡدَنَآ ﴾[1]؛ إمَّا على أنَّ إبراهيمَ وحْدَه -لِمَزيدِ شَرَفِه- عَطفُ بيانٍ، وقيلَ: بَدَلٌ، وقيلَ: نُصِبَ بإضمارِ (أَعْني)، والباقيانِ عَطفٌ على (عَبدَنا)، وإمَّا على أنَّ (عَبدَنا) اسمُ جِنسٍ وُضِعَ مَوضِعَ الجَمعِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ كِنايةٌ عنِ العَمَلِ الصَّالِحِ، والفِكرِ، كأنَّ الَّذين لا يَعمَلونَ أعمالَ الآخِرةِ، ولا يُجاهِدونَ في اللهِ، ولا يُفكِّرونَ أفكارَ ذَوي الدِّياناتِ، ولا يَستَبصِرونَ؛ في حُكمِ الزَّمْنى الَّذين لا يَقدِرونَ على إعْمالِ جَوارِحِهم، والمَسلوبي العُقولِ الَّذين لا استِبصارَ بهم، وفيه تَعريضٌ بكُلِّ مَن لم يَكُنْ من عُمَّالِ اللهِ مِنَ الجَهَلةِ البَطَّالينَ، ولا مِنَ المُستَبصِرينَ في دِينِ اللهِ، وتَوبيخٌ على تَركِهمُ المُجاهَدةَ والتَّأمُّلَ مع كَونِهم مُتمكِّنينَ منهما[3].

- قَولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي ﴾ أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، والأعمالِ السَّديدةِ؛ لأنَّ الأيديَ أعظَمُ آلاتِ ذلك[4]، أو لأنَّ أكثَرَها بمُباشَرتِها[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ عِلَّةٌ لِلأمْرِ بذِكرِهم، ولِمَا وُصِفوا به مِن شَرَفِ العُبوديَّةِ، وعُلُوِّ الرُّتبةِ في العِلْمِ؛ لِأنَّ ذِكرَهم يُكسِبُ الذَّاكِرَ الاقتِداءَ بهم في إخلاصِهم، ورَجاءَ الفَوزِ بما فازوا به مِنَ الاصطِفاءِ

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ﴿عَبۡدَنَآ﴾ بغيرِ ألِفٍ، وقرَأ الباقون ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ بالألِف. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

والأفضَليَّةِ في الخَيرِ، والمَعنى: أخلَصْناهم بسَبَبِ هذه الخَصلةِ، وبأنَّهم مِن أهلِها، أو أخلَصْناهم بتَوفيقِهم لها، واللُّطفِ بهم في اختيارِها؛ وذلك لِأنَّ مَطمَحَ نَظَرِهم فيما يأْتونَ ويَذَرونَ جِوارُ اللهِ، والفَوزُ بلِقائِه، وذلك في الآخِرةِ، أوِ المَعنى: أخلَصْناهم: جَعَلْناهم خالِصينَ، فالهَمزةُ لِلتَّعديةِ، أيْ: طَهَّرْناهم مِن دَرَنِ النُّفوسِ، فصارَتْ نُفوسُهم نَقيَّةً مِنَ العُيوبِ العارِضةِ لِلبَشَرِ، وهذا الإخلاصُ هو مَعنى العِصمةِ اللَّازِمةِ لِلنُّبُوَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ إسنادُ الإخلاصِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحصُلُ لِلنَّفْسِ البَشَريَّةِ إلَّا بجَعلٍ خاصٍّ مِنَ اللهِ تَعالى، وعِنايةٍ لَدُنِّيَّةٍ، بحيثُ تُنزَعُ مِنَ النَّفسِ غَلَبَةُ الهَوى في كُلِّ حالٍ، وتُصرَفُ النَّفْسُ إلى الخَيرِ المَحضِ؛ فلا تَبقَى في النَّفْسِ إلَّا نَزَعاتٌ خَفيفةٌ تُقلِعُ النَّفْسُ عنها سَريعًا بمُجرَّدِ خُطورِها(٢).

- وقَولُه: ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ أيْ: بخَصلةٍ خالِصةٍ لا شَوْبَ فيها، ثم فَسَّرَها بـ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾؛ شَهادةً لِذِكرى الدَّارِ بالخُلوصِ والصَّفاءِ وانتِفاءِ الكُدورةِ عنها. وقيلَ: أيْ: جَعَلْناهم خالِصينَ لنا بخَصلةٍ خالِصةٍ عَظيمةِ الشَّأنِ، كما يُنبِئُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ. وقُرِئَ ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بدونِ تنوينٍ؛ لِإضافَتِه إلى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾، والإضافةُ بَيانيَّةٌ؛ لِأنَّ ذِكرى الدَّارِ هي نَفْسُها الخالِصةُ، فكَأنَّه قيلَ: بذِكرى الدَّارِ. وإنَّما ذَكَر لَفظَ (خالِصة)؛ لِيَقَعَ إجمالٌ ثَمَّ يُفَصَّلُ بالإضافةِ؛ لِلتَّنبيهِ على دِقَّةِ هذا الخُلوصِ. والتَّعريفُ بالإضافةِ؛ لِأنَّها أقصى طَريقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧).

لِلتَّعريفِ في هذا المَقامِ[١].

- والباءُ في ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ لِلسَّببيَّةِ؛ تَنبيهًا على سَبَبِ عِصمَتِهم، وعَبَّرَ عن هذا السَّبَبِ تَعبيرًا مُجمَلًا؛ تنبيهًا على أنَّه أمْرٌ عَظيمٌ دَقيقٌ لا يُتصَوَّرُ بالكُنْهِ، ولكِنْ يُعرَفُ بالوَجْهِ؛ ولذلك استَحضَرَ هذا السَّبَبَ بوَصفٍ مُشتَقٍّ مِن فِعلِ ﴿أَخْلَصْنَاهُم﴾، ثم بُيِّنتْ هذه الخالِصةُ بأقصَى ما تُعبِّرُ عنه اللُّغةُ، وهي أنَّها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

- والذِّكرى: اسمُ مَصدَرٍ يَدُلُّ على قُوَّةِ مَعنى المَصدَرِ، مِثلُ: الرُّجْعى، والبُقْيا؛ لِأنَّ زِيادةَ المَبنى تَقتَضي زِيادةَ المَعنى، والدَّارُ المَعهودةُ لِأمثالِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ، أيْ: بحيث لا يَنسَوْنَ الآخِرةَ، ولا يُقبِلونَ على الدُّنيا، فالدَّارُ الَّتي هي مَحَلُّ عِنايَتِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ هذا عطفٌ على ما قَبْلَه؛ لِأنَّه ممَّا يَبعَثُ على ذِكرِهم بأنَّهم اصطَفاهُمُ اللهُ مِن بَينِ خَلقِه، فقَرَّبَهم إليه، وجَعَلَهم أخيارًا. وصيغتَا ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ تَدُلَّانِ على شِدَّةِ الوَصفِ في المَوصوفِ[٤].

- و﴿عِندَنَا﴾ ظَرفٌ مَعمولٌ لِمَحذوفٍ، دَلَّ عليه ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، أيْ: وإنَّهم مُصطَفَوْنَ عِندَنا، أو مَعمولٌ لـ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، وإنْ كان بـ(ال)؛ لِأنَّهم يَتسَمَّحونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٩).

في الظَّرفِ والمَجرورِ ما لا يَتسَمَّحونَ في غَيرِهما، أو على التَّبيينِ، أيْ: أعْني عِندَنا، ويَعني بالعِنديَّةِ: المَكانةَ[(١)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾

- قولُهُ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ ﴾ فُصِلَ ذِكرُه عن ذِكرِ أبيه وأخيه؛ لِلإشعارِ بعَراقَتِه في الصَّبرِ، الَّذي هُو المَقصودُ بالتَّذكيرِ. وقيلَ: لأنَّ إسماعيلَ كان جَدَّ الأُمَّةِ العَربيَّةِ، أيْ: مُعظَمِها؛ فإنَّه أبو العَدنانيِّينَ، وجَدٌّ لِلأُمِّ لِمُعظَمِ القَحطانيِّينَ؛ لِأنَّ زَوجَ إسماعيلَ جُرهُميَّةٌ؛ فلذلك قُطِعَ عن عَطفِه على ذِكرِ إبراهيمَ، وعادَ الكَلامُ إليه هنا[(٢)]، أو أفرَدَه بالذِّكرِ؛ دَلالةً على أنَّه أصلٌ عَظيمٌ برأسِه مِن أُصولِ الأئِمَّةِ الأعلامِ[(٣)].

- وقَرَنَ ذِكرَ إسماعيلَ بذِكرِ اليَسَعَ وذي الكِفلِ عليهم السَّلامُ، بعَطفِ اسمَيْهما على اسمِه؛ لِوَجهٍ دَقيقٍ في البَلاغةِ؛ فأمَّا عَطفُ اليَسَعَ على إسماعيلَ؛ فلأنَّ اليَسَعَ كان مَقامُه في بَني إسرائيلَ كمَقامِ إسماعيلَ في بَني إبراهيمَ، وأمَّا عَطفُ ذي الكِفلِ على إسماعيلَ؛ فلأنَّه مُماثِلٌ لإسماعيلَ في صِفةِ الصَّبرِ؛ قال اللهُ تعالى في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[(٤)] [الأنبياء: ٨٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩، ٢٨٠).

الآيات (٤٩-٥٤)

﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامةٍ وخُلدٍ، واستِقرارٍ وثباتٍ، يُقالُ: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[2].

﴿أَتْرَابٌ﴾: أي: مُتساوِياتٌ في السِّنِّ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[3].

﴿نَفَادٍ﴾: أي: فَناءٍ وانقِطاعٍ، وأصلُ (نفد): يدُلُّ على انقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عاقبةَ المتَّقينَ وما لَهم مِن النَّعيمِ في الآخرةِ: هذا الَّذي تقَدَّمَ مِن ذِكرِ هؤلاءِ الأنبياءِ ذِكرٌ جَميلٌ في الدُّنيا، وشَرَفٌ يُذْكَرونَ به أبدًا، وإنَّ لِلمُتَّقينَ لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، مَفتوحةً لهم أبوابُها، مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فواكِهَ كثيرةً وشَرابًا.

وعندَ هؤلاءِ المتَّقينَ نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَتطَلَّعْنَ إلى غَيرِهم؛ لِشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، مُتساوياتُ الأعمارِ.

هذا ما نَعِدُكم به -أيُّها المُؤمِنونَ- لِيَومِ الحِسابِ؛ جزاءً على أعمالِكم الصَّالحةِ.

ثُمَّ يخبِرُ اللهُ تعالى عن دوامِ هذا النَّعيمِ، فيقولُ: إنَّ هذا الَّذي ذكَرْناه لكم مِنَ الجَزاءِ لَرِزْقُنا، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على سَفاهةِ قَومِه، وذَكَر جُملةً مِنَ الأنبياءِ وأحوالِهم؛ ذَكَر ما يَؤولُ إليه حالُ المُؤمنينَ والكافِرينَ مِنَ الجَزاءِ، ومَقَرَّ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الفَريقَينِ[1]، وذلك يوجِبُ الصَّبرَ على تكاليفِ اللهِ تعالى[2].

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

أي: هذا الَّذي يُتْلَى عليكم ممَّا تقدَّم مِن أوصافِ الأنبياءِ شرَفٌ وثَناءٌ جميلٌ يُذْكَرون به أبدًا، وكيف لا يكونُ شرَفًا والمُثْني عليهم ربُّ العالَمينَ(١)؟!

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

قولُه: ﴿هَذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم في هذه السُّورةِ مِن ذِكرِ الأنبياءِ. وقيل: الإشارةُ إلى القرآنِ بجملتِه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطية: (﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمِلُ معنيَين؛ أحدُهما: أن يُشيرَ إلى مدحِ مَن ذُكِرَ، وإبقاءِ الشَّرَفِ له...، والثَّاني: أن يُشيرَ بهذا إلى القُرآنِ؛ إذ هو ذِكرٌ للعالَمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الذِّكرَ بمعنى الشَّرفِ والثَّناءِ الجميلِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٧).

قال الألوسي: (وشاع الذِّكرُ بهذا المعنى [أي: الشَّرفِ]؛ لأنَّ الشَّرَفَ يَلزَمُه الشُّهرةُ والذِّكرُ بيْن النَّاسِ، فتُجُوِّزَ به عنه بعَلاقةِ اللُّزومِ، والمرادُ: في ذِكرِ قَصَصِهم وتنويهِ اللهِ تعالى بهم شَرَفٌ عَظيمٌ لهم). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٣). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١٥).

وممَّن اختار أنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ كثير، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٤).

قال ابنُ كثير: (وقَولُه: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فَصلٌ فيه ذِكرٌ لِمَن يَتذَكَّرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (﴿هَذَا﴾ أي: ما تَلَوْناه عليك مِن أمورِهم وأمورِ غَيرِهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شَرَفٌ في الدُّنيا، ومَوعِظةٌ من ذِكرِ القُرآنِ ذي الذِّكرِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٠).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ مِن الآياتِ نوعٌ مِن الذِّكرِ الَّذي هو القرآنُ، وذَكَرَ ذلك للانتقالِ =

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

هذا شُروعٌ في بَيانِ أجْرِهمُ الجَزيلِ في الآجِلِ بَعدَ بَيانِ ذِكرِهمُ الجَميلِ في العاجِلِ[1].

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي: وإنَّ للَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ[2].

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾.

﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ﴾.

أي: لهم حُسنُ مآبٍ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، فلا يُخرَجونَ

= مِن نوعٍ مِن الكلامِ إلى آخَرَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).

قال الرَّازيُّ في بيانِ هذا الوَجهِ: إنَّ الله تعالى (إنَّما شرَحَ ذِكرَ أحوالِ هؤلاء الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ لأجْلِ أن يَصبرَ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ على تحمُّلِ سَفاهةِ قَومِه، فلمَّا تمَّم بيانَ هذا الطَّريقِ، وأراد أن يَذكُرَ عَقيبَه طَريقًا آخَرَ يُوجِبُ الصَّبرَ على سَفاهةِ الجُهَّالِ، وأراد أن يُمَيِّزَ أحَدَ البابَينِ عن الآخَرِ: لا جَرَمَ قال: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾، ثمَّ شَرَع في تقريرِ البابِ الثَّاني، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، كما أنَّ المصَنِّفَ إذا تمَّم كلامًا قال: هذا بابٌ، ثمَّ شَرَع في بابٍ آخَرَ، وإذا فَرَغ الكاتبُ مِن فَصلٍ مِن كِتابِه وأراد الشُّروعَ في آخَرَ، قال: هذا وقد كان كَيْتَ وكَيْتَ، والدَّليلُ عليه أنَّه لَمَّا أتَمَّ ذِكرَ أهلِ الجنَّةِ وأراد أن يُردِفَه بذِكرِ أهلِ النَّارِ قال: ﴿هَـٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

مِنها، ولا يُريدونَ التَّحَوُّلَ عنها[١].

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾.

أي: مُفتَّحةً لهم أبوابُها[٢].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إقامَتَهم ويُسْرَ دُخولِهم؛ وَصَف حالَهم إذ ذاك، فقال[٣]:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٥٠).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ: إنَّ الأبوابَ يُقالُ لها: انْفَتِحي فتَنفتِحُ، انْغَلِقي فتَنغَلِقُ. وقيلَ: تَفتحُ لهم الملائكةُ الأبوابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال لنا قائلٌ: وما في قولِه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ مِن فائدةِ خبرٍ حتَّى ذُكِر ذلك؟

قيل: فإنَّ الفائدةَ في ذلك إخبارُ الله تعالى عنها أنَّ أبوابَها تُفتَحُ لهم بغيرِ فتحِ سُكَّانِها إيَّاها بمعاناةٍ بيدٍ ولا جارحةٍ، ولكن بالأمرِ فيما ذُكِر). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢).

وقال البِقاعي: (﴿لَّهُمُ﴾ أي: لا لِغَيرِهم ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ الَّتي لها والَّتي فيها، فلا يَلحَقُهم في دُخولِها ذُلُّ الحجابِ، ولا كُلْفةُ الاستِئذانِ، تَستَقبِلُهم الملائكةُ بالتَّبجيلِ والإكرامِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠١، ٤٠٢).

ويحتمِلُ قَولُه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أبوابَ الجنَّةِ، يقالُ له: ادخُلْ أيَّ بابٍ من أبوابِها شِئْتَ، على ما يَقولُه بَعضُ النَّاسِ. وجائزٌ أن يكونَ أبوابُ كُلِّ أحَدٍ مِنهم في الجنَّة تكونُ مُفتَّحةً؛ لأنَّ إغلاقَ الأبوابِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا: إمَّا لخَوفِ السَّرِقةِ، أو نظَرِ النَّاسِ إلى أهلِه وحَرَمِه، وخَوفِ نَظَرِ أهلِه إلى النَّاسِ؛ لهذا المعنى تُتَّخَذُ الأبوابُ في الدُّنيا والغَلَقُ والإغلاقُ دُونَهم، وليس ذلك المعنى في الجنَّة. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾.

أي: مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فَواكِهَ كَثيرةً مِن فاكِهةِ الجنَّةِ، وشَرابًا مِن شَرابِها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أمْرَ المَسكَنِ، وأمْرَ المأكولِ والمَشروبِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أمْرَ المَنكوحِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان الأكلُ والشُّربُ داعيَينِ إلى النِّساءِ، لاسيَّما مع الرَّاحةِ؛ قال[٣]:

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾.

أي: وعندَ المُتَّقينَ فيها نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

قيل: ﴿وَشَرَابٍ﴾ أي: وشَرابٍ كَثيرٍ. فحُذِفَت: «كثير»؛ لدَلالةِ الكلامِ عليها. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابن كثير: (أي: مِن أيِّ أنواعِه شاؤوا أتَتْهم به الخُدَّامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

سِواهم، ولا يُرِدْنَ غَيرَهم[1]، وهُنَّ شابَّاتٌ مُتَساوياتٌ أعمارُهنَّ[2].

---

(١) قال ابن القيِّم: (المفسِّرون كُلُّهم على أنَّ المعنى: قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَطمَحْنَ إلى غيرِهم. وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنَّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صِفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحِسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتَعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على كِلا المعنيَين: السعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

ممَّن اختار أنهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لِبَعضٍ، مستوياتُ الأسنانِ فهُنَّ في سِنٍّ واحدةٍ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والبغويُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

وقيل: هُنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ؛ أسنانُهنَّ كأسنانِهم. وممَّن اختار هذا المعنى: أبو القاسم النَّيسابوريُّ، والنسفي. يُنظر: ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧١٦)، ((تفسير النسفي)) (٦/ ١٦٠).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ فقال: المرادُ أنَّهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لبَعضٍ، وأنَّهنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ أيضًا: البقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧).

قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ وَصْفٌ قائمٌ بجميعِ نِساءِ الجنَّةِ مِن مخلوقاتِ الجنَّةِ، ومِن النِّساءِ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا في الدُّنيا لأصحابِ الجنَّةِ؛ فلا يكونُ بعضُهنَّ أحسَنَ شَبابًا مِن بَعضٍ، فلا يَلحَقُ بعضَ أهلِ الجنَّةِ غَضٌّ إذا كانت نساءُ غَيرِه أجَدَّ شَبابًا، ولئلَّا تَتفاوَتَ نِساءُ الواحِدِ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٣].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ المذكورُ هو ما يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها المُتَّقونَ- لِيَومِ الحِسابِ؛ جَزاءً لكم على أعمالِكم الصَّالحة(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ هذا الجَزاءَ المَذكورَ للمُتَّقينَ في الجنَّةِ لَرِزقُنا الَّذي نُعطيهم إيَّاه؛ كرامةً مِنَّا لهم، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ عنهم أبدًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الحَثُّ على التَّقْوى، وذلك

= مِن المتَّقينَ في شَرخِ الشَّبابِ، فيَكونَ النَّعيمُ بالأقَلِّ شَبابًا دونَ النَّعيمِ بالأجَدِّ مِنهنَّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) الشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال الشوكاني: (﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به لأجْلِ يوم الحسابِ؛ فإنَّ الحسابَ عِلَّةٌ للوصولِ إلى الجزاءِ، أو المعنَى: في يومِ الحسابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

بذِكرِ ثَوابِها؛ لأنَّ الحَثَّ على الشَّيءِ يكونُ بالأمرِ به -كما هو ظاهِرٌ-، ويكونُ بالوَعيدِ على تَركِه، والثَّناءِ على فِعلِه، وطُرُقُ الحَثِّ على الشَّيءِ مُتنَوِّعةٌ، ومنها ذِكرُ حُسْنِ المآبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ حَثُّ النَّاسِ على العَمَلِ؛ لأنَّه كُلَّما تَذَكَّرَ الإنسانُ أنَّه سوف يُحاسَبُ عن عَمَلِه فإنَّه سوف يَحرِصُ ويَجتهِدُ في العَمَلِ؛ حتَّى لا يُحاسَبَ على شَيءٍ يكونُ عليه[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ بِشارةُ المتَّقينَ بأنَّ لهم حُسْنَ المآبِ -أي: المرجِعِ-، وعلى العَكسِ مِن ذلك: غيرُ المتَّقينَ لهم سُوءُ المآبِ؛ لأنَّ اللهَ إذا حَكَمَ للشَّيءِ بصِفةٍ مِن الصِّفاتِ فإنَّه يُحكَمُ له بضِدِّه إذا انتَفَتْ هذه الصِّفةُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ هذا دليلٌ على الأمانِ التَّامِّ، وأنَّه ليس في جنَّاتِ عَدنٍ ما يُوجِبُ أن تُغلَقَ لأجْلِه أبوابُها[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ فلا يَحتاجونَ أن يَفْتَحوها هم، بل هم مَخْدومونَ[٥]، فأفاد ذلك كثرةَ الخَدَمِ[٦].

٤- تأمَّلْ قولَه سُبحانَه: ﴿مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ كيف تَجِدُ تحتَه معنًى بديعًا، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

أنَّهم إذا دَخَلوا الجنَّةَ لم تُغْلَقْ أبوابُها عليهم، بل تبقَى مُفَتَّحةً كما هي، وأمَّا النَّارُ فإذا دَخَلَها أهلُها أُغلِقَتْ عليهم أبوابُها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي: مُطبَقةٌ، ومنه سُمِّيَ البابُ وَصيدًا، وهي مُؤْصَدةٌ في عَمَدٍ مُمَدَّدَة، قد جُعِلَت العَمَدُ مُمسِكةً للأبوابِ مِن خَلْفِها -على قولٍ- كالحَجَرِ العظيمِ الَّذي يُجعَلُ خَلْفَ البابِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ الاتِّكاءُ: من هَيئاتِ أهلِ السَّعادةِ. وقولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ عِندَهم مَن يَستَخدِمونَه فيما يَستَدعونَ؛ كَقَولِه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[2] [الإنسان: ١٩].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ هذا يَدُلُّ على كَمالِ النَّعيمِ، وكَمالِ الرَّاحةِ والطُّمأنينةِ، وتمامِ اللَّذَّةِ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كمالُ عِفَّةِ هؤلاءِ النِّساءِ؛ لِكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرنَ إلى غيرِ أزواجِهنَّ، وفيها كمالُ جمالِ هؤلاء النِّساءِ حِسًّا ومعنًى؛ لأنَّهنَّ يَقصُرْنَ أطرافَ أزواجِهنَّ عليهنَّ، فالزَّوجُ لا يَنظُرُ إلى غيرِها؛ لأنَّها قد مَلأَتْ عَينَه، وسَرَّت قَلبَه[4]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دَلالةٌ على بقاءِ نَعيمِ الجنَّةِ[5].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣١٠).

لِلإيذانِ بانتِهاءِ ما تَقدَّمَ مِن قَصَصٍ، والشُّروعِ في مَوضوعٍ آخَرَ، ولَمَّا كان ما يَذكُرُه نَوعًا مِن أنواعِ التَّنزيلِ، قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌ﴾، وهي جُملةٌ فَصَلتِ الكَلامَ السَّابقَ عن الكَلامِ الآتي بَعدَها؛ قَصدًا لِانتِقالِ الكَلامِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثلَ جُملةِ (أمَّا بَعدُ)، وهذا الأُسلوبُ مِنَ الانتِقالِ هو المُسَمَّى في عُرفِ عُلَماءِ الأدَبِ: الاقتِضابَ[1]. وذلك على قولٍ.

- وصَرَّح بالخَبَرِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌ﴾؛ لِلاهتِمامِ بتَعيينِ الخَبَرِ، أيْ: هذا شَرَفٌ لهم، وذِكرٌ جَميلٌ يُذْكَرونَ به أبدًا، أو نَوعٌ مِنَ الذِّكرِ الَّذي هو القُرآنُ، وبابٌ منه مُشتَمِلٌ على أنباءِ الأنبياءِ عليهِمُ السَّلامُ، وأرادَ أنْ يَذكُرَ على عَقِبِه بابًا آخَرَ، وهو ذِكرُ الجَنَّةِ وأهلِها[2].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌ﴾ قيل: المَقصودُ مِنَ المُشارِ إليه التَّذكُّرُ والاقتِداءُ، فلا يَأخُذِ السَّامِعُ اسمَ الإشارةِ مأْخَذَ الفَصلِ المُجرَّدِ والانتِقالِ الاقتِضابيِّ، مع إرادةِ التَّوجيهِ بلَفظِ (ذِكرٌ)، بتَحميلِه مَعنى حُسنِ السُّمعةِ، أيْ: هذا ذِكرٌ لِأولئك المُسَمَّينَ في الآخَرينَ، مع أنَّه تَذكِرةٌ لِلمُقتَدينَ، ومِن هنا احتُمِلَ أنْ تَكونَ الإشارةُ بهذا إلى القُرآنِ، أيْ: القُرآنُ ذِكرٌ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا ابتِدائيًّا لِلتَّنويهِ بشَأنِ القُرآنِ[3].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ المُرادُ بالمُتَّقينَ إمَّا الجِنسُ، وهم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا المَذكورونَ أنْفُسُهم؛ عَبَّرَ عنهم بذلك مَدْحًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

لهم بالتَّقْوى الَّتي هي الغايةُ القاصيةُ مِنَ الكَمالِ[١].

- واللَّام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أيْ: لهم حُسنُ مآبٍ يومَ الجَزاءِ[٢].

- وأظهَرَ الوَصفَ الَّذي أدَّاهم إلى هذا المآبِ؛ تَعميمًا لكُلِّ مَنِ اقتدَى بهم؛ حَثًّا على الاقتِداءِ، فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾

- تَفتيحُ الأبوابِ كِنايةٌ عن التَّمكينِ مِنَ الانتِفاعِ بنَعيمِها؛ لِأنَّ تَفتيحَ الأبوابِ يَستَلزِمُ الإذْنَ بالدُّخولِ، وهو يَستَلزِمُ التَّخليةَ بيْنَ الدَّاخِلِ وبيْنَ الانتِفاعِ بما وراءَ الأبوابِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾

- قَولُه: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ استِئنافٌ لِبيانِ حالِهم فيها[٥].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ الفاكِهةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ مَطاعِمَهم لِمَحضِ التَّلذُّذِ والتَّفكُّهِ، وليستْ لِلتَّغذِّي وإقامةِ الجِسمِ؛ فإنَّ التَّغذِّيَ لِلتَّحلُّلِ، ولا تَحَلُّلَ ثَمَّةَ[٦]. وقيل: المقصودُ من ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[١].

- والشَّرابُ: اسمٌ للمشروبِ، وغَلَب إطلاقُه على الخَمرِ إذا لم يَكُنْ في الكلامِ ذِكْرٌ للماءِ، وتَنوينُ (شَرَاب) هنا لِلتَّعظيم، أيْ: شَراب نَفيس في جنسِه. قيل: لَمَّا كانتِ الفاكِهةُ يَتنوَّعُ وَصْفُها بالكَثرةِ، وكَثرَتُها باختِلافِ أنواعِها، وكَثرةِ كُلِّ نَوعٍ منها، ولَمَّا كانَ الشَّرابُ نَوعًا واحِدًا وهو الخَمرُ؛ أُفرِدَ. وقيل: التَّقديرُ: وشرابٌ كثيرٌ، لكنْ حُذِف (كثيرٌ)؛ لِدَلالةِ ما قبْلُ، ورعايةً للفاصلةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾

- إسنادُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلى ضَميرِهِنَّ إسنادٌ حَقيقيٌّ، أيْ: لا يُوَجِّهنَ أنظارَهُنَّ إلى غَيرِهم، وذلك كِنايةٌ عن قَصرِ مَحَبَّتِهِنَّ على أزواجِهِنَّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهُنَّ يَقصُرنَ أطرافَ أزواجِهِنَّ عليهِنَّ، فلا تَتوَجَّهُ أنظارُ أزواجِهِنَّ إلى غَيرِهِنَّ؛ اكتِفاءً منهم بحُسنِهِنَّ؛ وذلك كِنايةٌ عن تَمامِ حُسنِهِنَّ في أنظارِ أزواجِهِنَّ بحيث لا يَتعَلَّقُ استِحسانُهم بغَيرِهِنَّ[٣].

- وقَولُه: ﴿أَتْرَابٌ﴾ كأنَّ اللِّدَاتِ[٤] سُمِّينَ أتْرابًا؛ لِأنَّ التُّرابَ مَسَّهُنَّ في وَقتٍ واحِدٍ، وإنَّما جُعِلنَ على سِنٍّ واحِدةٍ؛ لِأنَّ التَّحابَّ بيْنَ الأقرانِ أثبَتُ. وقيلَ:

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) اللِّدَات: جمعُ اللِّدَةِ -بالكسر-، وهو الَّذي يولَدُ معك في وقتٍ واحدٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٩/ ٣٢٦).

هُنَّ أترابٌ لِأزواجِهِنَّ، أسنانُهُنَّ كأسنانِهِم، أو بَعضُهُنَّ لِبَعضٍ، لا عَجوزَ فيهِنَّ ولا صَبِيَّةَ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٩]، والإشارةُ إذَنْ إلى ما سَبَقَ ذِكرُه مِن قَولِه: ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٤٩]. وجيءَ باسمِ الإشارةِ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ تَنزيلًا لِلمُشارِ إليه مَنزِلةَ المُشارِ إليه الحاضِرِ؛ إيماءً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه تَبشيرًا لِلمُتَّقينَ[2].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ على ظاهِرِه، ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا يُقالُ لِلمُتَّقينَ في الجَنَّةِ، فتَكونَ الجُملةُ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ، هو في مَحَلِّ حالٍ ثانيةٍ مِنَ (المُتَّقينَ)، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعَدونَ لِيَومِ الحِسابِ[3].

- قولُه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ فيه التِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وهو ألْيَقُ بمقامِ الامتِنانِ والتَّكريمِ، وتَشريفِ المُتَّقينَ بعِزِّ الحُضورِ لِخِطابِ اللهِ تَعالى، ويحتمِلُ أنْ يكونَ الكلامُ للمُتَّقينَ في الجنَّةِ، فالخِطابُ لهم على ظاهِرِه. وقرِئ ﴿يُوعَدُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[4]، وهو يوافِقُ ما قبْلَه مِن الآياتِ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) قرأها بالياءِ للغَيْبةِ: ابنُ كثير، وأبو عَمرو، وقرأها الباقون بالتَّاءِ للخِطاب. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤).

- واللَّامُ في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: وُعِدتُموه لِأجْلِ يَوم الحِساب، والمَعنى: لِأجْلِ الجَزاءِ يومَ الحِسابِ؛ فإنَّ الحِسابَ عِلَّةٌ لِلوُصولِ إلى الجَزاءِ، فلَمَّا كانَ الحِسابُ مُؤْذِنًا بالجَزاءِ، جُعِلَ اليَومُ هو العِلَّةَ، وهذه اللَّامُ تُفيدُ مَعنى التَّوقيتِ تَبَعًا، كقَولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ تَنزيلًا لِلوَقتِ مَنزِلةَ العِلَّةِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ فيه التَّوكيدُ بـ(إنَّ)؛ لِلاهتِمامِ[٢].

- والعُدولُ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا﴾؛ لِكَمالِ العِنايةِ بتَمييزِه وتَوجيهِ ذِهنِ السَّامِعِ إليه[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٤).

الآيات (٥٥-٦٤)

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ
حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ
صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن
قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ
٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ الحَدَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[1].

﴿فَبِئۡسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مستوفيةٌ لجميعِه[2].

﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أي: الفِراشُ والقَرارُ، والمَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المِهادِ: المكانُ المُمَهَّدُ المُوطَّأُ[3].

﴿حَمِيمٞ﴾: أي: ماءٌ شَديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ[4].

﴿وَغَسَّاقٞ﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

غَسَقَتْ عَينُه: إذا انصَبَّتْ، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهَى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها(١).

﴿شَكْلِهِۦٓ﴾: أي: مِثْلِه وضَرْبِه ونَظيرِه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على مُماثَلةٍ(٢).

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أي: أنواعٌ وأصنافٌ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ(٣).

﴿فَوْجٌ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تَجمُّعٍ(٤).

﴿مُّقْتَحِمٌ﴾: أي: داخِلٌ كُرهًا، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الشَّيءِ بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾: أي: مُقاسو حَرِّها وشِدَّتِها، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ[(١)].

﴿زَاغَتْ﴾: أي: عدَلتْ ومالَتْ، وأصلُ الزيغِ: المَيلُ عن الاستقامةِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾

﴿هَٰذَا﴾: مُبتدَأٌ، وفي الخبَرِ وَجهانِ؛ أحدُهما: ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾، و﴿حَمِيمٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿هَٰذَا﴾، أو خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو حَميمٌ، أو مُبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: مِنه حَميمٌ وغَسَّاقٌ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿هَٰذَا﴾. والوَجهُ الثَّاني: أن يكونَ ﴿حَمِيمٞ﴾ خبَرَ ﴿هَٰذَا﴾، و﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ مُعترِضٌ بَيْنَهما لا محلَّ له. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، أي: فلْيَذوقوا هذا، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿حَمِيمٞ﴾ أي: هو حَميمٌ[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿تَخَاصُمُ﴾ فيه أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن (حَقٌّ)، أو عَطفُ بَيانٍ.

الثَّاني: أنَّه خبَرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو تُخاصُمُ، والجملةُ بيانٌ لاسمِ الإشارةِ،

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٣٤).

وقيل غيرُ ذلك[١].

المعنى الإجماليُّ:

بعدَما انتهى الحديثُ عن المؤمنينَ وحُسنِ عاقِبتِهم؛ شَرَع تعالى يُبيِّنُ حالَ الكافِرينَ وسُوءَ مُنقَلَبِهم، فقال: هذا الَّذي ذُكِرَ من الجزاءِ هو شأنُ المتَّقينَ، وإنَّ لِلَّذين تَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ لَشَرَّ مَرجعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ؛ جهنَّمَ يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها؛ فبِئسَ الفِراشُ هي، هذا هو عَذابُنا الَّذي أعدَدْناه لهم؛ ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وقَيحٌ وصَديدٌ يَسيلانِ من أجسادِهم، فلْيَذوقوه، ولهم عَذابٌ آخَرُ على شاكِلةِ الحَميمِ والغَسَّاقِ يُعذَّبونَ به.

ثمَّ حكَى سُبحانَه أنَّه يُقالُ: هذا جَمعٌ كَثيرٌ مِن أتْباعِكم وإخوانِكم داخِلونَ معكم النَّارَ لا مَرحَبًا ولا أهلًا بهم؛ إنَّهم داخِلونَ النَّارَ، ومُقاسُونَ حَرَّها!

فقال الفَوجُ الدَّاخِلونَ في النَّارِ: بل أنتم لا مَرحبًا بكم؛ إذ دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الكُفرِ فاتَّبَعْناكم؛ فتَسبَّبتُم لنا في دُخولِ النَّارِ معكم، فبِئسَ القَرارُ والمَنزِلُ لنا ولكم: جَهنَّمُ!

ثمَّ قال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في دُخولِنا النَّارَ، فضاعِفْ له العذابَ فيها.

وقال أولئك الطَّاغون: ما بالُنا لا نرَى معنا رِجالًا مِن فُقَراءِ المؤمِنينَ كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا، أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً وما دخَلوا النارَ معَنا؟ أمْ دخَلوها ولكِنْ أبصارُنا لا تَراهم وزاغَت عنهم؟!

ثمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا ما أخبَر به، وهو أصدَقُ القائلينَ: إنَّ ذلك الَّذي

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٩٤).

قصَصْناه مِن تخاصُمِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم وتلاعُنِهم: حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف ثوابَ المتَّقينَ، وصَفَ بَعدَه عِقابَ الطَّاغينَ؛ لِيَكونَ الوَعيدُ مَذكورًا عَقِيبَ الوَعدِ، والتَّرهيبُ عَقيبَ التَّرغيبِ(١).

﴿ هَٰذَا ﴾.

أي: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شَأنُ المتَّقينَ(٢).

﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾.

أي: وإنَّ لِلَّذين لم يَصبِروا على ما أُمِروا به، واجتِنابِ ما نُهُوا عنه، فتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والظُّلمِ ومَعصيةِ اللهِ تعالى: لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال البقاعي: (﴿ هَٰذَا ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الَّذي هو جديرٌ بأن يُجعَلَ نُصبَ العَينِ، وهو أنَّه لكُلٍّ مِن الفريقَين ما ذُكِرَ وإنْ أنكَرَه الكَفَرةُ. وحَذفُ الخبَرِ بعدَ إثباتِه في الأوَّلِ أهْوَلُ؛ لِيَذهَبَ الوَهمُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)﴾.

أي: وهو جَهنَّمُ، فيَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها، فبِئسَ الفِراشُ الَّذي افتَرَشوه لأنفُسِهم في الآخِرةِ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم في الدُّنيا[1].

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧)﴾.

أي: هذا ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وصديدٌ يَسيلُ مِن أجسادِ أهلِ النَّارِ، فلْيَذوقُوه[2]!

= (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالطَّاغينَ هنا: عُظَماءُ أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّهم تكبَّروا بعظَمتِهم على قَبولِ الإسلامِ، وأعرَضوا عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِبرٍ واستِهزاءٍ، وحَكَموا على عامَّةِ قَومِهم بالابتِعادِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن المُسلِمينَ، وعن سَماعِ القُرآنِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣، ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، أي: هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فلْيَذوقوه: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٥).

وقال الفَرَّاءُ بعدَ أن ذكَرَ الوجهَ السَّابقَ: (وإن شئتَ جعَلْتَه مُستأنَفًا، وجعلْتَ الكلامَ قبْلَه مكتفيًا، كأنَّك قُلْتَ: هذا فلْيَذوقوه، ثمَّ قلتَ: منه حميمٌ ومنه غَسَّاقٌ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤١٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي: منه حميمٌ ومنه غسَّاقٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٢٤٥). =

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾.

أي: ولهم عَذابٌ آخَرُ مِن نحوِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلى شاكِلتِه، ذو أنواعٍ وأصنافٍ يُعذَّبونَ بها[1].

= وممَّن اختار أنَّ الغَسَّاقَ هو ما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وقَتادةُ، وإبراهيمُ، وابنُ زَيدٍ، وعطيَّةُ العَوفيُّ، وأبو رَزينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

قال السعدي: (هو أكْرَهُ ما يكونُ مِن الشَّرابِ، مِن قَيحٍ وصَديدٍ، مُرِّ المذاقِ، كَريهِ الرَّائحةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقيل: الغَسَّاقُ ضِدُّ الحميم، فهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ؛ من شِدَّةِ بَردِه المؤلم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الغَسَّاقُ: سائِلٌ يَسيلُ في جَهنَّمَ، وأحسَبُ أنَّ هذا الاسمَ بهذا الوزنِ أطلَقَه القرآنُ على سائلٍ كَريهٍ يُسقَونَه، كقَولِه: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأحسَبُ أنَّه لم تكُنْ هذه الزِّنةُ مِن هذه المادَّةِ مَعروفةً عندَ العَرَبِ، وبذلك يُومئُ كلامُ الرَّاغِبِ، وهذا سَبَبُ اختلافِ المفَسِّرينَ في المرادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

وذهب البقاعي إلى جميعِ هذه المعاني وغيرِها، فعَرَّفَ الغَسَّاق بأنَّه سائِلٌ مُنتِنٌ عَظيمٌ جِدًّا، بارِدٌ أسْوَدُ مُظلِمٌ شَديدٌ في جميعِ هذه الصِّفاتِ مِن صَديدٍ ونَحوِه. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣١ - ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَيِّتُ تَحضُرُه الملائِكةُ، فإذا كان الرَّجُلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيَّتُها النَّفسُ الطَّيِّبةُ... وإذا كان الرَّجُلُ السَّوءُ قال: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخَبيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبْشِري بحَميمٍ وغَسَّاقٍ وآخَرَ مِن شَكلِه أزواجٍ، فلا يَزالُ يُقالُ لها ذلك حتَّى تَخرُجَ، ثمَّ يُعرَجُ بها إلى السَّماءِ، فلا يُفتحُ لها، فيُقالُ: مَن هذا؟ فيُقالُ: فُلانٌ، فيُقالُ: لا مَرحبًا بالنَّفْسِ الخَبيثةِ كانت في الجسَدِ الخَبيثِ، ارجِعي ذَميمةً؛ فإنَّها لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السَّماءِ، فيُرسَلُ بها مِنَ السَّماءِ، ثمَّ تَصيرُ إلى القَبرِ))[1].

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ٥٩﴾.

= قال ابنُ جُزَي: (﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ (آخرُ) مَعطوفٌ على ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، تقديرُه: وعذابٌ آخَرُ. قيل: يعني الزَّمهريرَ، ومعنى ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مِثلِه ونَوعِه، أي: مِن مِثلِ العَذابِ المذكورِ، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ معناه أصنافٌ، وهو صِفةٌ للحَميمِ والغَسَّاقِ والعذابِ الآخَرِ، والمعنى: أنَّهما أصنافٌ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أمَّا الحميمُ فهو: الحارُّ الَّذي قد انتهَى حَرُّه، وأمَّا الغَسَّاقُ فهو: ضِدُّه، وهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ مِن شِدَّةِ بردِه المؤلِمِ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: وأشياءُ من هذا القبيلِ، الشَّيءُ وضِدُّه يُعاقَبونَ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢) واللفظ له، وأحمد (٨٧٦٩).

صَحَّح الحديثَ الذهبيُّ في ((العرش)) (٢٩)، وابنُ القيِّم في ((الروح)) (٢/ ٥٨٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٦٢). وصَحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (٢/ ٤٩١، ٥٠٣).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف مَسْكَنَ الطَّاغِينَ ومَأكولَهم؛ حكَى أحوالَهم مع الَّذين كانوا أحِبَّاءَ لهم في الدُّنيا أوَّلًا، ثمَّ مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا ثانيًا[١].

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾.

أي: هذه جَماعةٌ كَبيرةٌ مُقتَحِمونَ النَّارَ مَعكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨).

قيل: القائِلُ لهم ذلك: هم ملائِكةُ العذابِ (خزنة النَّار- الزَّبانِيَة). وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)،))تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ هذا قولُ الزَّبانيةِ للقادةِ المتقدِّمينَ في الكفرِ إذا جاؤوهم بالأتْباعِ. وقيل: بل هو قولُ الملائكةِ لأهلِ النَّارِ كلَّما جاؤوهم بأمَّةٍ بعدَ أُمَّةٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: هذا مِن كلامِ أهلِ النَّارِ بعضِهم لبعضٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

واختار ابنُ كثير أنَّ هذا الكلامَ تقولُه الطَّائفةُ الَّتي تدخلُ قبْلَ الأخرَى إذا أقْبَلَتِ الَّتي بعدَها مع الخَزَنةِ مِن الزَّبانيةِ.

واختار ابنُ عاشور أنَّ هذا الكلامَ يقولُه الطَّاغونَ بعضُهم لبعضٍ.

والمرادُ بالفَوجِ المُقتَحِمِ: قيل: الأتْباعُ، والضَّميرُ في ﴿مَّعَكُمۡ﴾ يعودُ إلى رؤسائِهم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٧). =

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

أي: لا اتَّسَعت مَداخِلُهم ومَنازِلُهم في النَّارِ؛ إنَّهم داخِلوها ومُقاسُونَ حَرَّها[1].

= وقال مكِّي: (ثمَّ قال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾ أي: هذه فِرقةٌ مقتحمةٌ معكم في النَّارِ، وذلك دُخولُ أمَّةٍ مِن الكفَّارِ بعدَ أمَّةٍ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٧٨).

قال الماوَرْديُّ: (وفي الفَوجِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم بنو إبليسَ. والثَّاني: بنو آدمَ، قاله الحسَنُ. والقولُ الثَّاني: أنَّ كِلا الفَوجَينِ بنو آدَمَ، إلَّا أنَّ الأوَّلَ الرُّؤساءُ، والثَّانيَ الأتْباعُ. وحكى النَّقَّاشُ أنَّ الفَوجَ الأوَّلَ قادةُ المشركينَ ومُطعِموهم يومَ بَدرٍ، والفَوجَ الثَّانيَ أتْباعُهم ببَدرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤، ١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا يَلْقَون رُحْبًا ولا خيرًا، وهو دعاءٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

ممَّن اختار في الجملة أنَّ هذا من قولِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ الطَّاغينَ الَّذينَ كانوا قد دَخَلوا النَّارَ قبْلَ هذا الفَوجِ المُقتحِم: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٥٠٧).

وممَّن اختار أنَّه من قولِ بعضِ أهلِ النَّارِ لبعضٍ (المتقدِّمينَ في النَّارِ للدَّاخِلينَ عليهم): مكِّي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

وقيل: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ هو مِن تمام كلام الخَزَنة. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ من كلامِ الخَزَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّه مِن كلامِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي =

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾.

أي: قال لهم الفَوجُ الدَّاخِلونَ النَّارَ: بل[1] أنتم لا اتَّسَعَتْ بكم أماكِنُكم؛ فأنتم دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الضَّلالِ الَّذي أفضَى بنا في الآخِرةِ إلى هذا المصيرِ[2]!

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

أي: فبِئسَ المُستَقَرُّ النَّارُ[3].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وقال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في استِحقاقِنا عذابَ النَّارِ، فضاعِفْ له العذابَ فيها زيادةً على عَذابِه[4].

= (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧).

(١) قال ابنُ عاشور: (﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَولى به منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

قال ابن عاشور: (﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾... أي: أنتم أَولى بالشَّتمِ والكراهيةِ بأن يُقالَ: لا مَرحبًا بكم؛ لأنَّكم الَّذين تَسبَّبتُم لأنفُسِكم ولنا في هذا العذابِ، بإغرائِكم إيَّانا على التَّكذيبِ والدَّوامِ على الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (الضَّمير في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ للعذابِ، ومعنى ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾: أوجَبْتُموه لنا بما قدَّمْتُم في الدُّنيا مِن إغوائِنا، وأمْرِكم لنا بالكفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن شَرَح أحوالَ الكُفَّارِ مع الَّذين كانوا أحبابًا لهم في الدُّنيا؛ شَرَح أحوالَهم مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا[١].

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

أي وقال الطَّاغُونَ: ما بالُنا لا نَرى مَعَنا رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا[٢]

= للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).

قال ابنُ القيِّم: (يجوزُ أن يكونَ الأتْباعُ دَعَوا على سادتِهم وكُبَرائِهم وأئمَّتِهم به؛ لأنَّهم هم الَّذين حَمَلوهم عليه، ودَعَوهم إليه، ويجوزُ أن يكونَ جَميعُ أهلِ النَّارِ سألوا ربَّهم أن يَزيدَ مَن سَنَّ لهم الشِّركَ وتكذيبَ الرُّسُلِ -صلَّى اللهُ عليهم وسلَّم- ضِعفًا، وهم الشَّياطينُ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٧٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٨).

ونسَب ابنُ الجوزيِّ إلى ابنِ السَّائبِ: أنَّه قولُ جميعِ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٥).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أي: كنَّا نَحْسَبُهم أشقياءَ قد خَسِروا لَذَّةَ الحياةِ باتِّباعِهم الإسلامَ، ورِضاهم بشَظَفِ العيشِ، وهم يَعنُونَ أمثالَ بلالٍ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وصُهَيبٍ، وخَبَّابٍ، وسَلمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

وممَّن قال بأنَّهم يَعْنون: مُستضعَفي المؤمنينَ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وقال البقاعي: ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أي: الأراذل الَّذين لا خيرَ فيهم بأنَّهم قد قطعوا الرَّحِمَ، وفرَّقوا بيْنَ العشيرةِ، وأفسَدوا ذاتَ البينِ، وغيَّروا الدِّينَ بكَونِهم لا يَزالون يُخالِفون النَّاسَ في أقوالِهم =

لا خَلاقَ لهم، يَعنُونَ بذلك المؤمنينَ[١]؟!

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- قولُه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بوَصلِ الهَمزةِ، فتَكونُ جُملةً خَبريَّةً، أي: إنَّا اتَّخَذْناهم سِخْرِيًّا[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بقَطعِ الهَمزةِ على الاستِفهامِ، بمعنى: هل اتَّخَذْناهم سِخْريًّا، ولم يكونوا كذلك[٣]؟!

= وأفعالِهم، مع ما كانوا فيه مِن الضَّعفِ والذُّلِّ والهَوانِ وسوءِ الحالِ في الدُّنيا، فيَظُنُّ أهلُها نقْصَ حظِّهم منها، وكثرةَ مصائبِهم فيها لسوءِ حالِهم عندَ اللهِ!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤١٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في: «قَالُوا» لأشرافِ الكُفَّارِ ورُؤَسائِهم، أخبَرَ اللهُ عنهم أنَّهم يَتذكَّرونَ إذا دخَلوا النَّارَ لِقَومٍ مِن مُستَضعَفي المؤمنينَ، فيقولونَ هذه المقالةَ، وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ أمَّةٍ جاءَها رَسولٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وشِمْرُ بنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٠١).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بهم المؤمِنونَ دونَ أن يَخصُصَهم بالمُستَضعَفينَ منهم: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢). =

ب- قولُه: ﴿سِخْرِيًّا﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى[١].

٢- قِراءةُ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسرِ السِّينِ. بمعنى: الاستِهزاءِ[٢].

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣﴾.

أي: أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً؛ فلم يَكونوا كذلك، وما دخَلوا النَّارَ معَنا، أم مالَتْ عنهم أبصارُنا، فلا نَراهم وهم في النَّارِ قد دخَلوها معَنا[٣]؟

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

(١) قرأ بها نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

قال ابنُ عطيةَ: (﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بألِفِ الاستفهامِ، ومعناها: تقريرُ أنفُسِهم على هذا على جهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥١). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۞ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۞ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۞ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾.

أي: إنَّ ذلك الَّذي ذُكِر مِن مُراجَعاتِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم، ودُعاءِ بَعضِهم على بَعضٍ: لَحَقٌّ وصِدقٌ ثابِتٌ لا بُدَّ أن يقَعَ يومَ القيامةِ كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أنَّ الأفضلَ للدَّاعيةِ أنْ يَجعَلَ دَعوتَه مُشتَمِلةً على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ وذلك لأنَّ الدَّعوةَ إذا كانت مُقتَصِرةً على التَّرغيبِ صارت

= قال ابن جزي: (﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هذا يحتمِلُ ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾، والمعنى: ما لنا لا نراهم في جهنَّمَ، فهم ليسوا فيها، أم هم فيها ولكِنْ زاغَتْ عنهم أبصارُنا؟ ومعنى ﴿زَاغَتۡ عَنۡهُمُ﴾ مالت فلم نرَهم.

الثاني: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ والمعنى: أتَّخذناهم سخريًّا. و«أم زاغت الأبصار» على هذا: مالت عن النَّظرِ إليهم احتقارًا لهم.

الثالث: أنْ تكونَ «أم» منقطعةً بمعنى «بل والهمزةِ» فلا تعادلُ شيئًا مما قبلَها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قيل: أهلُ النَّارِ هنا هم الخالِدونَ فيها، كقَولِهم: أهلُ قريةِ كذا؛ فإنَّه لا يَشملُ المغتربَ بيْنَهم، وأنَّه وقتَ نُزولِ هذه الآيةِ لم يكُنْ في مكَّةَ غَيرُ المُسلمينَ الصَّالحينَ، وغيرُ المُشركين، فوصْفُ أهلِ النَّارِ يومَئذٍ لا يَتحقَّقُ إلَّا في المُشرِكينَ دونَ عُصاةِ المُسلمينَ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤).

سَبَبًا للأمْنِ مِن مَكرِ اللهِ، وأنْ يَتمادَى الإنسانُ في مَعصيةِ اللهِ ويَرجو اللهَ، وإذا كانت مُقتصِرةً على التَّرهيبِ صارتْ سَبَبًا للقُنوطِ مِن رَحمةِ اللهِ، واستبعادِ الرَّحمةِ، وهذا ضَرَرٌ، بل ينبغي أنْ يكونَ الدَّاعِيةُ جامِعًا بيْنَ هذا وهذا؛ لِيَحْمِلَ النَّاسَ على الرَّجاءِ وعلى الخَوفِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ أنَّ هذا الخِصامَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ حَقٌّ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يجبُ على كلِّ أحدٍ ألَّا يَغترَّ بالسَّادةِ والمَتبوعِينَ، بل يكونُ هَمُّه نَفْسَه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كمالُ القُرآنِ في التَّعليمِ والتَّبليغِ، وأنَّه مَثانٍ؛ إذا ذَكَر المتَّقينَ وثَوابَهم ذَكَر المجرِمينَ وعِقابَهم؛ ولهذا قال: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾، الطَّاغون ضِدُّ المتَّقينَ؛ لهم شَرُّ مآبٍ(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتذَكَّرونَ ما جَرَى لهم في الدُّنيا(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أنَّ الأتْباعَ والمتبوعِينَ مِن أهلِ النَّارِ كلَّهم يَكونونَ في النَّارِ، فلا يُعذَرُ هؤلاء بتبَعيَّتِهم للسَّادةِ والكُبَراءِ، ولكِنْ هذا ليس على إطلاقِه؛ فإنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ على أنَّه لا يُعَذَّبُ أحَدٌ حتَّى تقومَ عليه الحُجَّةُ، وعلى هذا فيُحمَلُ الأتْباعُ هنا على الأتْباعِ الَّذين بَلَغَتْهم الحُجَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

وبَلَّغتْهم الرُّسُلُ، ولكنْ قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ ولهذا قال تعالى في سورةِ (الأحزاب): ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]؛ فدلَّ هذا على أنَّ هؤلاءِ الأتْباعَ قد قامتْ عليهمُ الحُجَّةُ؛ ولهذا يقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستعمَلٌ في الانتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ؛ تَنهيةً لِلغَرَضِ الَّذي قَبْلَه. واسمُ الإشارةِ (هذا) في هذا المَقامِ مِنَ الفَصلِ الَّذي هو خَيرٌ مِنَ الوَصلِ، وهي عَلاقةٌ وَكيدةٌ بيْنَ الخُروجِ مِنَ الكَلامِ إلى كَلامٍ آخَرَ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

- جُملةُ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَعنى اللَّامِ الَّذي هو عامِلٌ في (الطَّاغِينَ)؛ فإنَّ معنى اللَّامِ أنَّهم تَختَصُّ بهم جهنَّمُ، واختِصاصُها بهم هو ذَوقُ عَذابِها؛ لِأنَّ العَذابَ ذاتيٌّ لِجهنَّمَ(٣).

- والفاءُ في ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبِه على ما قَبْلَه، والمَعنى: جَهنَّمَ يَصلَوْنها، فيَتسَبَّبُ على ذلك أنْ نَذكُرَ ذَمَّ هذا المَقَرِّ لهم، وهذا استِعمالٌ بَديعٌ كَثيرٌ في القُرآنِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والْمِهادُ: المَهدُ والمُفتَرَشُ، شَبَّهَ ما تَحتَهم مِنَ النارِ بالمِهادِ الَّذي يَفترِشُه النَّائِمُ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، وهو جَهنَّمُ؛ لِقَولِه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾[١] [الأعراف: ٤١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾

- قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ إشارةُ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَقريبِ الإنذارِ[٢].

- و(غَسَّاقٌ) بالتَّشديدِ مُبالَغةٌ في (غاسِقٌ)، بمَعنى سائِلٍ، وصِيغَ له هذا الوَزنُ؛ لِيَكونَ اسْمًا لِشَيءٍ يُشبِهُ ما يَغسِقُ به الجُرحُ[٣]؛ ولذلك سُمِّيَ المُهلَ والصَّديدَ في آياتٍ أُخرى[٤].

- وجُملةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ اسمِ الإشارةِ والخَبَرِ عنه -على أحدِ الأقوالِ-، وهذا مِنَ الاعتِراضِ المُقتَرِنِ بالفاءِ دُونَ الواوِ، والفاءُ فيه؛ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبه على ما قَبْلَه[٥].

- وقولُه: ﴿وَءَاخَرُ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دَلَّتْ عليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ وضَميرُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾، ووَصْفُ (آخَرُ) يدُلُّ على مُغايِرٍ، وقَولُه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ على أنَّه مُغايِرٌ له بالذَّاتِ، ومُوافِقٌ في النَّوعِ؛ فحَصَل من ذلك أنَّه عَذابٌ آخَرُ، أو مَذوقٌ آخَرُ مِن شَكلِ هذا المَذوقِ من مِثلِه في الشِّدَّةِ والفَظاعةِ. وتَوحيدُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مع أنَّ مُعادَه ﴿حَمِيمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٣) غَسَق الجرحُ: أي: سالَ منه ماءٌ أصفرُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٦، ٢٨٧).

وَغَسَّاقٌ ﴾، على أنَّه لِمَا ذُكِرَ، أو لِلشَّرابِ الشَّامِلِ لِلحَميمِ والغَسَّاقِ، أو لِلغَسَّاقِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هذا ابتِداءُ كَلامٍ حُكِيَ به تَخاصُمُ المُشرِكينَ في النَّارِ فيما بيْنَهم إذا دَخَلوها، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى في آخِرِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، وجَرَيانُه بَيْنَهم لِيَزدادوا مَقْتًا؛ بأنْ يُضافَ إلى عَذابِهمُ الجُسمانيِّ عَذابُ أنْفُسِهم برُجوعِ بَعضِهم على بَعضٍ بالتَّنديمِ وسُوءِ المُعامَلةِ، وأُسلوبُ الكَلامِ يَقتَضي مُتكلِّمًا صادِرًا منه، وأُسلوبُ المُقاوَلةِ يَقتَضي أنَّ المُتكلِّمَ به هُمُ الطَّاغونَ الَّذين لهم شَرُّ المآبِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِأنَّهم أساسُ هذه القَضيَّةِ، فالتَّقديرُ: يَقولونَ -أي: الطَّاغونَ- بَعضُهم لِبَعضٍ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، أيْ: يَقولونَ مُشيرينَ إلى فَوجٍ مِن أهلِ النَّارِ أُقحِمَ فيهم، ليسوا مِن أكْفائِهم ولا مِن طَبَقَتِهم، وهم فَوجُ الأتْباعِ مِنَ المُشرِكينَ الَّذين اتَّبَعوا الطَّاغينَ في الحياةِ الدُّنيا، وذلك ما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ [ص: ٦٠]، أيْ: أنتم سَبَبُ إحضارِ هذا العَذابِ لنا(٢).

- قولُه: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ الاقتِحامُ: الدُّخولُ في النَّاسِ، و(مع) مُؤْذِنةٌ بأنَّ المُتكلِّمينَ مَتبوعونَ، وأنَّ الفَوجَ المُقتَحِمَ أتْباعٌ لهم، فأُدخِلوا فيهم مُدخَلَ التَّابِعِ مع المَتبوعِ بعَلاماتٍ تُشعِرُ بذلك(٣).

- وقولُه: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ دُعاءٌ منهم على أتْباعِهم، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٨).

مُستأنَفةٌ لإنشاءِ ذَمِّ الفَوجِ، و ﴿لَا مَرۡحَبًا﴾ نَفيٌ لِكَلِمةٍ يَقولُها المَزورُ لِزائِرِه، وهي إنشاءُ دُعاءِ الوافِدِ، فإذا أرادوا كَراهيةَ الوافِدِ والدُّعاءَ عليه قالوا: لا مَرحَبًا به، كأنَّهم أرادوا النَّفيَ بمَجموعِ الكَلِمةِ. قيل: إنَّما قالوا ذلك؛ لِأنَّهم كَرِهوا أنْ يَكونوا هم وأتْباعُهم في مَكانٍ واحِدٍ، جَريًا على خُلُقِ جاهِلِيَّتِهم مِنَ الكِبرياءِ واحتِقارِ الضُّعَفاءِ[1]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿لَا مَرۡحَبًۢا بِهِمۡ﴾ هي مِن إتمامِ كَلامِ الخَزَنةِ بطَريقِ الدُّعاءِ على الفَوجِ بضِيقِ المَكانِ. أو صِفةٌ لِلفَوجِ. أو حالٌ منه، أيْ: مَقولٌ -أو مَقولًا- في حَقِّهم: ﴿لَا مَرۡحَبًۢا بِهِمۡ﴾، أيْ: لا أتَوْا مَرحَبًا، أو لا رَحُبَتْ بهِمُ الدَّارُ مَرحَبًا[2]، و﴿بِهِمۡ﴾ بَيانٌ لِلمَدعُوِّ عليهم، أيْ: بَيانٌ لِمَن وُجِّهَ الدُّعاءُ لهم، أيْ: إيضاحًا لِلسَّامِعِ أنَّ الدُّعاءَ على أصحابِ الضَّميرِ المَجرورِ بالباءِ، فكانتِ الباءُ فيه لِلتَّبيينِ[3].

- وقَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ قيل: هو تَعليلٌ مِن جِهةِ الخَزَنةِ لِاستِحقاقِهمُ الدُّعاءَ عليهم، أو وَصْفَهم بما ذُكِرَ[4]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ هي خَبَرٌ ثانٍ عن اسمِ الإشارةِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّضَجُّرِ منهم، أيْ: إنَّهم مُضايقونَنا في مَضيقِ النَّارِ، كما أوْمَأ إليه قَولُهم: ﴿مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبًۢا بِهِمۡ﴾[5].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، أيْ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).

قال الفَوجُ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، وهو رَدٌّ على الرُّؤَساءِ ما دَعَوْا به عليهم، وعَلَّلوا ذلك فذَكَروا أنَّ ما وَقَعوا فيه مِنَ العَذابِ وصَلْيِ النار، إنَّما هو بما ألقَيتُم إلينا وزَيَّنتُموه مِنَ الكُفرِ، فكأنَّكم قَدَّمتُم لنا العَذابَ أو الصَّلْيَ. وإذا كان ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ من كَلامِ الخَزَنةِ، فلَمْ يَجِئِ التَّركيبُ: قالوا: بل هؤلاء لا مَرحَبًا بهم، بل جاءَ بخِطابِ الأتْباعِ لِلرُّؤساءِ؛ لِتَكونَ المُواجَهةُ لِمَن كانوا لا يَقدِرونَ على مُواجَهَتِهم في الدُّنيا بقَبيحٍ، أشْفَى لِصُدورِهم -حيث تَسَبَّبوا في كُفرِهم-، وأنْكى لِلرُّؤَساءِ[1].

- وجيءَ بحِكايةِ قَولِهم على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ فلذلك جُرِّدَ مِن حَرفِ العَطفِ؛ فقولُه: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾، أيْ: فسَمِعَهم الأتْباعُ فقالوا: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾؛ إضرابًا عن كَلامِهم. وحَرفُ ﴿بَلْ﴾ لِلإضْرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَوْلى به منهم[2].

- وذُكِر ضَميرُ المُخاطَبينَ في قَولِه: ﴿أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ لِلتَّنصُّلِ مِن شَتمِهم، أيْ: أنتم المَشتومونَ، أيْ: أَوْلى بالشَّتمِ منَّا[3].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ لَعَلَّهم إنَّما خاطَبُوهم مع أنَّ الظَّاهِرَ أنْ يَقولُوا بطَريقِ الاعتِذارِ إلى الخَزَنةِ: بل هُم لا مَرحَبًا بهم... إلخ؛ قَصْدًا منهم إلى إظهارِ صِدقِهم بالمُخاطَبةِ مع الرُّؤَساءِ، والتَّحاكُمِ إلى الخَزَنةِ؛ طَمَعًا في قَضائِهم بتَخفيفِ عَذابِهم، أو تَضعيفِ عَذابِ خُصَمائِهم، أيْ: بل أنتم أحَقُّ بما قيلَ لنا أو قُلتُم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).

- وإذا كان قَولُه: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ مِن كَلامِ الخَزَنةِ فماذا يُصنَعُ بقَولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾، والمُخاطَبونَ -أعني: رُؤساءَهم- لم يَتكلَّموا بما يَكونُ هذا جَوابًا لهم؟

فالجوابُ: كأنَّه قيلَ: هذا الَّذي دعا به علينا الخَزَنةُ أنتُم يا رُؤَساءُ أحَقُّ به منَّا؛ لإغوائِكم إيَّانا، وتَسبُّبِكم فيما نحن فيه مِنَ العَذابِ، كما لو زَيَّنَ قَومٌ لِقَومٍ بَعضَ المَساوي فارتَكَبوها، فقيلَ لِلمُزَيِّنينَ: أخْزى اللهُ هؤلاء، ما أسْوَأَ فِعلَهم! فقال المُزَيَّنُ لهم لِلمُزَيِّنينَ: بل أنتُم أَوْلى بالخِزيِ منَّا؛ فلولا أنتم لم نَرتَكِبْ ذلك[1].

- وجُملةُ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا﴾ عِلَّةٌ لِقَلبِ سَبَبِ الشَّتمِ إليهم، وتَعليلٌ لِأحَقِّيَتِهم بذلك، أيْ: لِأنَّكم قَدَّمتُمُ العَذابَ لنا؛ فضَميرُ النَّصبِ في ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾ عائِدٌ إلى العَذابِ المُشاهَدِ، وهو حاضِرٌ في الذِّهنِ غَيرُ مَذكورٍ في اللَّفظِ[2].

- ووُقوعُ ﴿أَنتُمۡ﴾ قَبلَ ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾ المُسنَدِ الفِعليِّ، يُفيدُ الحَصرَ، أيْ: لم يُضِلَّنا غَيرُكم؛ فأنتُم أحِقَّاءُ بالعَذابِ[3].

- قَولُه: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ ذَمٌّ لِإقامَتِهم في جهنَّمَ؛ تَشنيعًا عليهم فيما تَسبَّبوا لِأنْفُسِهم فيه، وقَصَدُوا بذَمِّها تَغليظَ جِنايةِ الرُّؤساءِ عليهم[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ لم يَكتَفِ الأتْباعُ برَدِّ الدُّعاءِ على رُؤَسائِهم، ولا بمُواجَهَتِهم بقَولِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَنَا ﴾، حتَّى سَأَلوا مِنَ اللهِ أنْ يَزيدَ رُؤَساءَهم ضِعفًا مِنَ النارِ، والمَعنى: مَن حَمَلَنا على عَمَلِ السُّوءِ حتَّى صار جَزاؤُنا النَّارَ، فزِدْه عَذابًا ضِعفًا. ولَمَّا كان الرُّؤَساءُ ضُلَّالًا في أنْفُسِهم، وأضَلُّوا أتْباعَهم؛ ناسَبَ أنْ يَدعُوا عليهم بأنْ يَزيدَهم ضِعفًا، كما جاءَ: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[1]؛ فعلى هذا: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿قَالُوا۟﴾ لِلأتْباعِ، و﴿مَن قَدَّمَ﴾ هُمُ الرُّؤَساءُ[2].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا ...﴾، أيْ: قال الأتْباعُ لِمَتبوعيهم في النَّارِ هذا الكَلامَ، وتَوسيطُه بَينَ كَلامَيْهم؛ لِمَا بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ ذاتًا وخِطابًا[3].

وفيه إعادةُ فِعلِ القَولِ؛ لِإفادةِ أنَّ القائِلينَ هُمُ الأتْباعُ، فأُعيدَ فِعلُ القَولِ تَأكيدًا لِلفِعلِ الأوَّلِ؛ لِقَصدِ تَأكيدِ فاعِلِ القَولِ تَبَعًا؛ لأنَّه مُحتملٌ لِضَميرِ القائِلينَ[4].

- والمَقصودُ مِن حِكايةِ قَولِهم هذا تَحذيرُ كُبَراءِ المُشرِكينَ مِن عَواقِبِ رِئاسَتِهم وزَعامَتِهمُ الَّتي يَجُرُّونَ بها الوَيلاتِ على أتْباعِهم، فيُوقِعونَهم في هاويةِ السُّوءِ حتَّى لا يَجِدَ الأتْباعُ لهم جَزاءً بَعدَ الفَوتِ إلَّا طَلَبَ مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

- عَطفٌ على ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ [ص: ٥٩]، على ما قُدِّرَ فيه مِن

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ -على قولٍ-، فهذا مِن قَولِ الطَّاغينَ؛ فإنَّهمُ الَّذين كانوا يَحقِرونَ المُسلِمينَ[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ استِفهامٌ يُلقيه بَعضُهم لِبَعضٍ تَلَهُّفًا على عَدَمِ رُؤيَتِهم مَن عَرَفوهم مِنَ المُسلِمينَ، مُكَنًّى به عن مَلامِ بَعضِهم لِبَعضٍ على تَحقيرِهمُ المُسلِمينَ، واعتِرافِهم بالخَطَأِ في حِسْبانِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ حَقيقيًّا؛ استَفهَموا عن مَصيرِ المُسلِمينَ؛ لِأنَّهم لم يَرَوْهم يَومَئذٍ؛ إذْ قد عَلِموا أنَّ النَّاسَ صاروا إلى عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي كانوا يُنذَرونَ به، ويَكونَ قَولُهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ تَمهيدًا لِقَولِهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾[٢] [ص: ٦٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لِإنكارِ الكافِرينَ على أنْفُسِهم وتأنيبِهم لها في الاستِسخارِ مِنَ المُؤمِنينَ والزَّيغِ عنهم، ولِتَقريرِ أنْفُسِهم على هذا، على جِهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ، أيْ: أتَّخَذْناهم سِخريًّا ولم يَكونوا كذلك[٣]؟

- وجُملةُ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ [ص: ٦٢]، و(ال) في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عِوضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: أبصارُنا؛ فيَكونُ المَعنى: أكان تَحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا خَطَأً[٤]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

- وكَنَّى عن تَحقيرِهم لِلمُسلِمينَ في الدُّنيا باتِّخاذِهم سِخرِيًّا؛ لِأنَّ في فِعلِ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾ إيماءً إلى أنَّهم ليسوا بأهلٍ لِلسُّخريةِ، وهذا تَنَدُّمٌ منهم على الاستِسخارِ بهم[1]. والسُّخريُّ دالٌّ على شِدَّةِ الاستِهزاءِ؛ لِأنَّ ياءَه في الأصْلِ ياءُ نَسَبٍ، وياءُ النَّسَبِ تأتي لِلمُبالَغةِ في الوَصفِ[2].

- ولَفظُ ﴿أَمۡ﴾ إنْ كان قَولُه: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾ استِفهامًا: إمَّا مُصرَّحًا بهَمزَتِه كقِراءةِ مَن قَرَأ كذلك، أو مُؤوَّلًا بالاستِفهامِ، وحُذِفتِ الهَمزةُ لِلدَّلالةِ، فالظَّاهِرُ أنَّها مُتَّصِلةٌ؛ لِتَقدُّمِ الهَمزةِ، وقولُه: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ له وجهانِ مِن الاتِّصالِ؛ أحدهما: أنْ يتَّصِلَ بقولِه: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: ما لنا لا نَراهم في النَّارِ، كأنَّهم ليسوا فيها؟ بلْ أزاغَتْ عنهم أبصارُنا فلا نراهم وهم فيها؟

والوجه الثاني: أنْ يتَّصِلَ بـ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾، إمَّا أنْ تكونَ (أم) متصلةً على معنى: أيُّ الفِعلَيْنِ فَعَلْنا بهم: الاستِسخارُ منهم، أم ازدِراؤُهم وتَحقيرُهم وأنَّ أبصارَنا كانت تَعلو عنهم، وتَقتَحِمُهم؟ ويَكونُ استِفهامًا على مَعنى الإنكارِ على أنْفُسِهم؛ لِلاستِسخارِ والزَّيغِ جَميعًا. وقيلَ: كُلَّ ذلك قد فَعَلوا؛ اتَّخَذوهم سِخريًّا، وزاغَتْ عنهم أبصارُهم مُحقِّرةً لهم. وفي ﴿زَاغَتۡ﴾ دونَ (أزغنا) مبالغةٌ عظيمةٌ كأنَّ العينَ بنفسِها تمجُّهم لقبحِ منظرِهم. وإنْ كانَ قولُه: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ ليس استِفهامًا، فـ﴿أَمۡ﴾ مُنقَطِعةٌ، ويَجوزُ أنْ تكونَ مُنقَطِعةً أيضًا مع تَقدُّمِ الاستِفهامِ، فالتَّقديرُ: بل أزاغَتْ عنهمُ الأبصارُ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ قَولُهم: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ له تَعلُّقٌ بقَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَرَىٰ رِجَالًا ﴾؛ لِأنَّ الاستِفهامَ أوَّلًا دَلَّ على انتِفاءِ رُؤيَتِهم إيَّاهم، وذلك دَليلٌ على أنَّهم ليسوا معهم، ثمَّ جوَّزوا أنْ يَكونوا معهم، ولكنَّ أبصارَهم لم تَرَهم(١).

٩- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَذييلٌ وتَنهيةٌ لِوَصفِ حالِ الطَّاغينَ وأتْباعِهم، وعَذابِهم، وجِدالِهم(٢).

- وتأْكيدُ الخَبَرِ بحرفَيِ التَّوكيدِ (إنَّ واللَّامِ) في قولِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ مَنظورٌ فيه لِمَا يَلزَمُ الخَبَرَ مِنَ التَّعريضِ بوَعيدِ المُشرِكينَ وإثباتِ حَشرِهم وجَزائِهم بأنَّه حَقٌّ، أي: ثابتٌ(٣).

- وقَولُه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ خَبَرُ مُبتَدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ بَيانٌ لـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وفي الإبهامِ أوَّلًا والتَّبيينِ ثانيًا مَزيدُ تَقريرٍ له(٤).

- في قَولِه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَشبيهُ تَقاوُلِهم وما يَدورُ بَيْنَهم مِن حِوارٍ ويَتَبادَلونَه مِن سُؤالٍ وجَوابٍ بما يَجري بيْنَ المُتَخاصِمينَ مِن نَحوِ ذلك؛ لِأنَّ قَولَ الرُّؤَساءِ لِتابِعيهم: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ﴾ [ص: ٥٩]، وقَولَ التَّابعينَ: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ [ص: ٦٠]؛ لا يَعدو الخُصومةَ الَّتي يَتَراشَقُها المُتَخاصِمونَ، أو كان ذَمُّهم لِبَعضِهم أشَدَّ مِنَ المُخاصَمةِ.

وأُضيفَ هذا التَّخاصُمُ إلى أهلِ النارِ كُلِّهمُ اعتِبارًا بغالِبِ أهلِها؛ لِأنَّ غالِبَ أهلِ النَّارِ أهلُ الضَّلالاتِ الاعتِقاديَّةِ، وهم لا يَعْدُونَ أنْ يَكونوا دُعاةً لِلضَّلالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).

أو أتْباعًا لِلدُّعاةِ إليه؛ فكُلُّهم يَجري بَيْنَهم هذا التَّخاصُمُ، أمَّا مَن كان في النَّارِ مِنَ العُصاةِ فكَثيرٌ منهم ليس عِصيانُه إلَّا تَبَعًا لِهَواه مع كَونِه على عِلمٍ بأنَّ ما يأتيه ضَلالةٌ، لم يُسَوِّلْه له أحَدٌ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٨).

الآيات (٦٥-٧٠)

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾.

مُشكِلُ الإعراب:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ في هذا المصدَرِ وَجهانِ:

أحدُهما: أنَّه مع ما في حَيِّزِه في محلِّ رفعٍ نائِبُ فاعلٍ، أي: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا الإنذارُ، أو: إلَّا كَوني نَذيرًا مُبينًا.

والثَّاني: أنَّه في مَحلِّ نَصبٍ أو جرٍّ على نزَعِ الخافِضِ. ونائِبُ الفاعِلِ على هذا الجارُّ والمجرورُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ أو لِكَوني نَذيرًا. أو نائِبُ الفاعِلِ ضَميرُ ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلَى إلَّا للإنذارِ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُلقِّنًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم الرَّدَّ الَّذي يرُدُّ به على المشركينَ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عَذابَ اللهِ، وما من مَعبودٍ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ، خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٢).

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّ ما جاءهم به مِن عندِ ربِّه أمرٌ عظيمٌ، لا يَليقُ بعاقلٍ أنْ يُعرِضَ عنه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هذا القُرآنُ خَبَرٌ عَظيمٌ، أنتم مُنصَرِفونَ عنه، ما ليَ مِن عِلمٍ باختِلافِ الملائِكةِ في شَأنِ آدَمَ، فإنَّما يُوحَى إليَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلى؛ لأنِّي رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، أُنذِرُكم إنذارًا واضِحًا بيِّنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَمَّا دعا النَّاسَ إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا إلهٌ واحِدٌ، وإلى أنَّه رَسولٌ مُبينٌ من عندِ الله، وإلى أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ؛ فأولئك الكُفَّارُ أظهَروا السَّفاهةَ، وقالوا: إنَّه ساحِرٌ كَذَّابٌ، واستَهزَؤوا بقَولِه، ثمَّ إنَّه تعالى ذَكَر قَصَصَ الأنبياءِ؛ لِيَصيرَ ذلك حامِلًا لمُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على التَّأسِّي بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ في الصَّبرِ على سَفاهةِ القَومِ، ولِيَصيرَ ذلك رادِعًا للكُفَّارِ عن الإصرارِ على الكُفرِ والسَّفاهةِ، وداعيًا إلى قَبولِ الإيمانِ، ولَمَّا تَمَّم اللهُ تعالى ذلك الطَّريقَ؛ أردَفَه بطَريقٍ آخَرَ وهو شَرحُ نَعيمِ أهلِ الثَّوابِ، وشَرحُ عِقابِ أهلِ العِقابِ، فلمَّا تَمَّم اللهُ تعالى هذه البياناتِ؛ عاد إلى تقريرِ المَطالِبِ المذكورةِ في أوَّلِ السُّورةِ، وهي: تقريرُ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والبَعثِ(١).

وأيضًا فهذا راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وإلى قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، فلَمَّا ابتَدَرهمُ الجَوابُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

ذلك التَّكذيبِ بأنْ نَظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم، ولِتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الأنبياءِ الَّذين صَبَروا، واستَوعَبَ ذلك بما فيه مَقنَعٌ؛ عادَ الكَلامُ إلى تَحقيقِ مَقامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَومِه، فأمَرَه اللهُ أنْ يَقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مُقابِلَ قولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وأنْ يَقولَ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُقابِلَ إنكارِهمُ التَّوحيدَ كقَولِهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾[1] [ص: ٥].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عذابَ اللهِ على كُفرِكم به[2].

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

أي: وما مِن مَعبودٍ تَصلُحُ له العِبادةُ إلَّا اللهُ الواحِدُ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه[3].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ ذِكرَ كَونِه سُبحانَه قَهَّارًا مُشعِرٌ بالتَّرهيبِ والتَّخويفِ، فلمَّا ذَكَر ذلك أردَفَه بما يدُلُّ على الرَّجاءِ والتَّرغيبِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤، ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ ومالِكُ السَّمواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، المُتصَرِّفُ في ذلك كُلِّه[١].

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

أي: العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الَّذي يَغلِبُ كُلَّ شَيءٍ ولا يَغلِبُه شَيءٌ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[٢].

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُكَذِّبينَ: هذا القُرآنُ -المُشتَمِلُ على توحيدِ اللهِ، وإثباتِ رِسالتي، ووُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ، وغيرِ ذلك- خبَرٌ عَظيمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّبأِ العظيمِ: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وابن عثيمين. وحكَى الواحديُّ فيه الإجماعَ، ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وشُرَيحٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥). =

﴿ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أي: أنتم مُنصَرِفونَ عن تَصديقِه، وقَبولِه، وتَدَبُّرِه، والعمَلِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: لولا وَحيُ اللهِ إلَيَّ لَمَا عَلِمْتُ باختِلافِ الملائكةِ في السَّماءِ في شأنِ آدَمَ[2]؛ فإخباري بذلك دَليلٌ واضِحٌ على صِدقِ نُبُوَّتي، وأنَّ القُرآنَ حَقٌّ من

= قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ إلى التَّوحيدِ والمَعادِ، فهي إلى القُرآنِ وجميعِ ما تضَمَّنَه وعدُه أنَّ التَّصديقَ به نجاةٌ، والتَّكذيبَ به هَلَكةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقيل: المرادُ بالنَّبأ نَبأُ خلقِ آدمَ وما جرَى بعدَه. وقيل: المرادُ به: خبرُ الحشرِ وما أُعِدَّ فيه للمتَّقينَ من حُسْنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ مِن شرِّ مآبٍ... يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) ممَّن اختار أنَّ اختِصامَ الملائكةِ في شأنِ آدَمَ حينَ قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ لعامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٤٤). =

عندِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ

= وممَّن قال بنحوِ ذلك من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحيُ من أينَ كنتُ أدري باختلافِ الملأِ الأعلَى؟ يعني: في شأنِ آدَمَ وامتناعِ إبليسَ مِن السُّجودِ له، ومُحاجَّتِه رَبَّه في تفضيلِه عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).

وقال ابن عطيَّة: (وقالت فِرقةٌ: بل اختصامُهم في الكفَّاراتِ وغَفرِ الذُّنوبِ ونحوِه؛ فإنَّ العبدَ إذا فعَل حسنةً اختلَف الملائكةُ في قدرِ ثوابِه في ذلك حتَّى يَقضيَ اللهُ بما شاء، وورد في هذا حديثٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقال السمعاني: (اختصامُ الملائكةِ هو كلامُهم في هذه الأعمالِ [مشْيِ الأقدامِ إلى الجماعاتِ، وإسباغِ الوُضوءِ على المكروهاتِ، والجلوسِ في المَساجِدِ بعدَ الصَّلاةِ...]، وأقدارِ المَثوبةِ فيها، وزيادةِ بعضِ الأعمالِ على البعضِ في الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤).

وذكر ابنُ كثيرٍ الحديثَ الواردَ في اختصامِ المَلأِ الأعلى في ((مسند أحمد)) (٢٢١٠٩) والترمذي (٣٢٣٥)، ثمَّ قال: (وليس هذا الاختِصامُ هو الاختصامَ المذكورَ في القرآنِ؛ فإنَّ هذا قد فُسِّر، وأمَّا الاختِصامُ الَّذي في القرآنِ فقد فُسِّرَ بعدَ هذا، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

وقيل: اختِصامُ الملأِ الأعلى يَشملُ اختِصامَ الملائكةِ في شأنِ آدَمَ، وفي الدَّرَجاتِ العُلا، وغيرِها ممَّا يَختَصِمُ فيه الملائكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قُرَيشٍ: ما يُوحي اللهُ إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه من اختِصامِ الملأِ الأعلى إلَّا لأنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُنذِرُكم بما يُوحَى إليَّ إنذارًا واضِحًا لا لَبْسَ فيه[1].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ إثباتُ القَهْرِ التَّامِّ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذا يَستَلزِمُ للمُؤمِنِ به أن يَخافَ من اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَهرِه، ويَستَلزِمُ أيضًا تقويةَ المؤمِنِ الواثِقِ باللهِ في قَهْرِ أعدائِه؛ لأنَّك إذا وَثِقتَ بأنَّ اللهَ هو القَهَّارُ، وأنَّ اللهَ معك لِكَونِك أتَيْتَ بالأوصافِ الَّتي تَستوجِبُ مَعيَّةَ اللهِ لك؛ فإنَّ هذا يُقَوِّيك على عَدُوِّك، وتَعلَمُ أنَّ هذا العَدُوَّ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَقهورًا بقَهْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هذا الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

قال الرازي: (يعني: أنا ما عرَفْتُ هذه المُخاصَمةَ إلَّا بالوَحيِ، وإنَّما أَوحى اللهُ إليَّ هذه القِصَّةَ؛ لأُنذِرَكم بها، ولِتَصيرَ هذه القِصَّةَ حامِلةً لكم على الإخلاصِ في الطَّاعةِ، والاحترازِ عن الجَهلِ والتَّقليدِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٩).

يجِبُ ويَستَحِقُّ أن يُعبَدَ دونَ مَن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ مِن الأمرِ شَيئًا، وليس له قُوَّةُ الاقتِدارِ، ولا بيَدِه مَغفِرةُ الذُّنوبِ والأوزارِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ أنَّه متى عَظُمَ هذا النَّبأُ العَظيمُ عَظُمَ مَن يأخُذُ بهذا النَّبأِ؛ لأنَّه أساسٌ ومِنهاجٌ وطَريقٌ، فإذا عَظُمَ عَظُمَ الآخِذُ به؛ ولهذا كانت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ عَظيمةً مَرموقةً مَهيبةً حينَ كانت آخِذةً به(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ ﴾ أنَّه ينبغي في الكلامِ مُراعاةُ الحالِ؛ حيثُ إنَّ المقامَ هنا مَقامُ تهديدٍ؛ فلهذا اقتَصَرَ على الإنذارِ فقط؛ مع أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٣) [البقرة: ١١٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّ الأسماءَ لا تُغيِّرُ المُسَمَّياتِ؛ فإنَّ هناك مَن يُسَمَّى إلهًا، ولكنَّه حَقًّا ليس بإلهٍ! ويَتفَرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّنا لو سَمَّينا الشَّيءَ المُحَرَّمَ باسمِ حَلالٍ؛ فإنه لا يَتغَيَّرُ الحُكْمُ فيه؛ ولهذا جاء في الحديثِ: ((أنه يَشْرَبُ الخَمرَ أُناسٌ يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها!))(٤)، وهذا يدُلُّ على أنَّ الأسماءَ لا تُغيِّرُ المُسَمَّياتِ والحقائِقَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٨٨)، وابن ماجه (٤٠٢٠)، وأحمد (٢٢٩٠٠) من حديث أبي مالكٍ الأشعَريِّ رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٦٧٥٨)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّحه لغيره شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ قَرَنَ سُبحانَه العِزَّةَ بالمَغفِرةِ؛ وإذا اجتمعتِ العِزَّةُ والمَغفِرةُ حَصَلَ مِن ذلك مَعنًى مُرَكَّبٌ مِن اجتماعِهما، وهو أكمَلُ ممَّا لو انفردَ أحدُهما، ولا شكَّ أنَّ غَلَبَةَ المغفرةِ على العِزَّةِ فيها نَقصٌ، وغَلَبَةَ العِزَّةِ على المغفرةِ فيها نَقصٌ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار هذا أكمَلَ، أي: أنَّ عِزَّتَه وغَلَبته وقَهرَه لا تخلو مِن المَغفرةِ، بخلافِ مَن يَتَّصِفُ بالعِزَّةِ من المخلوقين؛ فإنَّه في الغالبِ تكونُ عِزَّتُه تَغْلِبُ مَغفِرتَه، أو مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرةِ، فتَجِدُ عندَه ضَعفًا وليس عِندَه عِزَّةٌ[1]. وأيضًا قرَن بيْنَهما سبحانَه لبيانِ أنَّ مغفرتَه صادرةٌ عن عزَّةٍ لا عن عجزٍ، كما حكَى تعالى عن عيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

٤- قَولُه تعالى حكايةً عن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ فيه نَفيُ عِلْمِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالغَيب، سَواءٌ كان مُستقبَلًا أم حاضِرًا ولكِنَّه غائِبٌ عنه، فالآيةُ فيها نَفيُ عِلم بمَلَأٍ مَوجودٍ لكنَّه غائبٌ عنه، فإذا كان لا يَعلَمُ الغائبَ الموجودَ فالغائِبُ عنه المُنتَظَرُ مِن بابِ أولَى[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الملائكةِ، كما أنَّ مَكانَهم كذلك عالٍ؛ لأنَّهم في السَّمواتِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[3] [النجم: ٢٦].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الملائِكةُ لا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم اختَصَموا بسَبَبِ قَولِهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فإنَّ المُخاصَمةَ مع اللهِ كُفرٌ؟

الجوابُ: أنَّه لا شَكَّ أنَّه جرَى هناك سُؤالٌ وجَوابٌ، وذلك يُشابِهُ المُخاصَمةَ والمُناظَرةَ؛ فلهذا السَّبَبِ حَسُنَ إطلاقُ لَفظِ المخاصَمةِ عليه(١)، وقيل غيرُ ذلك(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يكونَ في شريعةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيءٌ مَجهولٌ أبدًا، بل كلُّ ما جاء به فهو بَيِّنٌ، لكنَّ الجَهلَ أمرٌ نِسبيٌّ؛ قد يكونُ المجهولُ شيئًا مُعَيَّنًا لبَعضِ النَّاسِ، وهو بَيِّنٌ مَعلومٌ لأُناسٍ آخَرينَ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ ردٌّ لقولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤]؛ فإنَّ الإنذارَ ينافي السحرَ والكذِبَ. وقد يُقالُ: المرادُ إنَّما أنا رسولٌ منذرٌ لا ساحرٌ كذَّابٌ، وفيه مِن الحسنِ ما فيه؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ مِن وصفَيِ الرسالةِ والإنذارِ يُنافي كلَّ واحدٍ مِن وصفَيِ السِّحرِ والكذبِ، لكنْ منافاةُ الرسالةِ للسحرِ أظهرُ(٤).

- وفي إبهامِ ﴿مُنذِرٞ﴾ تَفخيمُ أمرِ ما يُنذرُ به(٥).

- قوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذِكرُ صِفةِ (الواحِد) تأكيدٌ لِمَدلولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٤).

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ إيماءً إلى رَدِّ إنكارِهم، وذِكرُ صِفةِ القَهَّارِ تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ على قَهرِهم، أيْ: غَلبِهم[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾

- في هذه الأوصافِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَقريرٌ لِلتَّوحيدِ، ووَعدٌ لِلمُوحِّدينَ، ووَعيدٌ لِلمُشرِكينَ، وتَثنيةُ ما يُشعِرُ بالوَعيدِ مِن وَصفَيِ القَهرِ والعِزَّةِ، وتَقديمُهما على وَصفِ المَغفِرةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الإنذارِ حَقَّه[2].

- وفي قَولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَصريحٌ بعُمومِ رُبوبيَّتِه تعالى، وأنَّه لا شَريكَ له في شَيءٍ منها[3].

- ووَصفُ العَزيزِ في قَولِه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفِ بالغَفَّارِ، أيْ: الغَفَّارُ عن عِزَّةٍ ومَقدِرةٍ، لا عن عَجزٍ ومَلَقٍ، أو مُراعاةِ جانبِ مُساوٍ، والمَقصودُ مِن وَصفِ الغَفَّارِ هنا استِدعاءُ المُشرِكينَ إلى التَّوحيدِ بَعدَ تَهديدِهم بمُفادِ وَصفِ القَهَّارِ؛ لِكَيْ لا يَيئَسوا مِن قَبولِ التَّوبةِ بسَبَبِ كَثرةِ ما سِيقَ إليهم مِنَ الوَعيدِ؛ جَريًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والعكس[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ فيه إعادةُ الأمرِ بالقَولِ هنا مُستأنَفًا، والعُدولُ عنِ الإتيانِ بحَرفٍ يَعطِفُ المَقولَ -أعني: ﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾- على المَقولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّابِقِ -أعني: ﴿أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]-؛ عُدولٌ يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالمَقولِ هنا؛ كيْ لا يُؤتَى به تابعًا لِمَقولٍ آخَرَ، فيَضعُفَ تَصدِّي السَّامِعينَ لِوَعيه، ولِلإيذانِ بأنَّ المَقولَ أمْرٌ جَليلٌ له شَأنٌ خَطيرٌ، لا بُدَّ مِنَ الاعتِناءِ به أمْرًا وائْتِمارًا[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ في مَوقِعِ الاستِئنافِ الابتِدائيِّ؛ انتِقالًا مِن غَرَضِ وَصفِ أحوالِ أهلِ المَحشَرِ إلى غَرَضِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وشَقاءِ الشَّيطانِ، فيَكونَ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرَ شَأنٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، وما يُبَيَّنُ به ما بعْدَه مِن قَولِه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، جُعِلَ هذا كالمُقدِّمةِ لِقِصَّةِ خَلقِ آدَمَ؛ تَشويقًا لِتلَقِّيها، فيَكونَ المُرادُ بالنَّبَأِ نَبَأَ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعْدَه، ويَكونَ ضَميرُ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عائدًا إلى (المَلَإِ الأعلى)؛ لِأنَّ المَلَأَ جَماعةٌ، ويُرادُ بالاختِصامِ -على قولٍ- الاختِلافُ الَّذي جَرى بيْنَ الشَّيطانِ وبيْنَ مَن بَلَّغَ إليه مِنَ المَلائِكةِ أمْرَ اللهِ بالسُّجودِ لِآدَمَ، فالمَلائِكةُ هُمُ المَلَأُ الأعلى، وكان الشَّيطانُ بيْنَهم؛ فعُدَّ منهم قبْلَ أنْ يُطرَدَ مِنَ السَّماءِ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجملةُ تَذييلًا لِلَّذي سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩] إلى هنا، تَذييلًا يُشعِرُ بالتَّنويهِ به، وبطَلَبِ الإقبالِ على التَّدبُّرِ فيه، والاعتِبارِ به، وعليه يَكونُ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرًا عائدًا إلى الكَلامِ السَّابِقِ على تأويلِه بالمَذكورِ؛ فلذلك أُتيَ لِتَعريفِه بضَميرِ المُفرَدِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استِئنافٌ لِلَفتِ انتِباهِهم، ولِلنَّعيِ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥، ٢٩٦).

سُوءَ صَنيعِهم بالنَّبَأِ العَظيمِ، وتَوبيخٌ وتَحميقٌ لِلمُعرِضينَ عن النَّبَأِ العَظيمِ؛ ببيانِ أَنَّهم لا يَقدُرونَ قَدْرَه الجَليلَ، حيثُ يُعرِضونَ عنه مع عَظَمَتِه، وكَونِه مُوجِبًا لِلإقبالِ الكُلِّيِّ عليه، وتَلَقِّيه بحُسنِ القَبولِ[١].

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في قَولِه: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لإفادةِ إثباتِ إعراضِهم، وتَمكُّنِه منهم، فأمَّا إعراضُهم عنِ النَّبَأِ بمَعناه الأوَّلِ -خبَرُ الحشْرِ وما أُعِدَّ فيه للمُتَّقينَ مِن حُسنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ من شرِّ مآبٍ- فظاهِرٌ؛ لِأنَّه طالما أنذَرَهم بعَذابِ الآخِرةِ ووَصَفَه، فلم يَكترِثوا بذلك، ولا ارعَوَوْا عن كُفرِهم، وأمَّا إعراضُهم عن النَّبَأِ بمَعناه الثَّاني -نبَأُ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعدَه- فتأويلُ تَمكُّنِه مِن نُفوسِهم عَدَمُ استِعدادِهم لِلاعتِبارِ بمَغزاهُ مِن تَحقُّقِ أنَّ ما هم فيه هو وَسوَسةٌ مِنَ الشَّيطانِ؛ قَصدًا لِلشَّرِّ بهم[٢].

- ولعلَّ هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ هي أوَّلُ ما نزَلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ذِكرِ قِصَّةِ خلْقِ آدَمَ، وسُجودِ الملائكةِ، وإباءِ إبليسَ من السُّجودِ؛ فإنَّ هذه السُّورةَ في تَرتيبِ نُزولِ سُوَرِ القُرآنِ -إنْ ثبَت- لا يُوجَدُ ذِكرُ قِصَّةِ آدَمَ في سُورةٍ نَزَلتْ قَبْلَها؛ فذلك وَجهُ التَّوطئةِ لِلقِصَّةِ بأساليبِ العِنايةِ والاهتِمامِ مِمَّا خَلا غَيرُها عن مِثلِه، وبأنَّها نَبَأٌ كانوا مُعرِضينَ عنه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ أنَّه نَبَأٌ عَظيمٌ وارِدٌ مِن جِهتِه تَعالى بذِكرِ نَبَأٍ مِن أنبائِه على التَّفصيلِ مِن غَيرِ سابِقةِ مَعرِفةٍ به، ولا مُباشَرةِ سَبَبٍ مِن أسبابِها المُعتادةِ؛ فإنَّ ذلك حُجَّةٌ بَيِّنةٌ دالَّةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ ذلك بطَريقِ الوَحيِ من عِندِ اللهِ تَعالى، وأنَّ سائِرَ أنبائِه أيضًا كذلك[١]. أو اعتِراضُ إبلاغ في التَّوبيخ على الإعراضِ عن النَّبأِ العَظيم، وحُجَّةٌ على تَحقُّقِ النَّبأِ بسَببِ أنَّه مُوحًى به مِنَ اللهِ، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَبيلٌ إلى عِلْمِه لولا وَحيُ اللهِ إليه به. وذِكرُ فِعلِ (كان) دالٌّ على أنَّ المَنفيَّ عِلمُه بذلك فيما مَضى مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ أنْ يُوحَى إليه بذلك[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ لِتَعديةِ ﴿عِلْمٍ﴾ لِتَضمينِه مَعنى الإحاطةِ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في تَعديةِ العِلْمِ.

ويَجوزُ على مَعنى أنَّ النَّبأَ خلْقُ آدَمَ وما جَرى بعْدَه أنْ تَكونَ الباءُ ظَرفيَّةً، أيْ: ما كان لي عِلْمٌ كائِنٌ في المَلَأِ الأعلى، أيْ: ما كُنتُ حاضِرًا في المَلَأِ الأعلى؛ فهي كالباءِ في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[٣] [القصص: ٤٤].

- والمَلَأُ: الجَماعةُ ذاتُ الشَّأنِ، ووَصَفَه بالأعْلى في قولِه: ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ مَلَأُ السَّمَواتِ، وهمُ المَلائِكةُ[٤].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ في مَوضِعِ المُضيِّ؛ لِقَصدِ استِحضارِ الحالةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَ إجمالِ اختِصامِهم وتَفصيلِه؛ تَقريرًا لِثُبوتِ عِلمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَعيينًا لِسَبَبِه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

إلَّا أنَّ بَيانَ انتِفائِه فيما سَبَقَ لَمَّا كان مُنبِئًا عن ثُبوتِه الآنَ، ومِنَ البَيِّنِ عَدَمُ مُلابَسَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشَيءٍ مِن مَباديه المَعهودةِ؛ تَعيَّنَ أنَّه ليس إلَّا بطَريقِ الوَحيِ حَتمًا؛ فجَعَل ذلك أمْرًا مُسلَّمَ الثُّبوتِ، غَنيًّا عن الإخبارِ به قَصْدًا، وجَعَل مَصَبَّ الفائِدةِ والمَقصودَ إخبارَ ما هو داعٍ إلى الوَحيِ، ومُصحِّحٌ له؛ تَحقيقًا لِقَولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]، في ضِمنِ تَحقيقِ عِلْمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقِصَّةِ المَلَأِ الأعلَى(١).

- جملةُ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: ما عَلِمتُ بذلك النَّبأِ إلَّا بوَحيٍ مِنَ اللهِ، وإنَّما أَوْحى اللهُ إلَيَّ ذلك لِأكونَ نَذيرًا مُبينًا.

- وهذه الجُملةُ قيل: رُكِّبَتْ مِن طَريقَينِ للقَصرِ: أحَدُهما طريقُ النَّفيِ والاستِثناءِ، والآخَرُ طريقُ (أنَّما) المَفتوحةِ الهمزةِ، المفيدةِ للحَصرِ، والَّذي يقتَضيه مقامُ الكلامِ هنا أنَّ المعنى للتَّعليلِ، والتَّقديرُ: إلَّا لأنَّما أنا نذيرٌ، أي: إلَّا لعِلَّةِ الإنذارِ، أي: ما أُوحيَ إلَيَّ نبأُ الملأِ الأعلى إلَّا لأُنذِرَكم به، أو معناه: ما يُوحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ، وليس لمجرَّدِ القَصَصِ، وهذه مُهِمَّةُ الرُّسُلِ، وليس لهم أن يَدَّعُوا أنَّهم أكثَرُ من رُسُلٍ مُنذِرينَ، وإنْ شِئتَ جعَلْتَ المعنى: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا لأنِّي نذيرٌ مُبينٌ؛ فبان أنَّ سَبَبَ الوَحيِ إليه أنَّه نذيرٌ مُبينٌ للنَّاسِ(٢).

- وقيل: يَجوزُ أنْ يَرتفِعَ قَولُه: ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على معنَى: ما يُوحَى إلَيَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

إلَّا هذا، وهو أنْ أُنذِرَ وأُبَلِّغَ ولا أُفَرِّطَ في ذلك، أي: ما أُومَرُ إلَّا بهذا الأمرِ وحْدَه، وليس إلَيَّ غيْرُ ذلك؛ مِن علمِ ما يدورُ في الملأِ الأعلَى، ويَستَلزِمُ هذانِ الحَصرانِ حَصرًا ثالِثًا، وهو: أنَّ إخبارَ القُرآنِ وَحيٌ مِنَ اللهِ، وليس أساطيرَ الأوَّلينَ كما زَعَموا[1].

- وقيل: وُرودَ هذَينِ الحَصرَينِ في الآيةِ كأنَّه صلَواتُ اللهِ عليه لم يُوحَ إليه إلَّا لاختِصاصِ النِّذارةِ، أو لم يؤمَرْ إلَّا باختِصاصِ الإنذارِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُشرِكونَ، وكان الَّذي يُنكِرونَ عليه صلواتُ اللهِ عليه الإنذارَ والدَّعوةَ إلى التَّوحيدِ، كما مضَى مِن مُفتَتَحِ السُّورةِ إلى أنْ بلَغَ إلى قَولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾، فما أُوثِرَ اختِصاصُ الإنذارِ إلَّا لاختِصاصٍ مِنَ المُنذَرينَ، وبذا أمَرَهم، وكان الواجِبُ قَلْعَ الشِّركِ، وإزالةَ ما يَنبَغي إزالَتُه، فإذا أُزيلَ ذلك وبُدِّلَ بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ جازَ أنْ يُبَشَّروا، كما قال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، كأنَّه قال صلَواتُ اللهِ عليه: ما يوحَى الآنَ في شأنِكم إلَّا لِأنْ أُنذِرَكم، وأُوضِحَ لكم حقيقةَ الأمرِ بما أوحَى اللهُ إلَيَّ[2].

- وقيل: هذه الحصورُ: اثنانِ منها إضافيَّانِ[3]، وهما قصرُ ما يُوحى إليه على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩- ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٣) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].
وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ =

علَّةِ النِّذارةِ، وقصرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على صِفةِ النِّذارةِ، وكِلاهما قلبٌ لاعتقادِهم أنَّهم يَسمَعون القرآنَ لِيَتَّخِذوه لَعِبًا، واعتِقادِهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم ساحرٌ أو مجنونٌ، وعُلِم مِن هذا أنَّ ذِكرَ نَبأِ خَلْقِ آدَمَ قُصِد به الإنذارُ مِن كَيدِ الشَّيطانِ(١).

- قوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ ذلك كافٍ في تَنبيهِهم على مَوضعِ الإشارةِ في أنَّ دعواه إنَّما هي النُّبوَّةُ لا الإلهيَّةُ(٢).

- وقُرِئَ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكَسرِ على الحِكايةِ(٣)، وعلى تَقديرِ القَولِ، أيْ: ما يُوحَى إلَّا هذه الجُملةُ، والمعنى: أي: قَصْري على النِّذارةِ لا أنِّي أُنجِزُ ما يَتوعَّدُ به اللهُ؛ فـ﴿أَنَّمَآ﴾ مفعولُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ القائِمُ مقامَ الفاعِلِ في القراءتَينِ، وإن اختَلَف التَّوجيهانِ؛ فالتَّقديرُ على قراءةِ الجَماعةِ بالفَتحِ: إلَّا الإنذارُ أو إلَّا كَوني نَذيرًا، وعلى قراءةِ الكَسرِ: إلَّا هذا القَولُ، وهو أنِّي أقولُ لكم كذا(٤).

= شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥). ويُنظر ما تقدم (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧).

(٣) قرأها بكسرِ الهمزةِ أبو جعفرٍ، وقرأها الباقونَ بالفتحِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

الآيات (٧١-٨٥)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَعُوا﴾: أي: فَخِرُّوا له، والوقوعُ: يدُلُّ على سُقوطِ شيءٍ[١].

﴿إِبْلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصْلُ الإبلاسِ: اليأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومِنه اشتُقَّ إبليسُ. وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ[٢].

﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَطرودٌ مِن رحمةِ اللهِ تعالَى، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالِحجارةِ، ثم تُؤخَذُ منه بقيَّةُ المعاني[٣].

﴿فَأَنْظِرْنِي﴾: أي: أخِّرْني، وأصْلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((المقاييس)) لابن فارس (٦/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).
و(قعوا) فعلُ أمرٍ، والواوُ فاعلٌ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، =

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لأُضِلَّنَّهم، ولأستَدْعِيَنَّهم إلى المعاصي، ولأُزَيِّنَنَّ لهم، والغَيُّ: الجَهلُ والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمْرِ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿فَالْحَقُّ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وخبَرُه محذوفٌ تَقديرُه (منِّي) أو (قَسَمي). أو الخبَرُ جملةُ القَسَمِ وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، ويجوزُ أن يكونَ (الحقُّ) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (أنا)، أو (قَولي).

﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (الواو) اعتراضيَّةٌ، (الحقَّ) مَفعولٌ به مُقدَّمٌ مَنصوبٌ. وجُملةُ ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضيَّةٌ، لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

وجُملةُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قَسَمٍ مُقدَّرٍ لا مَحلَّ لها مِن الإعرابِ، وجملةُ القَسَمِ المقدَّرةِ (أُقْسِمُ بالحَقِّ) معَ الجوابِ في مَحلِّ رَفْعٍ، خبَرُ المبتدأِ، أو استئنافيةٌ لا مَحَلَّ لها[2].

المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالَى عن قولِه للمَلائِكةِ، ومعهم إبليسُ: إنِّي سأخلُقُ بَشَرًا مِن طِينٍ،

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١، ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٥١٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٤٦).

فإذا اكتمَلَ خَلقُ آدَمَ، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ، فخِرُّوا له ساجِدينَ تَحيَّةً وتكريمًا؛ فامتثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم أمْرَ اللهِ، فسَجَدوا لآدَمَ إلَّا إبليسَ، تكبَّرَ عن السُّجودِ، وكان مِنَ الكافِرينَ.

قال اللهُ تعالَى: يا إبليسُ، ما منَعَك مِن السُّجودِ لِآدَمَ الَّذي خلَقْتُه بيَدَيَّ؟ أتكبَّرْتَ عن السُّجودِ له بغَيرِ حَقٍّ، أم كنتَ ممَّن علَا على غيرِه؟! فقال إبليسُ: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ خلَقْتَني من نارٍ، وخلَقْتَه مِن طِينٍ!

فقال اللهُ تعالَى لإبليسَ: فاخرُجْ من الجنَّةِ؛ فإنَّك مَرجومٌ، وإنَّ عليك لَعنتي إلى يومِ القِيامةِ.

قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي ولا تُعَذِّبْني إلى يومِ بَعثِ الخَلائِقِ.

فقال اللهُ له: فإنَّك مِن المُؤخَّرينَ إلى وَقتِ النَّفخةِ الأُولى؛ يومِ يموتُ الخلائِقُ أجمَعون.

فقال إبليسُ: فبِعزَّتِك -يا رَبِّ- لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمعينَ، إلَّا عِبادَك الذين أخلَصْتَهم لك وَحدَك، وعَصَمْتَهم مِنِّي.

قال اللهُ تعالى: فالحقُّ، وأنا أقولُ الحَقَّ، لأملأنَّ جهنَّمَ منك وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ قُرَيشٌ خالَفوا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ؛ ذكَرَ حالَ إبليسَ؛ حيثُ خالَفَ أمْرَ اللهِ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، وما آلَ إليه

مِنَ اللَّعنةِ والطَّردِ مِن رَحمةِ اللهِ؛ لِيَزدجِرَ عن ذلك مَن فيه شَيءٌ منهما[(١)].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه خُصومةَ الملائكةِ إجمالًا فيما تقدَّمَ؛ ذكَرَها هنا تَفصيلًا، فقال[(٢)]:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١﴾.

أي: ما كان لِيَ مِن عِلمٍ باختِصامِ الملأِ الأعْلَى حِينَ قال اللهُ تعالى للمَلائِكةِ: إنِّي سأخْلُقُ بَشَرًا[(٣)] من طِينٍ، هو آدَمُ عليه السَّلامُ[(٤)].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾.

أي: فإذا اكتَمَل خَلْقُ آدَمَ، وصار جَسَدًا تامًّا مُتقَنًا، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلقِي، فخِرُّوا على الأرضِ ساجِدينَ لآدَمَ؛ تَحيَّةً له وتكريمًا وتَعظيمًا[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) قال الشوكانيُّ: (﴿بَشَرًا﴾: أي: جِسمًا مِن جِنسِ البَشرِ مأخوذٌ مِن مُباشرتِه للأرضِ، أو مِن كونِه باديَ البشرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤-٢٣٦).

قال النيسابوريُّ: (لا خِلافَ في أنَّ الإضافةَ في قَولِه تعالَى: ﴿رُّوحِى﴾ للتَّشريفِ والتكريم، مِثلُ: ناقةِ اللهِ، وبيتِ اللهِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٢٠). ويُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١٥٤ - ١٥٦).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبي: فخِرُّوا له ساجِدينَ سَجدةَ تحيَّةٍ، ولم تكُنْ سَجدةَ طاعةٍ، ونحوَ هذا قال جميعُ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٦٠١).

وقال ابنُ العربيِّ: (اتَّفَقت الأمَّةُ على أنَّ السُّجودَ لآدمَ عليه السلامُ لم يكُنْ سجودَ عِبادةٍ). =

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سَجَد كلُّ الملائِكةِ لآدَمَ؛ امتِثالًا لأمْرِ اللهِ تعالَى[1].

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾.

أي: إلَّا[2] إبليسَ تكبَّرَ عن السُّجودِ لآدَمَ؛ تعَظُّمًا وأنَفةً[3].

كما قال تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: وكان إبليسُ مِن الكافِرينَ[4].

= ((أحكام القرآن)) (١/ ٢٧)، ونقَل الرازي أيضًا الإجماعَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٢) قال الشوكانيُّ: (الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ على تَقديرِ أنَّه كان متَّصِفًا بصفاتِ الملائكةِ، داخِلًا في عدادِهم، فغُلِّبوا عليه. أو مُنقَطِعٌ على ما هو الظَّاهِرُ مِن عدَمِ دُخولِه فيهم، أي: لكِنْ إبليسُ استكبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (كان استكبارُه استكبارَ كُفرٍ، فلذلك كان مِن الكافرينَ أي: صار مِنهم =

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾.

أي: قال اللهُ: يا إبليسُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك من السُّجودِ لِلَّذي كرَّمتُه بخَلْقِه بيَدَيَّ(١)؟

= بمُخالَفَتِه لأمرِ اللَّهِ واستكبارِه عن طاعَتِه، أوْ كان مِن الكافرينَ في عِلْمِ اللَّهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

ممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: كان قدْ سبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه مِن الكافِرينَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥).

وممن ذهب إلى أن المعنى: صارَ مِن الكافِرينَ بإباءِ الأمرِ: النسفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٤).

قال ابن عاشور: (فعلُ «كانَ» الَّذي وَقَع في هذا الكلامِ حِكايةً لكفرِه الواقعِ في ذلك الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤).

وقال الزمخشري: (﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أُريدَ وُجودُ كُفرِه ذلك الوَقتَ، وإن لم يكُنْ قَبْلَه كافرًا، لأنَّ «كانَ» مُطلَقٌ في جنسِ الأوقاتِ الماضيةِ؛ فهو صالِحٌ لأيِّها شئتَ، ويجوزُ أن يرادَ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الأزمنةِ الماضيةِ في عِلمِ اللهِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥).

وقال ابنُ كثير: (امتثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم ذلك سوى إبليسَ، ولم يكنْ منهم جِنسًا، كان مِن الجِنِّ فخانه طَبعُه وجِبِلَّتُه أحوَجَ ما كان إليه، فاستَنكفَ عن السُّجودِ لآدَمَ، وخاصَمَ رَبَّه عزَّ وجلَّ فيه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال أبو الحسن الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّه عزَّ وجَلَّ يَسمَعُ ويَرى، وأنَّ له تعالى يَدينِ مَبسوطتَينِ... وأنَّ يَدَيه تعالى غيرُ نِعمتِه). ((رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب)) (ص: ١٢٧).

وقال البغويُّ: (كلُّ ما جاء مِن هذا القَبيلِ في الكِتابِ أو السُّنَّةِ -كاليَدِ، والإصبعِ، والعينِ، والمجيءِ، والإتيانِ- فالإيمانُ بها فَرضٌ، والامتِناعُ عن الخَوضِ فيها واجِبٌ؛ فالمُهتدي مَن سلَك فيها طريقَ التَّسليمِ، والخائِضُ فيها زائِغٌ، والمنكِرُ مُعَطِّلٌ، والمكَيِّفُ مُشَبِّهٌ). ((شرح =

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

أي: هل تَعظَّمتَ عن السُّجودِ لآدمَ، وحدَث لك الاستِكبارُ الآنَ، فتركتَ السُّجودَ له، أمْ كُنتَ كذلك مِن قَبلُ مِن المتكبِّرينَ العالِينَ، ممَّنْ لا يَليقُ أنْ تُكلَّفَ مِثلَ هذا؛ لعلوِّ مكانِك(١).

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾.

أي: قال إبليسُ مُجيبًا ربَّه: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ لأنَّك خلَقْتَني مِن نارٍ، وخلَقْتَ آدَمَ مِن طِينٍ؛ فلَمْ أسجُدْ له(٢).

= السنة)) (١٥/ ٢٥٧). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥ - ١٢٨)، ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للَّالَكائي (٣/ ٤٥٧)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٦٢ - ٣٧٠).

(١) ممَّن اختارَ المعنى المذكورَ في الجُملةِ: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، والرازي، والثعالبي، وابن جُزَي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٩).

والاستِفهامُ هنا على وَجهِ التوبيخ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أستكبرْتَ وتعظَّمْتَ بنفْسِك عن السُّجودِ لآدمَ، أمْ كُنتَ مِن القوم الذين يَتكبَّرون، فتكبَّرتَ عن السُّجودِ؛ لكونِك منهم؟ ممَّن اختاره في الجُملةِ: السمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦).

قال البقاعيُّ: (﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: طلَبْتَ أن تكونَ أعلَى منه وأنت تعلَمُ أنَّك دونَه؟! فأنتَ بذلك ظالِمٌ، فكُنتَ مِن المُستكبِرينَ العَريقينَ في وَصْفِ الظُّلم؛ فإنَّ مَن اجترَأ على أدناه أوشَكَ أن يَصِلَ إلى أعلاه. ﴿أَمْ كُنتَ﴾ أي: ممَّا لك مِن الجِبلَّةِ الرَّاسِخةِ ﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: الكُبَراءِ المُستَحِقِّينَ للكِبرِ، وأنا لا أعلَمُ ذلك فنقَصْتُك مِن مَنزِلتِك، فكنتُ جائِرًا في أمري؟!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨)، ((تفسير =

كما قالَ تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فاخرُجْ مِن الجَنَّةِ[١]؛ فإنَّك مَرجومٌ[٢].

= ابن كثير)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(١) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ المرادَ: الخروجُ مِن الجنَّةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والخازن، والبقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

وقيل: المرادُ: الخروجُ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن أبي زمنين، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقال السعديُّ: (مِن السَّماءِ والمَحلِّ الكريم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾: أي: مِن زُمرةِ الملائكةِ وجُملَتِهم. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قيل: المرادُ بـ﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَلعونٌ، وممَّن اختارَ هذا القولَ: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، ومكي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: قَتادة، والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦).

وقال ابنُ جَرير: (مرجومٌ بالقولِ، مشتومٌ ملعونٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣).

وقيل: المرادُ: مطرودٌ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: البغوي، والزمخشري، والنَّسَفي، والخازن، وجلال الدِّين المَحلي، والعُلَيمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، =

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾.

أي: وإنَّ طَرْدي وإبعادي لك مِن رَحمتي: مُستَمِرٌّ وحاقٌّ عليك إلى يَومِ القِيامةِ؛ إذ يُجازَى العِبادُ، ويُلاقِي فيه إبليسُ جَزاءَه[١].

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩﴾.

أي: قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي وأمْهِلْني ولا تُعَذِّبْني إلى اليَومِ الذي تَبعَثُ فيه خَلْقَك[٢].

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك مِنَ المؤخَّرينَ المُمهَلينَ[٣].

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١﴾.

= ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقيل: المراد: مَرجومٌ بالكواكِبِ والشُّهُبِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

واختارَ الشوكانيُّ أنَّ المرادَ: مَرجومٌ بالكواكِبِ، مَطرودٌ مِن كلِّ خيرٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤-٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال القرطبي: (أراد الملعونُ ألَّا يموتَ، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وأُخِّرَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ، وهو يومٌ يموتُ الخَلقُ فيه، فأُخِّرَ إليه؛ تهاونًا به). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

أي: إلى اليومِ الذي يَموتُ فيه الخلائِقُ، وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى[١].

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: فبعِزَّتِك[٢] لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمعينَ[٣].

كما قال تعالَى حكايةً عن إبليسَ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أخلَصَهم لعِبادتِه، واختارَهم، فصاروا مُخلَصينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٦-٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) الباءُ في قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ للقَسَمِ، ويحتَمِلُ أن تكونَ للاستعانة. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).

ممَّن اختارَ أنَّ هذا قَسَمٌ بعِزَّةِ الله تعالى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، وابن جُزي، وأبو السُّعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).

(٤) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).=

٢- قِراءةُ: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ: اسمُ فاعِلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا للهِ دِينَهم، وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَك الذين أخلَصْتَهم لعِبادتِك، وعصَمْتَهم مِنِّي، فلا أستطيعُ إغواءَهم[2].

كما قالَ الله تباركَ وتعالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَالْحَقُّ﴾ بالرَّفعِ. قيل: بمعنى: فاللهُ الحَقُّ، أو فأنا الحَقُّ، أو فهذا الحَقُّ، أو فالحَقُّ منِّي، أو فوَعدُ اللهِ هو الحَقُّ، أو فالحَقُّ قَسَمي[3].

= ويُنظرُ لِمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الحُجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حُجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢- قِراءةُ: ﴿فَالْحَقَّ﴾ بالنَّصبِ. قيل: بمعنَى: حقًّا لأملأنَّ جَهنَّمَ. وقيل: التَّقديرُ: فيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ. وقيل: نُصِبَ على الإغراءِ، أي: فاتَّبِعوا الحَقَّ، أو الْزَموا الحَقَّ[1].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: قال اللهُ: فالحقُّ[2]، وأنا أقولُ الحَقَّ[3].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٧، ٨٨).

(٢) كلمةُ ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مرفوعةٌ؛ إمَّا لأنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: أنا الحقُّ، أو: قولي الحقُّ، أو تكونُ مبتدأً لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه فالحقُّ منِّي، أو يكونُ الخبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن اختار أنَّ التقدير: فأنا الحَقُّ: الزجَّاج، والسمعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٩).

وممَّن اختار أنَّ التقديرَ: فالحقُّ منِّي: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مبتدأٌ ضُمِّن معنى القسَمِ، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾، ويكونُ في هذا الجوابِ كفايةٌ عن خَبرِ المبتدأِ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

وذكر البقاعيُّ -بناءً على قِراءةِ الرفعِ هذه- أنَّ قولَه: (﴿فَٱلْحَقُّ﴾ يكونُ هو المقسمَ به، أي: فالحقُّ قَسَمي، والجوابُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ مبيِّنٌ أنَّ هذا ممَّا لا يُخلَفُ أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

قال القرطبي: (ولا اختلافَ في الثَّاني [أي قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ﴾] في أنَّه منصوبٌ بـ ﴿أَقُولُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)﴾.

أي: لَأملأنَّ جهنَّمَ مِن جنسِك مِن الشَّياطينِ[1] -يا إبليسُ- وممَّن تَبِعَك من بَني آدَمَ أجمَعينَ[2].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ

(١) ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: الزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والبقاعي، والشوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧-٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

ونحوُ المعنى المذكورِ قولُ مَن قال: إنَّ معنى ﴿مِنكَ﴾ أي: مِن نفْسِك ومِن ذُرِّيتِك- وممَّن قال به: مكي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والعُليمي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ: تَنبيهُ بَني آدَمَ في هذا المقامِ على شَرفِ أبيهم آدَمَ، وتَبيينُ عداوةِ عدوِّهم إبليسَ لهم، وما هو مُنطوٍ عليه مِنَ الحسَدِ لهم ولأبيهم آدَمَ؛ ليَحْذَروه، ولا يتَّبعوا طرائقَه(١)، والمَنعُ مِن الحَسَدِ والكِبرِ؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنَّما وقَعَ فيما وقَعَ فيه بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، والكُفَّارُ إنَّما نازَعوا مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسبَبِ الحسَدِ والكِبرِ(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ كانتْ نَزعةُ الكِبرِ والعِصيانِ كامِنةً في جِبِلَّة إبليسَ، ولم يكُنْ مِن الملأِ الذي كان معهم مُثيرٌ لِما سكَنَ في نفْسِه مِن طَبعِ الكِبرِ والعِصيانِ، فلمَّا طرأَ على ذلك الملأِ مَخلوقٌ جديدٌ، وأُمِرَ أهلُ الملأِ الأعْلَى بتَعظيمِه؛ كان ذلك مُوريًا زِنادَ الكِبرِ في نفْسِ إبليسَ؛ فنشأَ عنه الكُفرُ باللهِ، وعِصيانُ أمْرِه، وهذا ناموسٌ خِلْقيٌّ جعَلَه اللهُ مَبدأً لهذا العالَمِ قبلَ تَعميرِه، وهو أنْ تكونَ الحوادِثُ والمضائِقُ معيارَ الأخلاقِ والفَضيلةِ؛ فلا يُحكَمُ على نَفسٍ بتزكيةٍ أو ضِدِّها إلَّا بعدَ تَجربتِها، ومُلاحَظةِ تصرُّفاتِها عند حُلولِ الحوادِثِ بها(٣).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ أنَّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على السَّمعِ فإنَّما هو مُتَّبِعٌ لخُطواتِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ قَدَّمَ ما يَدَّعي أنَّه عَقلٌ على السَّمعِ، فأخطأَ في ذلك؛ فهكذا كلُّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

السَّمعِ، سواءٌ في العِلميَّاتِ -وهي عِلمُ العقائدِ- أو في العَمَليَّاتِ؛ فإنَّه مُشابهٌ لإبليسَ، مُتَّبعٌ لخُطُواته، واعلَمْ أنَّ كُلَّ بَليَّةٍ تَقَعُ مِن تحريفِ الكَلِم عن مَواضِعِه، والاستكبارِ عن عِبادةِ اللهِ، وغيرِ ذلك: فأصلُها مِن إبليسَ[١].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ أنَّ مِن أسبابِ الإعانةِ أنْ يَستعينَ الإنسانُ بما يُناسِبُ المقامَ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «فبِمَغفِرتِك لأُغوينَّهم»؛ لأنَّه يُريدُ أنْ يَتَسَلَّطَ، والسُّلطةُ يُناسِبُها مِن الصِّفاتِ «العِزَّةُ» دونَ «المغفرةِ»[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ إبليسَ وَعَدَ -مُتوسِّلًا بعِزَّةِ اللهِ- أنْ يُغويَ جميعَ بني آدمَ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ مِن إبليسَ ووَساوِسِه، فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِك تأخُّرًا في الخَيرِ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وإذا وَجدْتَ في نَفْسِك إقدامًا على الشَّرِّ فاستَعِذْ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ قال تعالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾[٣] [البقرة: ٢٦٨].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى وَعَدَ جَهنَّمَ بمَلئِها، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ الحذَرُ الشَّديدُ مِن أنْ يكونَ الإنسانُ مِن أهلِ جَهنَّمَ -نعوذُ باللهِ منها- وفي الصَّحيحَينِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تزالُ جَهنَّمُ يُلقَى فيها وتَقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه؛ فيَنزَوي[٤] بعضُها إلى بَعضٍ، وتقولُ: قَطْ قَطْ[٥]))[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) فيَنزَوي: أي: فيَجتمِعُ ويَنقبِضُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).
(٥) قَطْ قَطْ: أي: حَسْبي حَسْبي، قد اكتفَيتُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢). =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾ إثباتُ الكَلامِ للهِ عزَّ وجلَّ، وإثباتُ أنَّ كلامَه بصَوتٍ مَسموعٍ تَسمَعُه الملائكةُ، كما في هذه القِصَّةِ، وإثباتُ أنَّه بحَرفٍ، أي: بحُروفٍ مُتتابِعةٍ يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾، وكُلُّ هذا تأكيدٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وفي هذا أيضًا إثباتُ أنَّ الكَلامَ يتعلَّقُ بمَشيئتِه سُبحانَه[1].

٢- صَحَّ أنْ يَقولَ لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾، وما عَرَفوا ما البَشَرُ، ولا عَهِدوا به قَبلُ، ووَجهُه: أنْ يَكونَ قد قال لهم: إنِّي خالِقٌ خَلْقًا مِن صِفَتِه كَيْتَ وكَيْتَ، ولكِنَّه حين حَكاه اقتَصَرَ على الاسمِ.

وقيلَ: ولَعَلَّ ما جرَى عِندَ وُقوعِ المَحكيِّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَقْ مُسَمَّاهُ حِينَئذٍ، فَضلًا على تَسميَتِه به، بلْ عِبارةٌ كاشِفةٌ عن حالِه، وإنَّما عَبَّرَ عنه بهذا الاسمِ عِندَ الحِكايةِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ إثباتُ أنَّ أصلَ بني آدَمَ هو الطِّينُ؛ ولهذا جاءتْ طبائِعُ بني آدَمَ وألوانُهم مُختلِفةً كاختِلافِ الأرضِ، أو كاختِلافِ تُربةِ الأرضِ؛ فيها السَّهلُ واللَّيِّنُ، والأحمرُ والأبيضُ والأسوَدُ، والحَزْنُ والصَّعْبُ؛ لأنَّهم خُلِقُوا مِن هذه التُّربةِ، فصارَ اختلافُهم كاختِلافِ

= والحديث أخرجه البُخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) واللفظ له، مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رَضي اللهُ عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

الأصلِ الذي خُلِقُوا منه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فيه سؤالٌ: ذكَر هاهنا أنَّه خلَق البشرَ من طِينٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وكقَولِه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقولِه: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: ١١].

والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طِينًا لازِبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفَخَّارِ[٢]، فثبَت أنَّه لا منافاةَ بينَ الكلِّ[٣].

٥- في قولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ إثباتُ الأفعالِ للهِ تعالَى، وبيانُ أنَّ أفعالَه تَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ لأنَّ «إذا» شَرطيةٌ تُفيدُ المُستقبَلَ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يدُلُّ على تَفخيمِ شأنِ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه تعالَى خلَقَ ما خلَقَ من الكَونَينِ (العلويِّ والسفليِّ)، والجنَّةِ والنَّارِ، والعَرشِ والكُرسيِّ، والملائِكةِ، ولم يَقُلْ في صِفةِ شَيءٍ منها ما قاله في صِفةِ آدَمَ -عليه السَّلامُ- وأولادِه، ولم يأمُرْ بالسُّجودِ لِشَيءٍ غَيرِه[٥].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ جوازُ تعليقِ الأمرِ بالشَّرطِ، أي: إذا جازَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٩).

تعليقُ الأمرِ بالشرطِ؛ فإنَّ المأمورَ به يمكنُ أنْ يَنْفُذَ فيه الشَّرطُ؛ ولهذا قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ لِضُبَاعَةَ بنتِ الزبيرِ -وقد اشتكَتْ إليه عِندَ إرادةِ الحجِّ- قال: ((حُجِّي واشترطي، قولي: اللهمَّ مَحِلِّي حيثُ حَبَسْتَنِي))(١).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ تَشريفُ الرُّوحِ التي نُفِخَتْ في آدَمَ عليه السَّلامُ، وهذا تَشريفٌ مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ هو الذي نَفَخَها، ولم يأمُرْ أحدًا مِن الملائِكةِ بنَفخِها.

والثَّاني: أنَّ اللهَ أضاف هذه الرُّوحَ إلى نَفسِه المُقَدَّسةِ(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ساغ السُّجودُ لِغَيرِ اللهِ تعالى؟

الجوابُ: أنَّ السَّجدةَ كانتْ لآدمَ عليه السَّلامُ تَعظيمًا له وتَحِيَّةً له، كالسَّلامِ منهم عليه، وقدْ أجْمَع المسلمونَ على أنَّ ذلك السُّجودَ ليس سُجودَ عِبادةٍ(٣).

وأيضًا فالأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، ولَمَّا وقَع ذلك امتِثالًا لأمْرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، كما أنَّ قَتْلَ النَّفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٠٨٩) واللفظ له، ومسلم (١٢٠٧) من حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٨-٨٩).

١٠- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ جوازُ تَوجُّهِ الأمْرِ -الخِطابِ- إلى العُمومِ، وإنْ كان فيهم مِن غَيرِ جنسِهم؛ فإنَّ إبليسَ -بلا شَكٍّ- مِن غيرِ الملائِكةِ أصلًا ونِهايةً، لكِنَّه كان فيهم؛ فصَحَّ أنْ يَتَوجَّه الخِطابُ إليه، وهذا ظاهِرٌ. لو أنَّك أمَرْتَ جماعةً بالسُّجودِ وفيهم مَن ليس منهم، ولكِنَّه على صِفتِهم ويَعمَلُ بعَمَلِهم، فتَخَلَّفَ، لا بُدَّ أنْ تَلومَه؛ لأنَّ الخِطابَ مُوَجَّهٌ للجَميعِ(١).

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه أنَّ الاستكبارَ عن أمْرِ اللهِ كُفْرٌ؛ فمعنَى قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: جزاءً لاستكبارِه كان مِنَ الكافِرين(٢)؟

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ تعالَى يَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ حيثُ صَدَّرَ هذا القولَ بعْدَ استِكبارِ إبليسَ وتَركِه السُّجودَ(٣).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قد يَستَدِلُّ به مَن رأى أنَّ (لا) في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] زائدةٌ؛ حيثُ سقَطَتْ هنا، والقِصَّةُ واحِدةٌ(٤).

١٤- قال تعالَى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ كُلُّ مَن رَدَّ نُصوصَ الوَحيِ بالأقيِسَةِ فسَلَفُه في ذلك إبليسُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٥٤).
(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣).

١٥- قَولُه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ فيه إثباتُ اليَدَينِ للهِ تعالَى؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ﴾، وهذه صِيغةُ تَثنيةٍ تُفيدُ أنَّ للهِ تعالَى يَدينِ اثنتَينِ تَليقُ بجلالِه[١].

١٦- في قَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ الرَّدُّ على أهلِ التَّعطيلِ الذين قالوا: إنَّ المرادَ باليَدِ النِّعمةُ أو القوَّةُ؛ وذلك أنَّ النِّعمةَ أو القُوَّةَ لا تأتي بصِيغةِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ تدُلُّ على الحَصرِ؛ وقوةُ اللهِ غيرُ مَحصورةٍ، ونِعَمُه أيضًا غيرُ محصورةٍ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾[٢] [النحل: ١٨].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ أنَّ يَدَ اللهِ تعالى لا تُماثِلُ أيديَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفسِه، والمضافُ يكونُ حَسَبَ المضافِ إليه، فكما أنَّ ذاتَ اللهِ مُقَدَّسةٌ لا تُماثِلُ ذواتِ المَخلوقينَ كذلك صِفاتُه[٣].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ فيه استِعمالُ الحَصْرِ -أو كما يقولون: السَّبرُ والتَّقسيمُ[٤]- في المناظَرةِ والمجادَلةِ؛ فمعنَى الآيةِ: هل أنتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ القيِّم: (لا ريبَ أنَّ العرَبَ تقولُ: لفُلانٍ عِندي يَدٌ، وقال عُروةُ بنُ مَسعودٍ للصِّدِّيق: «لولا يدٌ لك عندي لم أَجْزِك بها لأجَبْتُك». ولكِنْ وقوعُ اليدِ في هذا التركيبِ الذي أضاف سُبحانَه فيه الفِعلَ إلى نفْسِه، ثمَّ تعدَّى الفِعلَ إلى اليَدِ بالباءِ التي هي نظيرُ: كَتبتُ بالقَلَم، وهي اليَدُ، وجَعْلُ ذلك خاصَّةً خَصَّ بها صَفيَّه آدَمَ دونَ البَشَرِ، كما خَصَّ المسيحَ بأنَّه نَفَخ فيه مِن رُوحِه، وخَصَّ موسى بأنَّه كَلَّمه بلا واسِطةٍ: فهذا مِمَّا يُحيلُ تأويلَ اليَدِ في النَّصِّ بالنِّعمة، وإنْ كانتْ في تركيبٍ آخَرَ تَصلُحُ لذلك؛ فلا يلزَمُ من صلاحِيةِ اللَّفظِ لِمعنًى ما في تركيبٍ صلاحيتُه له في كلِّ تركيبٍ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٤) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ =

استكبَرْتَ في نَفسِك، وأنتَ لستَ أهلًا للعُلُوِّ؟ أو كنتَ عاليًا في أصلِكَ حتى تَمتنَعَ عن السُّجودِ؟ أمْ أنتَ أكبَرُ وفي مَرتبةٍ عاليةٍ أعْلى مِن آدمَ حتى تَمتنَعَ عن السُّجودِ(١)؟

١٩- حُجَّةُ إبليسَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هي حُجَّةٌ باطلةٌ؛ لأنَّه عارضَ النصَّ بالقِياسِ(٢).

= للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ من غيره. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وذكَر ابنُ تيميةَ أنَّ حُجةَ إبليس فاسدةٌ بالعقلِ، وذلك مِن خَمسةِ وجوه:

أحدُها: أنَّه ادَّعى أنَّ النارَ خيرٌ مِن الطينِ! وهذا قدْ يُمْنَعُ؛ فإنَّ الطينَ فيه السَّكينةُ والوقارُ والاستقرارُ والثباتُ والإمساكُ ونحو ذلك؛ وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ! والطِّينُ فيه الماءُ والترابُ.

الثاني: أنَّه -وإنْ كانتِ النارُ خيرًا مِن الطِّينِ- فلا يجبُ أنْ يكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قد يَختَصُّ بما لا يكونُ في أصلِه، وهذا الترابُ يُخْلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنباتِ ما هو خيرٌ منه، والاحتجاجُ على فَضْلِ الإنسانِ على غيره بفضلِ أصلِه على أصلِه! حُجَّةٌ فاسدةٌ احتجَّ بها إبليسُ، وهي حُجَّةُ الذين يَفْخَرون بأنسابِهم.

الثالثُ: أنه -وإنْ كان مخلوقًا من طِينٍ- فقد حَصَلَ له بنفخِ الرُّوحِ المُقَدَّسَةِ فيه ما شَرُفَ به؛ فلهذا قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فعلَّق السُّجودَ بأنْ يُنْفَخَ فيه من رُوحِه، فالموجبُ للتفضيلِ هذا المعنى الشريفُ الذي ليس لإبليسَ مثلُه.

الرابعُ: أنه مخلوقٌ بيدي اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.

الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أَفْضَلُ؛ فقد يُقالُ: إكرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ! يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (علَّل ما ادَّعاه مِن كَونِه خَيرًا منه، بقَولِه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ وفي =

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يَعمَى عن الحَقِّ، فيَستَدِلُّ بما هو حُجَّةٌ عليه، يَظُنُّ أنَّه حُجَّةٌ له؛ وذلك أنَّ أهلَ العلمِ ذكَروا في هذا المقامِ بيانَ أنَّ ما خُلِقَ منه آدَمُ خيرٌ ممَّا خُلِق منه إبليسُ[١].

٢١- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ إبليسَ أعلَمُ بحَقائِقِ صِفاتِ اللهِ تعالَى مِن كَثيرٍ مِن أهلِ التَّعطيلِ؛ فالذين فَسَّروا اليدَ بالقُوَّةِ هنا لو كان تَفسيرُهم صَحيحًا لقال إبليسُ: «يا رَبِّ، وأنا خلَقْتَني بيدَيك»؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَ إبليسَ بقُوَّتِه كما خَلَقَ آدَمَ، لكِنَّ إبليسَ فَهِمَ أنَّ المرادَ باليدِ غيرُ القُوَّةِ؛ ولهذا لم يَنْقُضْ فَضيلةَ آدمَ بأنَّه هو خُلِقَ بيَدِ اللهِ[٢].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ احتُجَّ به في مَسألةِ أنَّ الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ، فهو إخبارٌ مِن اللهِ تعالى بأنَّ إبليسَ لا يُؤمِنُ، فلو آمَنَ لانقلبَ خبَرُ اللهِ الصِّدقُ كَذِبًا، وهو مُحالٌ؛ فكان صُدورُ الإيمانِ منه مُحالًا مع أنَّه أُمِرَ به[٣].

٢٣- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ أنَّ اللهَ قد يُقَدِّرُ أسبابَ الشَّرِّ لِحكمةٍ، وذلك بإجابةِ دُعاءِ إبليسَ أنْ يُنظِرَه إلى يومِ

= زَعمِه أنَّ عُنصُرَ النَّارِ أشرَفُ مِن عنصُرِ الطِّينِ! وذهَبَ عنه أنَّ النَّارَ إنَّما هي بمنزلةِ الخادمِ لعُنصُرِ الطِّينِ؛ إن احتيجَ إليها استُدعِيَت كما يُستدعَى الخادِمُ، وإن استُغنِيَ عنها طُرِدَت، وأيضًا فالطِّينُ يَستولي على النَّارِ فيُطفِئُها، وأيضًا فهي لا تُوجَدُ إلَّا بما أصلُه مِن عُنصُرِ الأرضِ؛ وعلى كُلِّ حالٍ فقد شَرُفَ آدَمُ بشَرَفٍ وكَرُمَ بكَرامةٍ لا يُوازيها شَيءٌ مِن شَرَفِ العناصِرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خلَقَه بيَدِيه، ونَفَخَ فيه مِن رُوحِه! والجواهِرُ في أنفُسِها مُتجانِسةٌ، وإنَّما تَشرُف بعارِضٍ مِن عوارِضِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

الوَقتِ المعلومِ، وإبليسُ لا شكَّ أنَّه مَبدَأُ كُلِّ شَرٍّ، ولكِنَّ اللهَ تعالى أبقاه لِحكمةٍ عَظيمة، ولولا بقاءُ إبليسَ ما وُجِدَ عاصٍ في الأرضِ، وإذا انتفَى العِصيانُ صارَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدةً، ولم يكنِ الإيمانُ مَزيَّةً، ولم يكنْ جِهادٌ، ولا أمرٌ بالمعروفِ، ولا نهيٌ عن المُنكَرِ، ولو كان النَّاسُ أُمَّةً واحدةً لتَعطَّلَ كثيرٌ مِن شَعائرِ الإسلامِ؛ فكان مِن الحِكمةِ بقاءُ إبليسَ، وبقاءُ ما يَدعو إليه إبليسُ[١].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ إنْ قال قائِلٌ: فهل أحَدٌ مُنظَرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقالَ له: إنَّك منهم؟

الجوابُ: نعمْ، مَن لم يَقبِضِ اللهُ رُوحَه مِن خَلْقِه إلى ذلك اليَومِ مِمَّن تقومُ عليه السَّاعةُ؛ فهُم مِن المُنظَرينَ بآجالِهم إليه؛ ولذلك قيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، بمعنى: إنَّك مِمَّن لا يُميتُه اللهُ إلَّا ذلك اليومَ[٢].

٢٥- قال تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والعِزَّةُ: القَهرُ والسُّلطانُ، وعِزَّةُ اللهِ هي العِزَّةُ الكامِلةُ التي لا تَختَلُّ حَقيقَتُها، ولا يَتخلَّفُ سُلطانُها. وأقسَمَ الشَّيطانُ بعِزَّةِ اللهِ؛ تَحقيقًا لقِيامِه بالإغواءِ دُونَ تَخلُّفٍ، وإنَّما أقسَمَ على ذلك وهو يَعلَمُ عَظمةَ هذا القَسَمِ؛ لأنَّه وَجَدَ في نَفْسِه أنَّ اللهَ أقدَرَه على القِيامِ بالإغواءِ والوَسوَسةِ، وقد قال في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقَسَمُ إبليسَ بها ناشِئٌ عن عِلْمِه بأنَّه لا يَستَطيعُ الإغواءَ إلَّا لِأنَّ اللهَ أقدَرَه، ولولا ذلك لم يَستَطِعْ نَقضَ قُدرةِ اللهِ تَعالى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢٦- في قَولِه تعالَى عن إبليسَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ لَفظَ «الغَيِّ» إذا أُطلِقَ تناولَ كلَّ مَعصيةٍ للهِ[١].

٢٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ إبليسَ لا يُغوي عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، وقال تعالَى في صِفةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فيُستفادُ مِن مَجموعِ هاتينِ الآيتَينِ أنَّ إبليسَ ما أغْوَى يوسُفَ عليه السَّلامُ، وذلك يدُلُّ على كذِبِ ما نُسِبَ إلى يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن القَبائحِ[٢].

٢٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لطاعتِه، فأخلَصوا قَصْدَهم لها، وعُرِفَ مِن الاستِثناءِ أنَّهم قَليلٌ، وأنَّ الغُواةَ هم الأصلُ[٣].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أنَّ كلَّ ما قَدَّرَه اللهُ تعالى فهو حَقٌّ -سواءٌ كان ملائمًا للبشرِ أو غيرَ ملائم-، وجهُ ذلك: أنَّ كلَّ شيءٍ قَدَّرَه اللهُ كائنٌ بقوله: «كُنْ»، و «كُنْ» قولٌ، فإذا كانَ كُلُّ ما قاله اللهُ حَقًّا لَزِمَ أنْ يكونَ كلُّ ما قضاه حَقًّا، وهو كذلك، ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: ((الخيرُ كلُّه في يديك؛ والشَّرُّ ليس إليك))[٤].

٣٠- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المرادُ: الجِنسُ، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ المرادُ: النَّاسُ الذين أقسَمْتَ أنْ تُغويَهم؛ ولهذا كانتِ النَّارُ دارًا لِصِنفَينِ من

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا، من حديثِ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه.

المخلوقاتِ فقط، وهما الجِنُّ والإنسُ؛ فالملائكةُ ليسُوا مِن أهلِها، والوُحوشُ والحشَراتُ وغيرُها ليسوا مِن أهلِها[١].

٣١- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُكَلَّفْ في الدُّنيا مِن الصِّبيانِ والمجانينِ، ومَن مات في الفَترةِ: لا يُحكَمُ لهم بالنَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أنْ يَملأَ جهنَّمَ مِن إبليسَ وأتْباعِه -وأتْباعُه همُ العُصاةُ- ولا مَعصيةَ إلَّا بعدَ التَّكليفِ؛ فلو دَخَلَها الصَّبيُّ والمجنونُ لدَخَلَها مَن هو مِن غيرِ أتباعِه؛ فلم تَمتَلِئْ منهم[٢]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يَقولَ: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، أيْ: هذا الذي أنبَأْتُكم به مِن كَوْني رَسولًا مُنذِرًا، وأنَّ اللهَ واحِدٌ لا شَريكَ له، وقَهَّارٌ ومالِكٌ لِلعالَمينَ، وعَزيزٌ غَفَّارٌ، وأدمَجَ فيه مَعنى العِبادةِ، وأنَّه تَعالى ما خَلَقَ الخَلقَ إلَّا لِيُعبَدَ ويُعرَفَ، وأرادَ أنْ يُعَظِّمَ ذلكَ؛ فأمَرَ نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يُعَظِّمَه ثانيًا ويَقولَ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، أيْ: بفَضلِ هذا واختِصاصِه ببَني آدَمَ واختِصامِ المَلائِكةِ فيه، واغتِباطِهم لِلبَشَرِ، وما أُمِروا بالسُّجودِ لِآدَمَ إلَّا لِتِلكَ الكَراماتِ والفَضائِلِ، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالى أعلَمَني بالوَحيِ وأمَرَني بالدَّعوةِ فيه، والإنذارِ لِمَنِ امتَنَعَ منه؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ مُستَطرِدًا لِحَديثِ الخُصومةِ في فَضائِلِ البَشَرِ؛ لِمَا فيه مِنَ التَّكرِمةِ لِآدَمَ مِن كَونِه مَسجودًا لِلمَلائِكةِ، واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٩).

- وهو شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ مِنَ الاختِصام، الذي هو ما جرَى بَينَهم مِنَ التَّقاوُلِ، وحيثُ كان تَكليمُه تَعالى إيَّاهم بواسِطةِ المَلَك صَحَّ إسنادُ الاختِصامِ إلى المَلائِكةِ، والقِصَّةُ التي دَخَلتْ (إذْ) عليها مُشتَمِلةٌ على تَقاوُلِ المَلائكةِ وإبليسَ في خَلقِ آدَمَ عليه السَّلامُ، واستِحقاقِه لِلخِلافةِ والسُّجودِ، غَيرَ أنَّها اختُصِرتِ؛ اكتِفاءً بذلك، واقتِصارًا على ما هو المَقصودُ منها، وهو وَعظُ المُشرِكينَ وإنذارُهم على استِكبارِهم على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استِكبارِه على آدَمَ عليه السَّلامُ[1].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فيه التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِتَشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وَحيَ هذا النَّبأِ إليه تَربيةٌ وتأييدٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. والكافُ وارِدٌ باعتِبارِ حالِ الآمِرِ؛ لِكَونِه أدَلَّ على كَونِه وَحيًا مُنزَّلًا مِن عِندِه تَعالى، كما في قَولِه تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، دُونَ حالِ المَأمورِ، وإلَّا لَقيلَ: رَبِّي؛ لِأنَّه داخِلٌ في حَيِّزِ الأمْرِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ ما ليسَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّه تَعالَى فاعِلٌ له البَتَّةَ، مِنْ غَيرِ صارِفٍ يَلويهِ، ولا عاطِفٍ يَثْنيهِ[3].

- قولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ نَعتٌ لِكَلِمةِ ﴿بَشَرًا﴾، وقد أغنَى بهذا الوَصفِ عنِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النُّعوتِ البَشريَّةِ كُلِّها، وتِلك هي بَراعةُ الإيجازِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

- ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ التَّسويةُ: تعديلُ ذاتِ الشيءِ، وقدْ أُطلِقتْ هنا على اعتِدالِ العناصِرِ فيه واكتمالِها بحيثُ صارتْ قابلةً لنَفْخِ الرُّوحِ(٢).

- قَولُه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى اللهِ؛ لِشَرَفِ الإنسانِ وطَهارَتِه(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

- اللَّامُ في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ لِلاستِغراقِ، دَخلتْ على صِيغةِ الجَمعِ؛ فتُفيدُ الشُّمولَ، ثم أكَّدَ بقَولِه: ﴿كُلُّهُمْ﴾؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ غَيرِ الشُّمولِ والإحاطةِ، و﴿أَجْمَعُونَ ﴾ لِلاجتِماعِ، فأفادَا مَعًا أنَّهم سَجَدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ منهم مَلَكٌ إلَّا سَجَدَ، وأنَّهم سَجَدوا جَميعًا في وَقتٍ واحِدٍ، غَيرَ مُتفرِّقينَ في أوقاتٍ، على أنَّ مُطلَقَ الأمرِ في هذا المَقامِ لا يُفيدُ إلَّا الفَورَ(٤).

- قَولُه: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أيْ: فخَلَقَه فسَوَّاه فنَفَخَ فيه الرُّوحَ، فسَجَدَ له المَلائكةُ كلُّهمْ، بحيثُ لم يَبْقَ منهم أحَدٌ إلَّا سَجدَ ﴿أَجْمَعُونَ ﴾، أيْ: بطَريقِ المَعيَّةِ، بحَيثُ لم يَتأخَّرْ في ذلك أحَدٌ منهم عن أحَدٍ، ولا اختِصاصَ لِإفادةِ هذا المَعنى بالحاليَّةِ، بلْ يُفيدُ التَّأكيدَ أيضًا. وقيلَ: أُكِّدَ بتَأكيدَيْنِ؛

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

مُبالَغةً في التَّعميمِ هذا(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وَقَعَ في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: ٣١]، وفي هذه السُّورةِ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فيَكونُ ما في هذه الآيةِ يُبيِّنُ الباعِثَ على الإبايةِ، ووَقَعتْ هنا زيادةُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهي بَيانٌ لِكَونِ المُرادِ في سُورةِ (الحِجرِ) مِن قَولِه: ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، الإبايةَ مِنَ الكَونِ مِنَ السَّاجِدينَ للهِ، أيْ: المُنزِّهينَ اللهَ عنِ الظُّلمِ والجَهلِ(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ؛ لِمَا أنَّه كانَ جِنِّيًّا مُفرَدًا مَغمورًا بأُلوفٍ مِنَ المَلائكةِ، مَوصُوفًا بصِفاتِهم، فغُلِّبُوا عليه، ثم استُثْنيَ استِثناءَ واحدٍ منهم، أو مُنقَطِعٌ. وقولُه تعالَى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ على الأوَّلِ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِكَيفيَّةِ تَركِ السُّجودِ المَفهومِ مِنَ الاستِثناءِ؛ فإنَّ تَركَه يحتمِلُ أنْ يَكونَ لِلتَّأمُّلِ والتَّروِّي، وبه يَتحَقَّقُ أنَّه لِلإباءِ والاستِكبارِ، وعلى الثَّاني يَجوزُ اتِّصالُه بما قَبلَه، أيْ: لكِنَّ إبليسَ استكبَرَ(٣).

- قَولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآيةُ مِن الاحتِباكِ(٤): ذكَرَ فِعلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذْفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذْفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القُرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو =

الاستِكبارِ أولًا دَليلًا على فِعلِ الكُفرِ ثانيًا، ووَصَف الكُفرَ ثانيًا دَليلًا على وَصْفِ الاستِكبارِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أقعَدُ في التَّحذيرِ بأنَّ مَن وقَع منه كِبرٌ جرَّه إلى الكُفرِ[(١)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ عَبَّرَ عن آدَمَ باسمِ (ما) المَوصولةِ، وهو حينَئذٍ إنسانٌ؛ لِأنَّ سُجودَ المَلائِكةِ لِآدَمَ كان بَعدَ خَلقِه وتَعليمِه الأسماءَ، كما في سُورةِ البَقَرةِ[(٢)]. وقيل: كأنَّه يقولُ سبحانَه: لِمَ عصيتَني وتكَبَّرْتَ على ما لم تَخْلُقْه وخلقتُه أنا وشَرَّفْتُه؛ وأمَرْتُك بالسُّجودِ له؟ فهذا موضِعُ «ما»؛ لأنَّ معناها أبلغُ؛ ولفْظُها أعَمُّ، وهو في الحُجَّةِ أوقعُ؛ وللعُذرِ والشُّبهةِ أَقْطَعُ، فلو قال: ما منَعَك أنْ تسجُدَ لـ «مَن» خلقتُ؟ لكان استِفهامًا مجرَّدًا مِن تَوبيخٍ وتَبكيتٍ، ولَتُوُهِّمَ أنَّه وَجَب السُّجودُ له من حيثُ كان يَعْقِلُ؛ ولعلَّه موجودٌ في ذاتِه وعيْنِه! وليس المرادُ كذلك، وإنَّما المرادُ توبيخُه وتبكيتُه على ترْكِ سُجودِه لِمَا خَلَقَ اللهُ وأَمَرَه بالسُّجودِ له؛ ولهذا عَدَلَ عن اسمِ آدمَ العَلَمِ معَ كونِه أخصَّ؛ وأتَى بالاسمِ الموصولِ الدَّالِّ على أنَّ جِهةَ التشريفِ المقتضيةَ لسجودِه له؛ كونُه خَلَقَه بيديه، وأنتَ لو وضعتَ مكانَ «ما» لفظةَ «مَن» لَمَا رأيتَ هذا المعنى المذكورَ في الصِّلَةِ! وأنَّ «ما» جِيءَ بها وصلةً إلى ذِكْرِ الصِّلَةِ، فتأمَّلْ ذلك؛ فلا معنى -إذنْ- للتعيين بالذِّكْرِ!

= مِن ألْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

إذْ لو أُرِيْدَ التعيينُ لكان بالاسمِ العَلَمِ أَوْلَى وأَحْرَى[(١)].

- والهَمزةُ في قَولِه: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾، للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وقيلَ: لِلتَّقرير، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الجُملةُ إخبارًا، خُوطِبَ بذلك على سَبيلِ التَّقريع، والمَعنى: بلْ أنتَ مِنَ العالينَ عِندَ نَفسِكَ؛ استِخفافًا به، وفيه مَزيدٌ مِنَ الإنكارِ على إبليسَ، ومَزيدٌ مِنَ التَّوبيخِ، فجَمَعه وأدخَلَه في زُمرةِ العالينَ[(٢)]؟

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هذا إبداءٌ لِلمانعِ مِنَ السُّجودِ، أيْ: لو كانَ مَخلوقًا مِن نارٍ لَمَا سَجَدْتُ له؛ لأنَّه مَخلوقٌ مِثلي؛ فكيف أسجُدُ لِمَن هو دُوني؛ لِأنَّه مِن طِينٍ، والنارُ تَغلِبُ الطِّينَ وتأكُلُه؟ وقد جَرَتِ الجُملةُ الثانيةُ مِنَ الأُولى -وهي ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾- مَجرى المَعطوفِ عَطْفَ البَيانِ مِنَ المَعطوفِ عليه في البَيانِ والإيضاحِ؛ فهي دَليلٌ على المانعِ لإبليسَ مِنَ السُّجودِ في ظَنِّه، ولم يَرِدْ في القُرآنِ أنَّ اللهَ رَدَّ عليه هذا التَّأصيلَ؛ لأنَّه أحقَرُ مِن ذلك، فلَعَنَه وطَرَدَه؛ لأنَّه ادَّعى باطِلًا، وعَصَى رَبَّه استِكبارًا، وطَرْدُه أجمَعُ؛ لإبطالِ عِلْمِه، ودَحْضِ دَليلِه[(٣)].

- وقَولُه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ ادِّعاءٌ مِن إبليسَ -عليه اللَّعنةُ- لِشَيءٍ مُستَلزِمٍ لِمَنعِه مِنَ السُّجودِ على زَعمِه، وإشعارٌ بأنَّه لا يَليقُ أنْ يَسجُدَ الفاضِلُ لِلمَفضولِ كما يُعرِبُ عنه قولُه: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾[1] [الحجر: ٣٣].

- وقولُه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ تعليلٌ لِمَا ادَّعاهُ مِن فَضلِه عليه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ولقد أخطأ اللَّعينُ حيثُ خَصَّ الفَضلَ بما مِن جِهةِ المادَّةِ والعُنصُرِ -مع أنَّ عنصرَ آدمَ أفضَلُ-، وزَلَّ عنه ما مِن جِهةِ الفاعِلِ، كَمَا أنبأ عَنْهُ قَولُه: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وما مِن جِهةِ الصُّورةِ، كما نَبَّه عليه قَولُه: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وما مِن جِهةِ الغايةِ، وهو مِلاكُ الأمْرِ؛ ولذلك أُمِرَ المَلائِكةُ بسُجودِهم عليهمُ السَّلامُ، حين ظَهَر لهم أنَّه أعلَمُ منهم بما يَدورُ عليه أمْرُ الخِلافةِ في الأرضِ، وأنَّ له خَواصَّ ليستْ لِغَيرِه[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾

- ضَميرُ ﴿قَالَ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تَعالَى، على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ، وفَرَّعَ أمْرَه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ بالفاءِ على ما تَقدَّمَه مِنَ السُّؤالِ والجَوابِ؛ لأنَّ جَوابَه دَلَّ على كَونِ خُبثٍ في نَفْسِه بَدَتْ آثارُه في عَمَلِه، فلم يَصلُحْ لِمُخالَطةِ أهلِ المَلَأِ الأعلَى[3].

- وقَولُه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ تَعليلٌ لِلأمرِ بالخُروجِ، أيْ: مَطرودٌ مِن كُلِّ خَيرٍ وكَرامةٍ؛ فإنَّ مَن يُطرَدُ يُرجَمُ بالحِجارةِ، أو شَيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُبِ[4]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

- اللَّعنةُ: الإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، وأُضيفَ إلى اللهِ لِتَشنيعِ مُتَعلَّقِها، وهو المَلعونُ؛ لِأنَّ المَلعونَ مِن جانِبِ اللهِ هو أشنَعُ مَلعونٍ. وتَقييدُ اللَّعنةِ بالإضافةِ مع إطلاقِها في قَولِه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٥]؛ لِمَا أنَّ لَعنةَ اللَّاعِنينَ مِنَ المَلائِكةِ والثَّقَلَينِ أيضًا مِن جِهتِه تَعالى، وأنَّهم يَدْعُونَ عليه بلَعنةِ اللهِ تَعالى، وإبعادِه مِنَ الرَّحمةِ[(١)].

- قَولُه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أيْ: إلى يَوم الجَزاءِ والعُقوبةِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللَّعنةَ مع كَمالِ فَظاعَتِها ليستْ جَزاءً لِجِنايَتِه، بل هي أُنموذجٌ لِمَا سَيَلقاه مُستَمِرًّا إلى ذلك اليَوم، لكِنْ لا يَدُلُّ على أنَّ غايةَ لَعنةِ اللهِ تَعالى لإبليسَ إلى يَوم القِيامةِ، ثم تَنقَطِعُ عنه اللَّعنةُ بقِيامِ القِيامةِ، وكيف تَنقطِعُ وقدْ قال تَعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وإبليسُ أظلَمُ الظَّلَمةِ؟ والمُرادُ أنَّ عليه اللَّعنةَ طُوالَ مُدَّةِ الدُّنيا، فإذا كان يَومُ القِيامةِ اقترَنَ له باللَّعنةِ مِن أنواعِ العَذابِ ما يَنسَى معه اللَّعنةَ؛ فكَأنَّها انقَطَعتْ. ويَتعَلَّقُ بذلك ثَلاثُ عِباراتٍ: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو: يَومُ الجَزاءِ، و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] وهو يَومُ الحَشرِ، و ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١] وهو الوَقتُ الذي فيه النَّفخةُ الأُولى، ولا ارتيابَ أنَّ إغواءَه إنَّما يَنتَهي إلى آخِرِ أيَّام التَّكليفِ، وهو الوَقتُ المَعلومُ؛ ولِهذا لَمَّا طَلَبَ الإغواءَ إلى يَومِ البَعثِ أُجيبَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ، واختِصاصُ يَومِ الدِّينِ؛ لِأجْلِ أنَّ الجَزاءَ والعَذابَ إنَّما يُبتَدآنِ منه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

٩- قولُه تعالَى: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾، أيْ: أمهِلْني وأخِّرْني، والفاءُ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يَنسَحِبُ عليه الكَلامُ، أيْ: إذا جَعَلتَني رَجيمًا فأمهِلْني ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

- قَولُه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ وُرودُ الجَوابِ بالجُملةِ الاسميَّةِ مع التَّعرُّضِ لِشُمولِ ما سَألَه لِآخَرينَ على وَجهٍ يُشعِرُ بكَونِ السَّائلِ تَبعًا لهم في ذلك؛ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المُقَدَّرِ لهم أزَلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به قد وَقَعَ إجابةً لِدُعائِه، وأنَّ استِنظارَه كانَ طَلَبًا لِتأخيرِ المَوتِ؛ إذْ به يَتحقَّقُ كَونُه منهم، لا لِتأخيرِ العُقوبةِ كما قيلَ؛ فإنَّ ذلكَ مَعلومٌ مِن إضافةِ اليَومِ إلى الدِّينِ، أيْ: إنَّكَ مِن جُملةِ الذينَ أُخِّرَتْ آجالُهم أزَلًا حَسبَما تَقتَضيه حِكمةُ التَّكوينِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى، لا إلى وَقتِ البَعثِ الذي هو المَسؤولُ؛ فالفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ﴾ ليستْ لِرَبطِ الإنظارِ نَفْسِه بالاستِنظارِ، بل لِرَبطِ الإخبارِ المَذكورِ به، كما في قَولِ مَن قال: (فإنْ تَرحَمْ فأنتَ لِذاكَ أهلٌ)؛ فإنَّه لا إمكانَ لِجَعلِ الفاءِ فيه لِرَبطِ ما له تَعالى مِنَ الأهليَّةِ القَديمةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِ الرَّحمةِ الحادِثةِ، بلْ هي لِرَبطِ الإخبارِ بتِلك الأهليَّةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِها هذا. وقد تُرِكَ التَّوقيتُ في سُورةِ (الأعرافِ)، كما تُرِكَ النِّداءُ والفاءُ في الاستِنظارِ والإنظارِ؛ تَعويلًا على ما ذُكِرَ هاهنا، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٧، ٢٣٨).

سُورةِ (الحِجرِ)، وإنْ خطَرَ ببالك أنَّ كُلَّ وَجهٍ مِن وُجوهِ النَّظمِ الكَريمِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ له مَقامٌ يَقتَضيه مُغايرٌ لِمَقامِ غَيرِه، وأنَّ ما حُكيَ مِنَ اللَّعينِ إنَّما صَدَرَ عنه مَرَّةً، وكذا جَوابُه لم يَقَعْ إلَّا دَفعةً، فمَقامُ الاستِنظارِ والإنظارِ إنِ اقتَضى أحدَ الوُجوهِ المَحكيَّةِ فذلك الوَجهُ هو المُطابِقُ لِمُقتَضى الحالِ، والبالِغُ إلى رُتبةِ البَلاغةِ ودَرَجةِ الإعجازِ، وأمَّا ما عَداهُ مِنَ الوُجوهِ فهو بمَعزِلٍ مِن بُلوغِ طَبَقةِ البَلاغةِ، فَضلًا على العُروجِ إلى مَعارِجِ الإعجازِ[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

- الباءُ في قولِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لِلقَسَم، والفاءُ لِتَفريعِ كَلامِه على أمْرِ اللهِ إيَّاه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ وعِقابِه إيَّاه باللَّعنةِ الدَّائِمة، وهذا التَّفريعُ مِن تَركيبِ كَلامِ مُتَكَلِّمٍ على كَلامِ مُتكَلِّمٍ آخَرَ، وهو المُلقَّبُ بـ (عَطفِ التَّلقينِ)[٢] في قَولِه تَعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقيلَ: الفاءُ لِتَرتيبِ مَضمونِ الجُملةِ على الإنظارِ، ولا يُنافيه قولُه تعالَى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]؛ فإنَّ إغواءَه تَعالى إيَّاه أثَرٌ مِن آثارِ قُدرتِه تَعالى وعِزَّتِه، وحُكمٌ مِن أحكامِ قَهرِه وسَلطَنَتِه، فمَآلُ الإقسامِ بهما واحِدٌ، ولَعَلَّ اللَّعينَ أقسَمَ بهما جَميعًا، فحَكى تارةً قَسَمَه بأحَدِهما، وأُخرى بالآخَرِ، أيْ: فأُقسِمُ بعِزَّتِك ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) عطْف التلقين: هو أن يُلقِّنَ المخاطَبُ المتكلِّمَ بالعطف. أو: هو عطْفُ المخاطَب كلامًا على ما وقَع في كلامِ المتكلِّم تنزيلًا لنفْسه في منزلةِ المتكلِّم يُكملُ له شيئًا ترَكَه المتكلِّمُ؛ إمَّا عن غفلة، وإمَّا عن اقتصار، فيُلقِّنُ المخاطَبُ المتكلِّمَ ما تَدارَكَه، بحيثُ يلتئمُ مِن الكلامين كلامٌ تامٌّ في اعتقاد المخاطَب. أو: هو عطفُ المتكلِّم كلامًا على كلامٍ صدَرَ مِن المخاطَب؛ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أنْ يكونَ مِن بقيَّة كلامِه وألَّا يُغفلَه. يُنظر: ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٠٤) و (٢٤/ ١٦٥).

أيْ: ذُرِّيَّة آدَمَ بتَزيينِ المَعَاصي لهم[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾

- الفاءُ لِترتيبِ ما بَعدَها على ما قَبلَها، أيْ: فالحَقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [ص: ٨٥]، على أنَّ الحَقَّ إمَّا اسمُه تَعالَى، أو نَقيضُ الباطِلِ، عَظَّمَه اللهُ تعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحَقُّ، أو فقَوْلي الحَقُّ، وقولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] حينَئذٍ جَوابٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ، أيْ: واللهِ لَأملأنَّ... وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ على كُلِّ تقديرٍ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ على الوَجهَيْنِ الأوَّلَيْنِ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّة، وعلى الوَجهِ الثَّالثِ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقَدِّمةِ، أعني: فقَوْلي الحَقُّ، وقُوبِلَ تأكيدُ عَزمِ الشَّيطانِ الذي دَلَّ عليه قَولُه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] بتأكيدٍ مِثلِه، وهو لَفظُ (الحَقِّ) الدَّالِّ على أنَّ ما بَعدَه حَقٌّ ثابتٌ لا يَتخَلَّفُ، ولم يَزِدْ في تأكيدِ الخَبَرِ على لَفظِ (الحَقِّ)؛ تَذكيرًا بأنَّ وَعدَ اللهِ تَعالى حَقٌّ لا يَحتاجُ إلى قَسَمٍ عليه؛ تَرَفُّعًا مِن جَلالِ اللهِ عن أنْ يُقابِلَ كَلامَ الشَّيطانِ بقَسَمٍ مِثلِه؛ ولذلك زادَ هذا المَعنى تَقريرًا بالجُملةِ المُعتَرِضةِ وهي: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لِمَا بَعدَه، وقُدِّمَ عليه؛ لِلقَصرِ، أو الاختِصاصِ، وهو بمَعنَى: لا أقولُ إلَّا الحَقَّ، أو هو على حِكايةِ لَفظِ المُقسَمِ به، ولا حاجةَ إلى القَسَمِ، ومَعناه التَّوكيدُ والتَّسديدُ[٢].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ بَيانيَّةٌ، وهي هنا بَيانٌ لِمَا دَلَّ عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مِن مِقدارٍ مُبهَمٍ، فبُيِّنَ بآيةِ ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾، وكافُ الخِطابِ في قَولِه: ﴿مِنكَ﴾ في مَعنى اسمِ الجِنسِ، أيْ: مِن جِنسِكَ الشَّياطينِ؛ إذْ لا تكونُ ذاتُ إبليسَ ملئًا لِجهنَّمَ، وإذْ قدْ عَطَفَ عليه ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أيْ: مَن تَبِعَكَ مِنَ الذين أغوَيتَهم مِن بَني آدَمَ، فلا جائِزَ أنْ يَبقى مَن عدا هذَيْنِ مِنَ الشَّياطينِ والجِنَّةِ غيرُ ملءٍ لِجهنَّمَ(١).

- ولَفظُ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يَخلو أنْ يُؤكَّدَ به الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ أوِ الكافُ في ﴿مِنكَ﴾ مع (مَنْ تَبِعَكَ)، ومَعناه: لَأملأنَّ جَهنَّمَ مِنَ المَتبوعِينَ والتَّابِعينَ أجمَعينَ، لا أترُكُ منهم أحَدًا، أو: لَأمْلأنَّها مِنَ الشَّياطينِ ومِمَّن تَبِعَهم مِن جَميعِ النَّاسِ، لا تَفاوُتَ في ذلك بَينَ ناسٍ وناسٍ بَعدَ وُجودِ الأتْباعِ منهم مِن أولادِ الأنبياءِ وغَيرِهم(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

الآيات (٨٦-٨٨)

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أي: المُتصَنِّعينَ المدَّعينَ ما ليس عندَهم؛ فلا أتكَلَّفُ إتيانَكم بما لم يأمُرْني اللهُ به. وتكَلُّفُ الشَّيءِ: ما يَفعَلُه الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مع مَشقَّةٍ تنالُه في تعاطيه، وصارت الكُلفةُ في التَّعارُفِ اسمًا للمشَقَّةِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم رِسالةَ رَبِّي أجرًا دُنيويًّا، وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويَتحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ عَظيمٌ لهما في اتِّباعِ أوامِرِه وتَرْكِ نَواهيه، ولَتَعلَمُنَّ صِدقَ أخْبارِ القُرآنِ، وتحقُّقَ ما فيه بعدَ وَقتٍ من الزمانِ، مُحدَّدٍ في عِلمِ اللهِ تعالَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تَمَّ ما أرادَ مِنَ الدَّليلِ على أنَّ ما ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُشرِكينَ نَبأٌ عَظيمٌ هم عنه مُعرِضونَ، بما أخبَرَ به مِن الغَيبِ معَ ما له مِن الإعجازِ، فثَبَت

(١) ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

بذلك ما اقتضَى أنَّه صادِقٌ في نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَرَه تعالَى بالبَراءةِ مِن طَريقِه، وأنْ يَنفيَ عن نَفسِه ما قدْ يُحمَلُ على التقَوُّلِ بقَولِه(١):

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ ربِّي أجرًا دُنيويًّا تُعطونَني إيَّاه(٢).

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

أي: وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه -على ما عرَفتُم مِن حالي- حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، وأتكلَّفَ ما لم أُؤمَرْ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (المعنى عُمومُ نَفيِ سُؤالِه الأجرَ منهم مِن يوم بُعِث إلى وَقتِ نُزولِ هذه الآيةِ، وهو قِياسُ استقراءٍ؛ لأنَّهم إذا استقْرَوا أحوالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما مضَى، وجَدوا انتِفاءَ سُؤالِه أجرًا: أمرًا عامًّا بالاستقراءِ التَّامِّ الحاصِلِ مِن جميعِ أفراد المُشرِكينَ في جميعِ مُخالطاتِهم إيَّاه؛ فهو أمرٌ مُتواتِرٌ بينهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧).

قال الماورديُّ: (﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: وما أنا مِن المتكلِّفينَ لهذا القُرآنِ مِن تِلقاءِ نفْسي. =

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (يا أيُّها النَّاسُ، مَن عَلِمَ شَيئًا فلْيَقُلْ به، ومَن لم يَعلَمْ فلْيَقُل: اللهُ أعلَمُ؛ فإنَّ مِن العِلمِ أنْ يقولَ لِما لا يَعلَمُ: اللهُ أعلَمُ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾)(١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.

= الثاني: وما أنا مِن المتكلِّفين لأنْ آمرَكم بما لم أؤمرْ به.

الثالث: وما أنا بالذي أُكلِّفُكم الأجْرَ. ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّل: أي: ما أنا بالمتقوِّلين لهذا القُرآنِ مِن تلقاءِ نفْسي: مقاتلُ بنُ سليمان، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ جَرير: (﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يقولُ: وما أنا ممَّن يتكلَّفُ تَخرُّصَه وافتراءَه، فتقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤] و﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيدُ على ما أرسَلَني اللَّهُ به، ولا أبْتَغي زِيادةً عليه بل ما أُمِرتُ به أدَّيتُه، لا أزيدُ عليه ولا أنقصُ منه، وإنَّما أبْتَغي بذلك وجهَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والدَّارَ الآخرةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

وقال البقاعيُّ: (﴿الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتحلِّينَ بما ليسوا مِن أهلِه مِن قولٍ ولا فِعلٍ، الذين يُكلِّفون أنفسَهم تَزويرَ الكلامِ والتصنُّعَ فيه وترتيبَه على طريقٍ مِن الطُّرقِ بنَظمٍ أو نثرٍ: سَجْعٍ أو خُطبٍ أو غيرِ ذلك، أو وضْعِ أنفسِهم في غيرِ مَواضعِها، كما فعَل إبليسُ؛ لستُ منهم بسَبيلٍ، ولا أُعَدُّ في عِدادِهم بوجهٍ، لا أفعلُ أفعالَهم، ولا أحبُّهم ولا أتعصبُ لهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٣٢-٤٣٣).

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٠٩) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٢٧٩٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى ما يقتَضي أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، وأزال الموانِعَ؛ بيَّن حقيقتَه التي لا يتعدَّاها إلى ما نَسَبوه إليه، بِقَولِه[1]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالَى لجَميعِ الجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ ورِفعةٌ لهم إنْ عَمِلوا وتمَسَّكوا به[2].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾.

أي: ولَتعلَمُنَّ -أيُّها المشركونَ- صِدقَ أخبارِ القُرآنِ، وتَحقُّقَ ما فيه مِنَ الوَعدِ والوَعيدِ؛ بعدَ وَقتٍ مِن الزَّمانِ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

ممَّن اختارَ المعنَى المذكورَ للذِّكرِ في الجملةِ: البقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠، ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

قال ابنُ جَرير: (لا حَدَّ عند العَرَبِ للحِينِ لا يُجاوَزُ ولا يُقصَرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٢). يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٤٦).

قال ابن جزي: (﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ هذا وعيدٌ، أي: لتعلمُنَّ صِدقَ خبرِه بعدَ حينٍ، والحِينُ يومُ القيامةِ، أو موتُهم، أو ظهورُ الإسلامِ يومَ بدرٍ وغيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤). =

كما قال تعالَى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى لِنَبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾ ولم يُطلِقْ لأحدٍ أنْ يُبلِّغَ عن اللهِ ما ائْتَمَنه عليه مِن عِلمِه ووَحْيِه بعَرَضِ الدُّنيا. وكذلك العُلماءُ نَعُدُّهم خُلفاءَ الرُّسلِ، وهمْ مُبلِّغون عن اللهِ؛ فليس لأحدٍ منهم أنْ يَأخُذَ عليه نَوالًا مِن حُطامِ الدُّنيا؛ فقدْ كان العُلماءُ يَتوقَّون في حالةِ البَيعِ والشِّراءِ أنْ يُحابُوا أو يُزادُوا لِمكانِهم مِن العِلمِ. ورُوِيَ عن الحسَنِ البصْريِّ أنَّه قِيل له: هذا لكَ بكذا؟ فقال: (إنَّما جِئتُ أشْتَري بدِرْهمي لا بِديني)[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التكلُّفِ[(٢)]، والنَّهيُ عنه وعن التصَنُّعِ، وهو نَوعٌ مِنَ النِّفاقِ، وضَربٌ مِن الرِّياءِ[(٣)].

٣- خَتَمَ اللهُ سُبْحانَه هذه السُّورةَ بهذه الخاتمةِ الشَّريفةِ؛ لأنَّه تعالَي ذَكَرَ طُرُقًا كَثيرةً دالَّةً على وُجوبِ الاحْتياطِ في طَلَبِ الدِّينِ، ثُمَّ قال عندَ الخَتْمِ: هذا الَّذي أدْعُو النَّاسَ إليْه يَجبُ أنْ يُنْظَرَ في حالِ الدَّاعِي وفي حالِ الدَّعْوةِ؛ لِيَظْهَرَ أنَّه حقٌّ أو باطِلٌ. أمَّا الدَّاعِي -وهو أنَا- فأنَا لا أسْألُكم على هذه الدَّعْوةِ أجْرًا ومالًا،

= قال ابن كثير: (قالَ قتادةُ: بعدَ الموتِ. وقال عِكرِمةُ: يعني يومَ القيامةِ. ولا منافاةَ بينَ القولَيْنِ؛ فإنَّ مَن ماتَ فقَدْ دَخَل في حكمِ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هناك أشياءُ أخبَرَ عنها القُرآنُ مَضَتْ وانقَضَتْ؛ فهذه عَلِمَها بعدَ حِينٍ مَن سَبَقَ هذه الحوادِثَ وأدرَكَها، وهناك حوادِثُ ستأتي يَعلَمُها بعدَ حينٍ مَن يُدرِكُها، وأمَّا الذي يُدرِكُه جميعُ النَّاسِ فهو ما يكونُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((المنهيات)) للحكيم الترمذي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٦).

ومن الظَّاهِرِ أنَّ الكذَّابَ لا يَنقطِعُ طَمَعُه عن طَلَبِ المالِ البتَّةَ، وكان صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم بَعِيدًا عن الدُّنْيا عَديمَ الرَّغْبَةِ فيها. وأمَّا كَيفيَّةُ الدَّعْوةِ فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فيه ما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ لِمَن أصرَّ على الجهلِ والتقليدِ، وأبَى قَبولَ البيِّناتِ، وأنه سيعلَمُ بعدَ حِينٍ إنْ كان مُصيبًا في هذا الإعراضِ، أو مُخطئًا[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أُخِذَ منه أنَّ ما جاء به مِنَ الدِّينِ: لا تَكَلُّفَ فيه، أي: لا مَشَقَّةَ في تكاليفِه، وهو معنى سَماحةِ الإسلامِ[3].

٢- قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه السُّورةُ العظيمةُ مشتمِلةٌ على الذِّكرِ الحكيمِ، والنبأِ العظيمِ، وإقامةِ الحُجَجِ والبراهينِ، على مَن كذَّب بالقرآنِ وعارَضه، وكذَّب مَن جاء به، والإخبارِ عن عبادِ اللهِ المخلَصينَ، وجزاءِ المتَّقينَ والطَّاغينَ، فلهذا أقسَم في أوَّلِها بأنَّه ذو الذِّكرِ، ووصَفه في آخرِها بأنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ، وأكثَرَ التَّذكيرَ بها فيما بينَ ذلك، كقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ﴾، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ آياتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وسلَّم تأتي مُتتابِعةً، منها ما عُلِمَ في عَهدِه، ومنها ما عُلِمَ بعدَ ذلك، ومنها ما لا يُعلَمُ إلَّا يومَ القِيامةِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ إنَّما أخَّروا إلى هذا الحِينِ؛ لِيُبلِغَ في الإعذارِ إليهم، فتَنقَطِعَ حُجَجُهم، وتَتناهى ذُنوبُهم التي يَستَحِقُّونَ الأخذَ بها(٢).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ اللهَ تعالى تَكَفَّلَ بأن يُعْلِمَ النَّاسَ صِدقَ نَبَأِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِقَولِه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ فإنَّ هذه الجُملةَ خَبَرِيَّةٌ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: اللَّامِ، والقَسَمِ المُقدَّرِ، ونونِ التَّوكيدِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بإبلاغِ المَواعِظِ والعِبَرِ التي تَضمَّنَتْها هذه السُّورةُ أمَرَه عِندَ انتِهائِها أنْ يَقرَعَ أسماعَهم بهذا الكَلامِ الذي هو كالفَذلَكةِ(٤) لِلسُّورةِ؛ تَنهيةً لها؛ تَسجيلًا عليهم أنَّه ما جاءَهم إلَّا بما يَنفَعُهم، وليس طالِبًا من ذلك جَزاءً، أيْ: لو سأَلَهم عليه أجْرًا لَراجَ اتِّهامُهم إيَّاه بالكَذِبِ لِنَفعِ نَفْسِه، فلَمَّا انتَفَى ذلك وَجَبَ أنْ يَنتَفيَ تَوهُّمُ اتِّهامِه بالكَذِبِ؛ لِأنَّ وازِعَ العَقلِ يَصرِفُ صاحِبَه عن أنْ يَكذِبَ لِغَيرِ نَفعٍ يَرجوه لِنَفْسِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

- قَولُه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] المَحكيِّ عنهم في أوَّلِ السُّورةِ، وإقامةُ الحُجَّةِ على صِدقِ رِسالَتِه[١].

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائِدٌ إلى القُرآنِ المَعلومِ مِنَ المَقامِ؛ فإنَّ مَبدَأَ السُّورةِ قَولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ فهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٢].

- والتَّكَلُّفُ: مُعالَجةُ الكُلْفةِ، وهي ما يَشُقُّ على المَرءِ عَمَلُه والتِزامُه؛ لِكَونِه يُحرِجُه أو يَشُقُّ عليه، ومادَّةُ التَّفعُّلِ تَدُلُّ على مُعالَجةِ ما ليس بسَهلٍ، فالمُتكَلِّفُ هو الذي يَتطَلَّبُ ما ليس له، أو يَدَّعي عِلْمَ ما لا يَعلَمُه؛ فالمَعنى هنا: ما أنا بمُدَّعٍ النُّبوَّةَ باطِلًا مِن غَيرِ أنْ يُوحى إلَيَّ، وهو رَدٌّ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وبذلك كان كالنَّتيجةِ لِقَولِه: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ لِأنَّ المُتكَلِّفَ شَيئًا إنَّما يَطلُبُ مِن تَكلُّفِه نَفعًا؛ فالمَعنى: ومَا أنا مِمَّن يَدَّعونَ ما ليس لهم[٣].

- وتَركيبُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أبلَغُ، وأشَدُّ في نَفْيِ التَّكلُّفِ مِن أنْ يَقولَ: وما أنا مُتكلِّفًا، أو: ما أنا بمُتَكلِّفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُز على الصَّدر: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظين المُكرَّرين -المتَّفقَين في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانسَين المُتفقَين في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَين بهما، بأنْ جمَعَهما اشتقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلام، ثم إعادةُ ذلك في آخرِ الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو من جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للميداني (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] اشتِمالَ نَفْيِ الشَّيءِ على ثُبوتِ ضِدِّه؛ فلَمَّا نَفَى بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أنْ يَكونَ تَقَوَّلَ القُرآنَ على اللهِ؛ ثَبَتَ مِن ذلك أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ لِلناسِ ذَكَّرَهمُ اللهُ به، أيْ: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهاتِ، ولكَ أنْ تَجعَلَها تَذييلًا؛ إذْ لا مُنافاةَ بَينَهما هنا. وعُمومُ (العالَمينَ) يُكسِبُ الجُملةَ مَعنى التَّذييلِ لِلجُملتَيْنِ قَبلَها[١].

- والقَصرُ الذي اشتَمَلَتْ عليه جُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ قَصرُ قَلبٍ[٢] إضافيٌّ، أيْ: هو ذِكرٌ، لا أساطيرُ، ولا سِحرٌ، ولا شِعرٌ، ولا غَيرُ ذلك؛ لِلرَّدِّ على المُشرِكينَ ما وَسَموا به القُرآنَ مِن غَيرِ صِفاتِه الحَقيقيَّةِ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أثبَتَتْ -مِن كَونِ القُرآنِ ذِكرًا- ما أثبَتَتْه أوَّلُ آيةٍ في السُّورةِ ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] على أتَمِّ وَجهٍ، مع زيادةِ الوَعيدِ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾؛ فانعطَفَ الآخِرُ على الأوَّلِ، واتَّصَلَ به أحسَنَ اتِّصالٍ وأجمَلَ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، باعتِبارِ ما يَشتَمِلُ عليه القَصرُ مِن جانِبِ الإثباتِ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٢) قصْر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

وستَعلَمونَ خَبَرَ هذا القُرآنِ بَعدَ زَمانٍ عِلْمًا جَزمًا فيَزولُ شَكُّكم فيه، فالكَلامُ إخبارٌ عنِ المُستَقبَلِ كما هو مُقتَضى وُجودِ نُونِ التَّوكيدِ(١).

- وفيه مِنَ التَّهديدِ لهم ما لا يَخْفى، وخَتَم الكَلامَ بتَسجيلِ التَّبليغ، وأنَّ فائِدةَ ما أبلَغَهم به لهم، لا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وخَتَمَ بالمُواعَدةِ لِوَقتِ يَقينِهم بنَبيِّه، وهذا مُؤْذِنٌ بانتِهاءِ الكَلامِ، ومُراعاةِ حُسنِ الخِتامِ(٢).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّمَر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

ذكَرَ القاضي عِياضٌ أنَّ من وُجوهِ إعْجازِ القُرآنِ: مُشاكَلةَ بَعضِ أجْزائِه بَعضًا، وحُسنَ ائْتِلافِ أنْواعِها، والْتِئامِ أقْسامِها، وحُسنَ التَّخلُّصِ من قصَّةٍ إلى أُخْرى، والخُروجِ من بابٍ إلى غَيرِه على اخْتِلافِ مَعانيه، وانْقِسامَ السُّورةِ الواحِدةِ إلى أمْرٍ ونَهيٍ، وخَبرٍ واستِخْبارٍ، ووَعدٍ ووَعيدٍ، وإثْباتِ نُبوَّةٍ، وتَوْحيدٍ وتَفْريدٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ إلى غيرِ ذلك من فَوائدِه دونَ خلَلٍ يَتخلَّلُ فُصولَه، والكلامُ الفَصيحُ إذا اعْتَوَرَه مثلُ هذا ضعُفَت قوَّتُه، ولانَتْ جَزالَتُه، وقَلَّ رَوْنقُه، وتَقَلقَلَت ألْفاظُه. ثمَّ قال: (فتأمَّلْ أوَّلَ «ص»، وما جُمِعَ فيها من أخْبارِ الكُفَّارِ وشِقاقِهم، وتَقْريعِهم بإهْلاكِ القُرونِ مِن قَبلِهم، وما ذُكِرَ من تَكْذيبِهم بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعجُّبِهم ممَّا أتَى به، والخَبرِ عنِ اجتِماعِ مَلَئِهم على الكُفرِ، وما ظهَرَ مِنَ الحسَدِ في كَلامِهم، وتَعْجيزِهم، وتَوْهينِهم، ووَعيدِهم بخِزيِ الدُّنْيا والآخِرةِ، وتَكْذيبِ الأُمَمِ قَبلَهم، وإهْلاكِ اللهِ لهم، ووَعيدُ هؤلاء مثَّلَ مُصابِهم، وتَصبيرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أذاهُم، وتَسليتَه بكلِّ ما تَقدَّمَ ذِكرُه، ثمَّ أخَذ في ذِكرِ داوُدَ وقَصصِ الأنْبياءِ، كلُّ هذا في أوْجَزِ كلامٍ وأحسَنِ نِظامٍ). ((الشِّفا بتَعريفِ حُقوقِ المُصطَفى - وحاشيةُ الشُّمُنِّيِّ)) (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).



الفهرس







الفهرس

سورةُ ص ٧
أسماءُ السُّورةِ ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ.. ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ.. ٧
الآيات (١-٣) ٩
غَريبُ الكَلِماتِ.. ٩
مُشكِلُ الإعرابِ.. ١٠
المعنى الإجماليُّ.. ١١
تَفسيرُ الآياتِ.. ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.. ١٥
بلاغةُ الآياتِ ١٧
الآيات (٤-١١).. ٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ.. ٢٥
المعنى الإجماليُّ.. ٢٥
تَفسيرُ الآياتِ.. ٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.. ٣٨

بلاغةُ الآياتِ ٤٢
الآيات (١٢-١٦) ٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ ٥٩
المعنى الإجماليُّ ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٦٧
بلاغةُ الآياتِ ٦٩
الآيات (١٧-٢٠) ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٧٨
المعنى الإجماليُّ ٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٨٧
بلاغةُ الآياتِ ٨٩
الآيات (٢١-٢٦) ٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ٩٦
المعنى الإجماليُّ ٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ١٢٧
الآيات (٢٧-٢٩) ١٣٨

غَريبُ الكَلِماتِ ١٣٨
المعنى الإجماليُّ.. ١٣٩
تَفسيرُ الآياتِ.. ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.. ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ ١٥١
الآيات (٣٠-٤٠).. ١٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ١٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ.. ١٥٨
المعنى الإجماليُّ.. ١٥٩
تَفسيرُ الآياتِ.. ١٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.. ١٧٥
بلاغةُ الآياتِ ١٨٣
الآيات (٤١-٤٤).. ١٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ١٩٣
المعنى الإجماليُّ.. ١٩٤
تَفسيرُ الآياتِ.. ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ.. ٢٠٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٠٨
الآيات (٤٥-٤٨).. ٢١٦

غَريبُ الكَلِماتِ ٢١٦
مُشكِلُ الإعرابِ ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٢٢
بلاغةُ الآياتِ ٢٢٣
الآيات (٤٩-٥٤) ٢٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٢٨
المعنى الإجماليُّ ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ٢٣٧
الآيات (٥٥-٦٤) ٢٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ٢٤٣
مُشكِلُ الإعرابِ ٢٤٥
المعنى الإجماليُّ ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ٢٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ ٢٥٩

الآيات (٦٥-٧٠) **٢٧٠**

مُشكِلُ الإعرابِ ٢٧٠

المعنى الإجماليُّ ٢٧٠

تَفسيرُ الآياتِ ٢٧١

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٧٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٢٧٧

بلاغةُ الآياتِ ٢٧٩

الآيات (٧١-٨٥) **٢٨٧**

غَريبُ الكَلِماتِ ٢٨٧

مُشكِلُ الإعرابِ ٢٨٨

المعنى الإجماليُّ ٢٨٨

تَفسيرُ الآياتِ ٢٨٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٢٩٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٠٢

بلاغةُ الآياتِ ٣١١

الآيات (٨٦-٨٨) **٣٢٣**

غَريبُ الكَلِماتِ ٣٢٣

المعنى الإجماليُّ ٣٢٣

تَفسيرُ الآياتِ ٣٢٣

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ٣٢٧

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ٣٢٨

بلاغةُ الآياتِ ٣٢٩

تـم الـصـف والإخـــراج فــي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠